

فجر اليقظة القوميّة

تأليف : محمّد عمارة

اهداءات ٢٠٠٢

الأستاذ/ فاضل عبد العليم القباني

الإسكندرية

دراسات فى القومية والأمة

فجر اليقظة القومية

تأليف محمد عمارة

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

تمهيد

لعلنا لا نكون مغالين اذا قلنا ان احدى سمات الوضع العـربى الذى نعيشه اليوم ، هى تلك الحالة الكيفية الجديدة التى وصلت اليها ظروف العالم العربى ، الداخلية منها والخارجية . والتى جعلت من أحداث أى جزء من أجزاء هذا العالم وظروفه وتطوراته عوامل داخلية ومؤثرات ذاتية ، بالنسبة لباقى الأجزاء .

فلم تعد أحداث العراق فى أقصى الشرق أحداثا خارجية بالنسبة الى المصرى أو الجزائرى أو المغربى الذى يعيش فى أقصى الغرب من هذا الوطن العربى الكبير . بل لقد أصبحت لهـــذه الأحداث ــ اية احداث ــ فى أى جزء ، نفس التأثيرات التى تحدثها العوامل الداخلية فى اية ظاهرة ، سواء أكانت طبيعية أم اجتماعية أم اقتصادية أم انسانية .

وليس لهذه الحقيقة التى نعيشها اليوم الا دلالة صادقة ، صدق الحقيقة الموضوعية : تؤكد أن العالم العربى قد أصبح اليوم يكون « ظاهرة واحدة » ، بعد أن كان يمثل « عدة ظواهر » ، واننا نعيش اليوم مرحلة المخاض التى سيشرق صبحها عن « أمة عربية » تتكون من هذه الجماعة البشرية التى تعيش على هذه الرقعة من الأرض ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج العربى فى أقصى الشرق ، ومن جبال طوروس فى الشمال الى المحيط الهندى ومرتفعات الحبشة فى أقصى الجنوب .

***

ونحن عندما نتحدث عن مستقبل امتنا العربية ، وعندما نبحث قضايا الحاضر الذى نعيش فيه ، قد يختلف بعضنا مع بعضنا الآخر ، وليس فى ذلك ما يثير الاستغراب ، أو الانكار . ولكن الذى

يثير الاستغراب والاستنكار معا ، هو أن نبدو متفقين ، ومتفقين تماما ، بينما نحن مختلفون تمام الاختلاف .

فليس غريبا أن يرى بعض الناس أن هذه الجماعة البشرية العربية لا تكون قومية واحدة ، وأن ينكر هؤلاء مسار هذه الجماعة نحو تبلور الأمة الواحدة من خلال انصهار هذه الشعوب ، لأن أولئك لهم مدرسة فكرية ومصالح طبقية وثيقة الاتصال بأعداء وحدة هذه الأمة وتطور هذه الجماعة نحو الاتحاد ٠

وليس غريبا أن يرى بعضهم مصلحة العالم العربى فى المحافظة على الاقليمية ، وما استقرت عليه من حدود وتجزئة وتقسيمات ، لأن لهم مصلحة مادية وادبية فى هذه الأقليمية ، وفى بقاء هذه التجزئة وخلود هذه التقسيمات . وانما الغريب والمنكر حقا ، هو أن نرى الذين ينطلقون من نقطة بدء واحدة ، ويصدرون من منبع فكرى واحد أو متقارب ، ويرفعون نفس الشعارات ويسعون لذات الأهداف ، أن نرى هؤلاء ، عند امتحان شعاراتهم فى التطبيق يختلفون ، يختلفون اختلافا غير يسير ، وتتفرق بهم السبل ، وتتشعب بهم الطرقات .

فتيارات سياسية عريضة وعديدة فى الوطن العربى ، تؤمن بالقومية العربية شعارا ، ، ولكنها تختلف فى مضمون هذا الشعار بل لقد أصبح هذا الشعار حمالا لكثير من الأوجه ، محتملا لكثير من التفسيرات ٠ وكما قاتل الامام على رضى الله عنه معاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية عليا ، فى يوم من الأيام ، بنفس الآيات المقتبسة من القرآن الكريم ، فكذلك نجد حال شعار القومية العربية فى الحرب الدائرة اليوم بين مختلف القوى الاجتماعية والتيارات السياسية العربية ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار .

وتيارات سياسية عريضة وعديدة ، تؤمن بالوحدة العربية ، ولكنها تختلف فى مضمون هذه الوحدة ، وفى السبيل الى تحقيقها ، بل ان الصراع ، وحتى الحرب ، انما تدور اليوم بين قوى تستظل أغلبيتها بألوية هذه الوحدة ، وترفع من أجلها الأعلام والرايات ٠

ونحن لا يمكن أن نلصق بمن يختلفون معنا فى الرأى صفة الكذب ، أو وصمة التضليل وعدم الجدية والخداع ، كما لا يمكن أن ننكر ان سحابات كثيرة ، وكثيفة لا تزال تمد ظلالها فوق حقل الدراسات العربية ، وأن لهذه الظلال ولذلك الضباب اكبر الأثر

فى عدم الوضوح الذى أصاب ويصيب كثيرين منا حول هذه القضايا التى تلح علينا صباح مساء .

كما لا نستطيع أن ننكر ، بل أن نغفل ، ذلك العيب ، بل المرض الذى أصاب معظم الدراسات التى قدمت حتى الآن عن القومية العربية والأمة العربية والوحدة العربية —ونعنى الدراسات الجادة العلمية وشبه العلمية — وهو عيب تناول هذه القضايا فى حاضرها ومستقبلها فقط ، وفى أحسن الحالات القاء نظرة على أمسها القريب ، دون تتبع لهذه الظاهرة التى ندرسها اليوم ، لا فى ماضيها القريب والبعيد فحسب ، بل فى نشأتها ومسارها التاريخى عبر الطرق والمسالك والمنعرجات والعصور .

اننا فى حاجة الى نظرة شاملة وموضوعية الى هذه الظاهرة الانسانية التى نسميها « الجماعة العربية » ، والى تقويم علمى للمسار الذى سارت فيه ، والظروف التى مرت بها ، والمراحل التاريخية التى عاشتها .

وليس الهدف من دخول ميدان الدراسات القومية العربية من هذا الباب ، هو أن نضيف كتابا جديدا فى مكتبة التاريخ ، فما نقدمه ليس كتاب تاريخ ، ولا ان نقدم دراسة اجتماعية لحياة هذه الجماعة من الناس ومغامراتها وابداعاتها ، ولا أن نبرز فى خيط واحد متصل القاعدة المادية والحياة الاقتصادية التى تتابعت وتوالت فى هذا المجتمع الكبير ... ليس ذلك هو الهدف ، بقدر مانهدف الى أمرين أساسيين :

أولهما : أن نتفق على تقويم علمى للمقدمات الكثيرة والعديدة التى يزخر بها حقل الدراسات العربية القومية ، لأن هذا الاتفاق ، دون التوفيق أو التلفيق ، هو الذى سيجعلنا نصدر بحق من نقاط اتفاق ، وهو الذى سيعطى للشعار الواحد ، مضمونا واحدا سواء أكان هذا الشعار متعلقا بحاضرنا أم بالمستقبل الذى نستهدفه ، قريبا كان هذا المستقبل أو بعيدا .

وثانيهما : ذلك الزاد الذى سنتزود به من هذه الدراسة لنستعين به على شق طريقنا وسط الضباب ، ووسط العقبات ، ففى ماضى أمتنا العربية من الصفحات المشرقة فى ميادين الثقافة والعسكرية والاقتصاد ، ما لو وعيناه وعيا علميا دقيقا لأعطانا الثقة كل الثقة فى معركة بناء حاضرنا ومستقبلنا على أمتن الأسس ومن أقوم طريق .

أننا لا نريد لأمتنا ، وخاصة لشبابها ، أن يشرعوا فى بناء الحياة العربيةالجديدة ، وأن نطلب منهم أن يتموا عملية الصهر بنجاح ، بينما ظهرهم يستند الى .. خلاء .

والجماعة التى لا تشعر بأن فى ماضيها من العزة والغنى والثراء ما يبعث على الفخر والاعتزاز ، هذه الجماعة قد لا تستطيع أن تتحمس لبناء حاضرها ومستقبلها اللهم الا اذا شحنت بمجموعات ضخمة من الأكاذيب ، ونحن لا نريد ، ولا ينبغى أن نصنع ذلك ، بينما تراثنا وامجادنا وصفحات تاريخنا المشرقة المضيئة تنتظر من يكشف عنها الستار ، ويزيل من فوقها الغبار .

ومن هنا كانت الحاجة الماسة لتقديم نظرة متكاملة ، وتقويم علمى لهذه الظاهرة الانسانية التى يمكن أن نسميها « العروبة » ، فى ماضيها وحاضرها ، وما نريده ، ويريده لها التطور التاريخى فى المستقبل القريب والبعيد .

***

ومن نقطة البداية هذه ، وتبعا لهذا المنهج الذى اخترناه ، ما كان صوابا بل ولا بالامكان أن نبدأ هذه الدراسة بالتعريفات الجاهزة للقومية أو الأمة ، حتى ولو كانت هذه التعريفات ممـــا نرتضيه ونوافق عليه ، ولا ان نبحث عن القوالب التى تزخر بها بعض كتب القومية والأمة ، لنختار بعضها ونصب فيه حقائق واقع قوميتنا وامتنا ، ثم نتوهم بذلك اننا نريح ونستريح ، وذلك لأننا نريد لهذه الدراسة أن تكون أشبه بدراسة « على الطبيعة » منها بالحديث النظرى المجرد ، ومسيرة عبر الواقع العربى لا نظرة من فوق هذا الواقع .

وأكثر من هذا ، فنحن نريد أن نقدم النظـرية ، من خلال هذه المسيرة فى أرض الواقع ، واهمية ذلك ستتضح أكثر فأكثر ، اذا علمنا أن لقوميتنا العربية ، ولأمتنا العربية ظروفا وملابسات خاصة بها لم تحدث لقوميات أخرى ،ولم تلابس تبلور أمة أخرى وتكونها ، على الأقل فى حدود ما لدينا من معلومات .

ومن هنا فاننا نقول : ان هذه الدراسة قد جعلتنا نؤمن بأن للعرب نظريتهم العربية الخاصة فى القومية والأمة ، كما أن لهم كذلك نظريتهم الخاصة فى الثورة .

وانا لا اعتقد أن العرب وحدهم ، قد امتازوا بهذه الخصوصية دون سواهم من الأمم والجماعات ، فكما استقر اليوم أن لكل ثورة

من الثورات ، من السمات الخاصة ، والخصائص المحلية والقومية ما يخلع على هذه الثورة صفة المحلية ويعطيها « نكهة قومية خاصة » دون أن يكون فى ذلك افتئات على السمات العامة التى تشمل كل الثورات ، الوطنية منها والاشتراكية .. فان لكل أمة ، ولكل قومية من الظروف التاريخية والملابسات ، ما يكون لهذه الأمة ـ أية أمة ـ نظريتها القومية الخاصة ، مع اشتراك فى بعض العلائم والسمات التى تشترك فيها كل الأمم والقوميات .

ولذلك فان اعجاب بعضهم ، وتقليده لكثير من الجوانب التى صاغها ، « ستالين » فى كتابه (الماركسية والمسألة القومية) سنة ١٩١٣ م ، ثم فى رسالته (اللينينية والمسألة القومية) سنة ١٩٢٩ ، لا يعنى أبدا أن نعتبر نظريته هذه عن الأمة نظرية صالحة لأن تؤخذ كلها فتطبق على أية أمة فى أى زمان أو مكان . بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان « ستالين » نفسه لم يدع لنظريته فى الأمة هذا الحق من التكامل والعمومية والصلاحيات المطلقة فى يوم من الأيام .. فهو القائل فى سياق حديثه بكتيب (اللينينية والمسألة القومية) :

« ... ان للماركسيين الروس نظرية فى الأمة مقررة منذ أمد بعيد ... » ..

فهى اذن ، نظرية « الماركسيين الروس » .. لا النظرية الصالحة للتطبيق على كل الأمم ، فى كل زمان ومكان ، ومن أية قومية من القوميات .

كما ان عدم رفضنا لبعض جوانب التفكير الالمانى أو الفرنسى عن مسألة القومية والأمة ، لا يعنى اننا نقبل نظرية هؤلاء أو أولئك عن القومية والأمة .. بل اننا انطلاقا من هذه الحقائق ، وبالدرجة الأولى صدورا من حقائق واقع « الجماعة العربية » وسير تطورها التاريخى ، وظروفها الخاصة ، وملابسات تبلور هذه الأمة ، صدورا من هذه الحقائق ، نؤكد أن للعرب نظريتهم الخاصة فى القومية والأمة ، وذلك ما يستوجب ان نسلك لصوغ هذه النظرية وتقديمها طريق الدراسة الواقعية والتتبع الدقيق للمسار التاريخى لظاهرة « العروبة » .. كيف بدأت ؟؟ .. وتطورت ؟ .. ومتى وصلت الى ما هى عليه اليوم ؟؟؟ ..

***

ونحن في سبيل ذلك ، لن نقدم فقط بعض المفاهيم الجديدة على الدراسات العربية فى هذا المجال ، ولا سنغير فحسب بعض الاسماء لبعض المسميات ، وانما سنعيد تقويم مراحل بأكملها من تاريخ تطورنا الحضارى ، باذلين أقصى ما يمكن من الجهد لمراعاة الدقة والاسلوب العلمى فى هذا التقويم ، لنقدم ماضى شعوبنا العربية من خلال المعارك والصراعات التى خاضتها هذه الشعوب ، ولنبرز الصفحات والعوامل التى لعبت الأدوار الحاسمة فى صعود هذه الجماعة أو فى هبوطها خلال الطريق الذى سلكناه منذ مئات السنين .

ونحن لن نستطيع أن نقدم « ظاهرة العروبة » على هذا النحو ، الا اذا سلكنا فى هذه الدراسة طريقا لم يطرق — فى حدود علمنا — بشكل متكامل حتى الآن ، والا اذا تناولنا هذه المراحل التاريخية ، لهذه الجماعة الانسانية ، كما تتناول الدراسات العلمية التاريخية — حديثا — حياة الجماعات .. وعلى وجه الدقة ، الا اذا تناولنا حياة هذه الجماعة من ناحيتيها المادية والمعنوية ، اى درسنا «القاعدة المادية» لهذا المجتمع ، وأيضا «بناءه الفوقى» ، والقينا كثيرا من الأضواء على معالم الحضارة العربية فى جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية عبر هذا التاريخ .. والا اذا أبدينا مزيد الاهتمام بكل ظاهرة اجتماعية مهما تكن جنينية وغير بارزة ، ولكل سمة فكرية مهما تبد خافتة الشعاع ، ولكل خاصية حضارية مهما تبد شاحبة وسط أحداث الماضى البعيد .. فعلى العين التى تلقى نظرة شاملة لمثل هذا الموضوع ، أن تكون شديدة الحساسية لاكتشاف كل ماهو جديد فى حركة التطور لهذه الجماعة ، واستخلاص الدلائل من هذا الجديد .

***

واذا كانت هذه هى الزاوية التى سنحاول تقديم الجماعة العربية والمجتمع العربى من خلالها ، والتى سنحاول عن طريق تتبعها اكتشاف حقيقة سمات قوميتنا ، ومتى ظهرت .. وحقيقة سمات امتنا ، وفى اى ظروف وملابسات تكتمل .. وعلى أيدى اية قوى سياسية واجتماعية تتبلور ..

اذا كان الأمر كذلك ، فاننا لابد وأن تشمل نظرتنا هذه ، وأن تغطى دراستنا هنا تطور مجتمعنا العربى عبر هذه المراحل :

١ ـ أخريات المجتمع العبودى الغربى .

٢ ـ محاولة ـ لم تعش طويلا ـ لاقامة تجربة لنمط من انماط العدالة الاجتماعية اقرب مايكون الى «الاشتراكية» ، على يد الجيل الأول من المسلمين .. الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، والفقراء من أصحابه .

٣ ـ المجتمع الاقطاعى الغربى .

٤ ـ المجتمع البورجوازى .

٥ ـ بدايات المجتمع الاشتراكى الغربى .

وللوهلة الأولى ، فان هذه المهام تبدو أضخم من ان يستطيع تناولها انسان بمفرده ، وهذه حقيقة لاسبيل الى انكارها .. غير اننا لانهدف فى هذه الدراسة الى تقديم كل أبعاد الموضوع وزواياه وتفصيلاته ، لأنه فى هذه الحالة سيكون اقرب الى « الموسوعة العربية» منه الى الدراسة التى نحن بصدد تقديمها ..

واذا كانت الأولى ـ أى «الموسوعة العربية» ـ ضرورية ، ومما يتوق كل انسان عربى الى ان يراها حقيقة تزدان بها المكتبة العربية وتنتفع بها الحركة الثورية الثقافية ، فان عذرنا اننا لانستطيع أن ندخل هذا الميدان ، لأنه لاترووده الا كتيبة من الباحثين ، لا فرد ولا بضعة افراد .

اما مانهدف اليه فهو دراسة علمية وموجزة ، وشاملة فى نفس الوقت .. دراسة تغطى تلك الحقبة التاريخية التى تستغرق نحوا من خمسة عشر قرنا من الزمان ، والتى تتتبع « ظاهرة العروبة » فى نشأتها وتطورها ، وايضا فى حاضرها ، ومما ينتظرها من أحداث فى مستقبل الايام .

الباب الأول

عَرَبُ مَا قَبلَ الإسْلام

١ - هل من من الممكن أن يكون حقــا ذلك التصوير الساذج للحياة العربية قبل الاسلام وابان ظهوره ؟ ! ذلك التصوير الذى يقدم الحياة العربية خاليــة من كل آثار الحضارة ، عارية من دلائل التمدن ، مجردة من كل مايعطى الحياة معنى الحياة ! ؟

اننا لن نجهد عقولنا كثيرا فى اكتشاف زيف هذه الصورة وفجاجة ذلك المنطق ، وفشل تلك المحاولة فى الصمود أمام البحث العــلمى الجاد .

فأصدق مصدر تتجسد فيه أروع مرآة معبرة عن حقيقة « المجتمع العربى » فى ذلك الحين ، هو القرآن الكريم . واذا كان الشعر العربى القديم « الجاهلى منه وما قيل فى بداية ظهور الاسلام » قــد أصابه ما أصاب كل الآداب القديمة « للأمم القديمة » من زيادة ونقص وضياع ونحل وتزييف ، فان القرآن الـكريم لم يلحقه عيب واحد من هــذه العيوب . واذا كانت العرب لم ترزق من المعابد والتمــاثيل والنقوش المـكتوبة والمحفورة ، مايحفظ لنا صورة الحياة الواقعية والفكرية ، فلقد حمل القرآن الـكريم العبء الأكبر فى القيام بهذا الدور ، وتقديم تلك الصورة لنا ولمن سبقنا ولمن سيأتى بعدنا من أجيال . فهو المصدر الأساسى ، ان لم يكن الوحيد ، الذى يصور تلك الحقبة التاريخية التى سنجعل منها نقطة انطلاق لنا فى سيرنا مع الجماعــة العربيـــة عبر التاريخ(١) .

والقرآن ينبهنا الى ذلك الخطأ الذى وقع فيه كثير من الناس ، خطأ الخلط بين «العرب» وبين «الأعراب» ، وهو يصور لنا «الأعراب»

---

(١) د. طه حسين « في الادب الجاهلي »

جماعات تسكن البـــادية ، منقطعة الصلة بالحضارة ، لم يصبها التمدن فى شىء قليل أو كثير ٠٠ فـــ « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجـــدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .. بل هم الذين طالما تألف الرسول قلوبهم ، وأيضـا سيوفهم بالمال والعطـــاء والهبات ، دون أن يكون للمنطق فى هذا « التألف » كبير مجال .

وهم الذين تحدث الامام الغزالى عن طريقة اســلامهم ونوع الأدلة والبراهين التى سلـكوها لتحصيل الايمان بالدين الجديد ، وعن لقائهم للرسول صلى الله عليه وسلم « وعرضه الايمان عليهم ، وقبولهم ذلك ، وانصرافهم الى رعاية الابل والمواشى من غير تكليفه اياهم التفـــكر فى المعجزة ، ووجه دلالته ، والتفكر فى حدوث العالم ، واثبات الصانع ، وفى أدلة الوحدانية ، وسائر الصفـــات » ثم يستطرد ليقول : « بل الأكثر من أجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه » (١) .

أما «العرب» فهم هؤلاء الذين لم يعرفوا الرعى فقط ، ولا الزراعة حول الآبار ومصادر المياه فحسب ، بل هم الذين ضربوا بسهم وافر فى التجارة المحلية والدولية منذ أقدم عصور التاريخ ، هم الذين كانوا واسطة عقد التجارة الدولية بين الشرق والغرب ، يأتون بها من الصين وشواطىء الهند الغربية وجزرها الشرقية الى الخليج العربى ، فحوض مابين النهرين ، فسوريا ، فالبحر المتوسط ، فالدولة الرومانية أو دول المدن التجارية بأوربا .. وبالبضائع من شرق أفريقيا الى اليمن ، فمكة ، فالشام ، فبلاد الروم .. وهم الذين كانت لهم دراية بالبحر والملاحة قبل كثير من الشعوب التى عاشت حول البحار والمحيطات . فهم لم يعرفوا الصحراء وحدها ، بل عرفوا البحر ، والملاحة والفلك منـــذ أقدم العصور .. فمنذ ماقبل الميلاد اتخذ العرب على الساحل الشرقى لأفريقيا عدة مستعمرات ، منهـــا «لامور» و «ممبسه» و «زنجبـــار» و «موزمبيق» ومارسوا فيهـــا جميع أنواع التجارة بما فيهـــا تجارة الرقيق ، بل ان صلات العرب التجارية بزنجبار انما تضرب فى أعماق التاريخ ثلاثة آلاف من السنين .

ومن الذى ينكر دلالة تلك السيطرة العربية التجارية التى جعلت من المحيط الهندى والبحر الأحمر والبحر المتوسط ، بحيرات عربية ، وذلك التقدم فى علوم البحر والفلك والملاحة ، الذى جعل «فاسكود ــ جاما» مكتشف «رأس الرجاء الصالح» يختار ملاحا لسفينته ، الملاح والعالم العربى فى علوم البحار «شهاب الدين أحمـــد بن ماجـــد » الذى ولد

---

(١) أبو حامد الغزالى « الجام العوام عن علم الكلام » « ضمن مجموعة » ص ٢٩٩

«بجلفار» بعمان ، والذى أخذ علم البحر عن أبيه ، عن جده ، والذى التقى بفاسكود ـ جاما بمدينة « مالندى » على الشاطىء الشرقى لافريقيا . ولم يكن شهاب الدين أحمد بن ماجد ، مجرد ملاح ، بل لقد كان حجة فى علوم البحر المختلفة ، له فيها مؤلفات واراجيز ، منها : « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » و « الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد » ، وغيرها(١) .

كما أن كثيرين يعودون اليوم فيسلمون بتلك الحقيقة التى تؤكد اكتشاف العرب ـ منطلقين من ساحل المغرب على المحيط الأطلسى ـ للقارة الأمريكية قبل «خرستوف كولومبس» بمئات السنين ، ودلالة ذلك على عراقة علوم البحر عندهم ، ومن ثم قدم اشتغالهم بالتجارة منذ وقت مبكر من التاريخ .

بل والصلة التى لا تنكر بين الفكر العربى فى هذا الميدان ، والذى استوطن واستقر فى أسبانيا حتى بعد انحسار الحكم العربى من هناك، الصلة بين هذا الفكر وبين الرحلة التى قادها الملاح الأسبانى «كولومبس» والتى أثمرت اكتشاف الأمريكتين ثم تعميرهما .

وهذه الرحلة العجيبة المذهلة التى تلقى ضوءا على مكان المنطقة العربية من البحر والتجارة والاكتشافات البحرية منذ ما قبل الميلاد بمئات السنين . ففى عهد الفرعون المصرى «نخاو» (٦٠٩ ـ٥٩٣) ق.م، وبأمر منه طاف الملاحون الفينيقيون حول افريقيا ـ قبل البرتغاليين بأكثر من ألفى سنة ـ فساروا من البحر الأحمر متجهين نحو الجنوب ، الى المحيط الجنوبى . وعندما كان يقترب الخريف ، كانوا ينزلون الى الشاطىء ، فيزرعون القمح ، وفى نهاية موسمه يعودون للرحيل من جديد . وبعد سنتين من بدء الرحلة ، وفى السنة الثالثة عبروا مضيق « هيركوليس » « جبل طارق » ثم عادوا الى مصر .. وختم «هيرودوت» حديثه عن هذه الرحلة الفذة بقوله : « وهناك قالوا (اى الملاحون) ما يصدقه بعضهم ، ولكننى لا أصدقه : انهم بدورانهم حول ليبيا (أفريقيا) كانت الشمس على يمينهم »(٢) .

بل وما لنا نذهب بعيدا ولا نبصر دلالة الرحلة البحرية الباسلة التى قام بها ثمانون من خيرة رجال الدعوة المحمدية فى بداية ظهور الاسلام ، هم وعائلاتهم وذووهم الى بلاد الحبشة عبر البحر ، دلالة هذه

---

(١) وهو ليس ظاهرة مستحدثة . بل يمثل امتدادا لتراث عربى قديم فى هذا الباب .

(٢) د. فيليب حتى « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » جـ١ .

« الهجرة البحرية » فى اتخاذ العرب للبحر طريقا معبدا ومطروقا منذ ما قبل الاسلام ، يحمل رجالات دينهم الجديد الى مأمنهم حتى يحين الحين لتسوية الحساب مع الأعداء المشركين بالله ... بل وتلك الصورة الفنية الرائعة والدقيقة التى جاءت للبحر فى القران الكريم « أو كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ،ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها » ودلالتها فى الصلة التى قامت بين العرب والبحر فى ذلك الحين ..

وهؤلاء العرب الذين كانت لهم هذه الآثار والجهود فى ميدان البحر والتجارة ، كانت لهم مع البحر قصة اخرى قوامها الصيد والانتفاع بما فى جوفه من معادن وأسماك ، وهى قصة وجدت طريقها الى القرآن الكريم حينما يسجل نعمة الله عليهم ، اذ « هو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها .وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

على أن التجارة العربية لم تكن بحرية فقط ، فلقد أسلفنا الاشارة الى أن القوافل قد أخذت طريقها من شرق شبه الجزيرة الى غربها ، ومن الجنوب الى الشمال ، وبالعكس ، طوال عصور ممتدة فى التاريخ ...بل لقد عرفت شبه الجزيرة العربية عديدا من المدن والحواضر التجارية التى لعبت دورا بارزا فى تنمية الحضارة التجارية لهذه البلاد ، مثل « البتراء » و « تدمر » و « بصرى » و « مكة » ، و « حلب » وميناء «صحارى» ، وغيرها من المدن والموانىء كثير . كما عرفت هذه المدن التجارية العربية ، وخاصة « مكة » تلك الأسواق والمعارض التجارية التى كانت تقام فيها كل عام ، مع ماكان يصاحب هذه الأسواق والمعارض من حركة فكرية وثقافية لعبت دورا كبيرا فى صياغة المجتمع العربى وصهر الجماعة العربية ، وتوحيد مالها من خصائص وسمات .

والأشهر الحرم التى حدثنا عنها القرآن الكريم ، والتى كانت فرصة سنوية يتبادل فيها العرب صناعة الحضارة والسلام بعيدا عن الحروب والمنازعات ... والنظام المالى المحكم والدقيق ، الذى صور القرآن بعض جوانبه فى الربا والأجور وكتابة العقود والاشهاد عليها ، كل هذه اللمحات انما تسجل وتمثل جوانب فقط ، وجوانب جزئيّة ،من الصورة التى سجلها القرآن الكريم للمجتمع العربى قبيل ظهور الاسلام وابان بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو تصوير لمجتمع «العرب» لا « الأعراب » ، هؤلاء العرب الذين بلغوا من درجات العقل والمنطق واستخدام البراهين ، ما جعل الامام الغزالى يميزهم عن « الأعراب » الذين عرفنا رأيه فيهم ، والذى قال عن العرب ومبلغ ادراكهم لأسرار

الدعوة الاسلامية وأسرار كتاب الله وحكمة رسوله ، انهم « أعرف الناس بمعانى كلامه ، وأحراهم بالوقوف على كنهه ، ودرك أسراره »(1) .

وذلك فضلا عما فى الشعر الجاهلى ، والحكم والأمثال المأثورة عنهم ، والثروة اللغوية للعربية ، وجمال تراكيبها وبلاغتها ، من أدلة جيدة البرهنة على ماوصل اليه هذا المجتمع واهله من حضارة نسبية، وتقدم ملائم لما أحاط بهم وبعصرهم وبالبيئة التى عاشوا فيها من ظروف وملابسات . وكلها أدلة تنفى ذلك التصور الساذج الذى لايبصر فى هذا المجتمع وهؤلاء القوم ، سوى قطيع من البشر الذين خلت حياتهم وعقولهم وقلوبهم من كل ما هو متقدم وحسن وجميل .

---

(1) ابو حامد الغزالى « الجام العوام عن علم الكلام » «ضمن مجموعة» ص ١٧٢.

٢ -

ولكن .. أهذه كل ملامح صورة « الحضـــارة العربية » قبيل ظهور الاســـلام ؟ .. ان كثيرا من الـكتابات التى كتبت عن هـذه الحقبـة من تاريخ « الحضارة » العربية لاتعدو تصوير العـرب مجموعة من القبائل المتنافرة المتناحرة ، وتصوير « الـدولة » العربية الاسلامية ، بوصفها أول « دولة » عـربية أقامها العرب على أسس حضارية متقدمة عبر التاريخ . ولـكن ذلك أمر مغاير للحقيقة ، وصـورة لا تتفق مع وقائع التاريخ .

فمنذ قرون ضاربة فى أعمـاق القدم ، كانت للعرب حضـارة ، بل « دولة » فى الجنوب ، فى « اليمن السعيد » .. حضـارة لم تعرف الرعى فقط ، ولا التجارة فحسب ، بل عرفت الزراعة وبناء السدود وحياة التمدن والاستقرار . وفى « العهد القديم » وفى القصـص والأساطير التى تحدثت عن مملكة « سبأ » وملكتها الحسناء « بلقيس» حوالى سنة ٩٦٠ ق .م ورحلتها الى مملكة سليمان مايعكس بعض جوانب الصورة الحضارية للدولة العربية التى شهدتها أرض اليمـن فى الجنوب . وعندما انهار السد العظيم الذى كان قائما فى دولةاليمن هذه « سد مأرب » ، وحدثت هجرات من الجنوب الى الشمال ،بنى المهاجرون العرب وأقاموا حضـــارة ، بل و « دولة » عرفت بدولة « النبط » ، شملت جنوب فلسطين وسورية الجنـوبية الشرقية ، وشرقى الأردن وشمال الجزيرة العربية . ولقـد شهدت هذه الدولة ، وعاصمتها « البتراء » حياة ذات حضارة واستقرار منذ أواخر القرن الثانى قبل الميلاد . ويبدو أن « البتراء » هذه قد شهدت من الترف والحضـارة والعراقة ما جعل أحد أوصافهـا فى كتب التاريخ القـديم ،

انها مدينة « حمراء وردية اللون ، وقديمة ، يبلـغ عمرها نصف عمـر التـاريخ » ! !..

***

وكأنما شاء التاريخ الا تغيب عن الوجود « دولة » للعـرب ذات حضارة ، تقدم الجمـاعة العربية بوصفها عنصرا غير غريب عن التقدم ، بل سباقا الى فنونه والوانه ، ففى الوقت الذى كانت تحتضر فيـه « النبط » وعاصمتها « البتراء » كانت تظهر دولة « تدمر » العربيـة الى الوجود . ولقد شملت هذه المملكة العربية فى عهد ملكتها العظيمة « زنوبيا » (الزباء) سورية وجزءا من آسيا الصـغرى وشمال شبه الجزيرة العربية . وكانتالسلطة الحقيقية فى هذه الدولة بيد « مجلس الشعب » . ولقد بلغت قيمة الحضارة التجارية فى هذه الدولة درجة جعلت « مجلس الشعب » هذا يقيم تمثالين لكل من « رئيس القافلة » و « رئيس السوق » . كما عثر فى كتابة اثرية من سنة ٢٥٨ م على أثر يفيد أنه قد قامت بها « نقابة للصاغة الذين يصيغون الذهب والفضة » كما اكتشف المنقبون بين أطلال هذه الدولة بقايا سد بين تلين طوله ربع ميـل .

***

وعندما كانت شمس « تدمر » آخذة بالغروب ، كانت هنـاك دولتان عربيتان تتخـذان مكانيهما على مسرح التقدم والحضـارة ، احداهما دولة « المناذرة » فى الشرق فى حوض مابين النهرين على حدود الدولة الفارسية ، والثانية دولة « الغساسنة » فى الغـرب ، والتى شملت المساحة الممتدة من قرب « البتراء » الى « الرصافة » شـمال تدمر ، والبلقاء ، والصـفا ، وحران . والتى كانت « بصرى » عاصمتها التجارية والدينية ، وصاحبة « الكاتدرائية » الشهيرة التى بنيت فيها سـنة ٥١٢ م .

وفى الوقت الذى كانت تسلم فيه دولتا « المناذرة » و «الغساسنة» الروح ، كانت تبنى وتتدعم فى قلب شبه الجزيرة العربية ، تلكالدولة الاسلامية الجديدة التى قامت على أساس من تعاليم الاسلام الثورية فى الروحانيات والمـاديات على حد سواء ، والتى قاد العرب فى سـبيل تكوينها نبى الله ورسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

٣- ولكن .. هل كان قيــام الدولة العربية الاسلامية مجرد امتداد لهــذه الحضــارات التي شهدتها « سبأ » و « النبط » و « تدمر » ودولة « بني المنــذر » و « بني غسان » ..؟ وهل كانت مجرد خلف لهــذه الدول وهــذه الحضارات ، كمــا كانت اللاحقة منها خلفا للســابقة ..؟

ان الأمر ، هذه المرة ، لم يكن كذلك .. وهنا يكمن الفرق بين الدولة العربية والحضارة العربية التى قامت فى النصف الأول من القــرن السابع الميلادى ، وبين الدول والحضارات العربية التى شــهدتها هذه المنطقة والتى أقامتها الجماعة أو الجماعات العربية قبل ذلك التاريخ .. لقد كانت الدولة الجديدة ، والحضارة الجديدة ثورة على الطابع الذى انتهت اليــه واستقرت عليه كل تلك الدول والحضــارات .. فالحضارة التى شهدتها أرض الجنوب العربى فى اليمن قد بدأت حضارة عربية ذات طابع عربى ، ولكنها مالبثت أن وقعت فريسة لنفوذ دولتين غريبتين عن العرب ، فتبادل الفرس والأحبــاش مواقع السيطرة والنفوذ على هذه البلاد . وجاء حين من الدهر كانت فيه بلاد الجنوب العــربى منطقة نفوذ للأجنبى ، بل ان المسيحية فيها ، رغم شهدائها الباســلين الذين أحرقوا فى ذلك « الأخدود » الذى حفر لهم فى « نجران » قد تحولت بكنائسها ومؤسساتها الدينية ، على يد الأحباش وبسببهم ، الى اداة للنفوذ الأجنبى ، ورأس جسر لحضارة غير عربية ، تحث خطــاها لا لتحكم سيطرتها على اليمن فحسب ، بل ولتزحف نحو مكة .. نحــو الشمال . وما الصراع بين قبائل وسط شبه الجزيرة وبين الأحباش ، وعداء عرب مكة للمسيحية وكنيسة صنعاء ، الا صورة لموقف عــربى ضد نفوذ أجنبى يزحف من الجنوب . و « غزوة الفيل » بقيادة القائد الحبشى « أبرهة » لمكة حوالى سنة ٥٧٠ م ، ماهى الا صورة مسلحة لهذا الصراع . ورغم أن الأحباش القدامى لغتهم سامية ، وأن العــرب

هم أيضا ساميون ، الا أن الزحف الحبشى ، وكذلك النفوذ الفارسى ، قد رأى فيه العرب ـ وهم محقون تماما ـ نفوذا أجنبيا مناهضـــا لمشاعرهم القومية التى أخذت اذ ذاك فى الاستيقاظ .

***

ولم يكن الفرس والأحباش هم وحدهم الذين مدوا نفوذهم وأسباب سـيطرتهم الى أرض شبه الجـزيرة العربية ، بل ان الامبراطـورية الرومانية قد نافستهما فى هذا المضمار ، فدولة « النبط » وحضارتها لم تترك وطابعها العربى وسماتها القومية الخاصة ، لتنمو وتزدهر ،بل لقد عاجلتها محنة التدخل الأجنبى من قبل الرومان لتحول بينها وبين الاستمرار فى هذا الطريق . فمنذ عصر ملكها « الحارث » (١٦٩ ق.م) بدأ النفوذ الرومانى يزحف عليها ، وعندما مات الملك « رابيل (٧١ ـ ١٠٥ م) رفض الرومان الاعتراف بخلف له على بلاده « النبط »وتحرك نائب الامبراطور الرومانى فى سورية ، فأجهز على استقلال البـلاد ، وتحولت هذه الدولة العربية الى مجرد جزء من الولاية الرومانية فى غربى آســيا .

***

ونفس المصـير الذى لقيته بلاد « النبط » لقيته مملكة « تدمر » وحضارتها فى الشمال ، ففى سنة ٤١ ق.م. بدأ أول احتكاك رومانى مسلح ضدها ، ولم تأت سنة ١٠٦ م حتى الحقها الامبراطور الرومانى « تراجان » بالولاية التى أقامها فى آسيا .. وفى سنة ٢٦٠ م استخدم الرومان امكانيات « تدمر » وقواتها المسلحة ، بقيادة ملكها « اذينة » فى حربهم ضد الفرس ، وانتصر « أذينة » فى عدة معارك جعلت الروم يخلعون عليـــه سنة ٢٦٢ م لقب « زعيم الشرق » .. ذلك اللقب الذى لم يحل بينه وبين الموت بمؤامرة لعبت فيها روما دورا بارزا ..!!

ولكن « تدمر » تأتيها صحوة مجد جديدة فى عهد ملكتها « زنوبيا » (الزباء) فتعلن فى ســنة ٢٧٠ م اســتقلالها التام عن الامبراطـورية الرومانية ، ويلقب ابن « زنوبيا » بلقب « ملك الملوك » . ولكن الرومان يعودون بعد عامين ليحطموا هذا الاستقلال من جديد ، ثم تعود البـــلاد الى الثورة بقيادة « زنوبيا » من جديد ، ولكن الغلبة فى النهـــاية تكون فى صالح الجيش الرومانى الجرار ، وفى سنة ٢٧٤ م تدخـل « زنوبيا » مدينة روما ، اسيرة ، فى موكب النصر الرومانى العـــائد من الولاية الآسيوية الرومانية . وبذلك اسدل الستار على الصفحات

العربية التى سطرت فى تاريخ الدولة والحضارة العربية بمملكة «تدمر» قبل الميلاد وبعد الميلاد .

***

واذا كانت الحضارة العربية التى شهدتها دول العرب فى الجنوب، ثم فى بلاد « النبط » ، ثم فى « تدمر » قد بدأت عربية ، أو ذات طابع عربى محلى ، ثم عادت فتحولت الى صورة آسيوية للحضارة الرومانية أو الحبشية أو الفارسية ، وفقدت طابعها القومى بمرور الأيام ، فان كلا من دولتى « المناذرة » و « الغساسنة » قد بدأتا منذ تكوينهما تقريب مطبوعتين بالطابع الفارسى والرومانى ، ان لم يكونا مسخا مشوها لحضارة الدولتين الكبيرتين اللتين تقاسمتا النفوذ فى ذلك الحين .

فبيزنطة المسيحية قد جعلت الغساسنة يتنصرون فى القرن الخامس الميلادى ، بعد ان اتخذت من المسيحية دينا رسميا لها تفرضه على الناس .. و « الحارث بن جبلة » (٥٢٩ — ٥٦٩ م) يقود قومه الغساسنة فى الحرب ضد « المنذر الثالث » اللخمى ملك « الحيرة » لحساب الرومان . ومكافأة له على انتصاراته يعينه الامبراطور الرومانى « جوستينيان » سيدا على كل القبائل العربية بسورية . وتستمر بعد ذلك الأحقاد والاحن والمعارك بين العرب الغساسنة والعرب المناذرة لحساب كل من الفرس والرومان .. فا « المنذر اللخمى » أحد ملوك الحيرة يأسر فى سنة ٥٤٤ م أحد أبناء الحارث ملك بنى غسان ، فيقدمه قربانا للألهة « العزى » ! ثم يعود المنذر الغسانى بن الحارث لاحراق عاصمة اللخميين المناذرة ، فيكافئه الرومان بأن يضعوا فوق رأسه التاج .. و « يوم حليمة » الذى أصبح وأصبحت أحداثه جزءا من «الملاحم» و « أيام العرب » ، هو يوم من ايام الحرب بين عرب الغساسنة وعرب المناذرة اللخميين .. و « حليمة » هذه هى بنت الملك « الحارث » الغسانى ، التى استعرضت جيوش ابيها ، وطيبتها بيديها الجميلتين بالطيب وهى زاحفة الى ميدان القتال !!

ولكن .. رغم أن دولة الغساسنة قد قامت وعاشت فى كنف الرومان وحمايتهم ، فان تطورات الأحداث لم تجعل اباطرة الرومان يقنعون منها بمثل هذا الخضوع ، فوجهوا اليها من الضربات ما مزقها شر ممزق ، وحولها الى مجموعة من الامارات يحكمها أمراء لا صلة بينهم ، بل ان بعض هؤلاء الأمراء قد جعلوا ولاءهم لأكاسرة الفرس ، بينما بقى الباقون منهم على ولائهم لأباطرة الرومان .

٤ـ

تلك كانت الصورة التى انتهت اليها الحياة العربية ، والجماعة العربية فى أطراف شبه الجزيرة العربية حتى القرن السادس الميلادى ، صورة عرب الجنوب فى ((اليمن)) ، والغرب فى ((النبط)) ، والشمال فى ((تدمر)) ، وبلاد الغساسنة ، والشرق فى بلاد « المناذرة » اللخميين • هجرات عربية تحدث • ودول عربية تتكون .. وحضارات تنشأ .. ولكن النفوذ الأجنبى كان يصارع هذه الدول والحضارات ، ثم ما يلبث الصراع أن ينتهى بقتل هذه الدول واحتواء هذه الحضارات فى نهاية المطاف •

ولكن هذا كان جانبا واحدا من الصورة فقط ، ووجها من وجهى العملة فحسب ، ففى وسط شبه الجزيرة كانت توجد حالة من الغليان .. حالة من البلورة ، وفترة من المخاض . فالنفوذ الأجنبى الزاحف على شبه الجزيرة ، والحروب التى شنتها ضد العرب جيوش الأحباش والفرس والرومان ، كل ذلك قد صقل فى العرب سلاح المقاومة ،وكان احساس العرب بهذا الخطر الزاحف بمثابة البوتقة التى بدأت تنصهر فيها المشاعر القومية لهذه الجماعة البشرية من الناس . ولقد كانت مقاومة عرب وسط شبه الجزيرة العربية للغزو الحبشى بقيادة «أبرهة» عام الفيل ، تعبيرا عن بروز الشعور القومى عند الجماعة العربية التى كانت تسكن هذه البلاد فى ذلك التاريخ . وليس صحيحا ذلك التصوير الذى يقدم هؤلاء الناس فى صورة المتخاذلين امام هذا الغزو الحبشى . والذى يستغل فى ذلك ظاهر الفاظ القصة التى تحكى محادثة الزعيم القرشى « عبد المطلب » مع ابرهة عندما اغتصب الاحباش ابل عبدالمطلب فذهب يطلبها ويتحدث فى شأنها دون شأن الغزو وقضاياه ، ثم أجاب على تعجب ابرهة من ذلك بقوله : « أما الابل فهى لى .. وأما البيت «الكعبة» فله رب يحميه » .. ليس صحيحا ذلك التصوير ، فلقد قاد

العرب اليمنيين فى حربهم دفاعا عن بيت الله الحرام وحرمه الآمن زعيمهم « ذو نفر » ، حتى اذا هزمتهم جيوش أبرهة تصدى لها « نفيل ابن حبيب الخثعمى » ومن خلفه قبائل خثعم « شهران » و «ناهس » .. كما أن قريشا وكنانة وهذيل لم تتقاعس عن قتال أبرهة عندما دنا من مكة : وانما هم رأوا أن لاقبل لهم بهذا القتال وان كانوا قد هموا بخوضه عندما دنت من ديارهم جحافل جيش الأعداء (١) .

لقد كان عرب مكة ، وقوافلهم التجارية ، يجوبون شبه الجزيرة، شتاء الى الجنوب نحو اليمن ، حيث نفوذ الأجنبى وديانته المسيحية المعبرة عن البناء الفكرى لذلك التدخل الاستعمارى الزاحف على الجماعة العربية من الجنوب . وفى فصل الصيف تجوب القوافل التجارية العربية أنحاء الشمال نحو الشام ، حيث النفوذ الرومانى يطوى تحت جناحيه عرب الشمال .

ويذهب الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبل البعثة ، فى قافلته التجارية الى « بصرى » العاصمة التجارية والدينية لبنى غسان ، ويشهد هناك حضارة يقودها القساوسة والرهبان الذين يحملون فكرا وحضارة غير عربية وغير قومية ، كما يشهد الحكام العرب الغساسنة وقد كرسوا حياتهم لمحاربة الحكام العرب المناذرة اللخميين .. عرب يحاربون عربا لحساب الفرس والرومان .

ولقد كان المركز الممتاز الذى تحتله مكة جغرافيا ، واتخاذها مركز ممتازا فى الحركة التجارية ، وموقعها على طريق القوافل الذاهبة نحو الجنوب ونحو الشمال ، وأيضا عمليات التأمين على التجارة والقوافل التى كانت تتم فى هذه المدينة ، وعلى الجملة ، ذلك المركز الاقتصادى الممتاز لمكة ، قد جعل لها بالتالى مركزا أدبيا ودينيا وسياسيا ممتازا ، وهاما كذلك . ففى كل عام كانت الحروب بين القبائل العربية تضع أوزارها لعدة شهور اصطلح على تسميتها بالأشهر الحرم ، وكانت تقام فيها حول مكة أسواق تجارية وأدبية وفنية ، لعلها أعظم الأشياء التى لعبت دورا هاما فى حركة التقارب العربى ونقلت الجماعة العربية خطوات الى الأمام . ففى هذه الأسواق كانت تعرض منتجات الجنوب ومنتجات الشمال ، وكانت تؤمها أعداد غفيرة من مختلف القبائل صاحبة البيئات المختلفة والعادات والتقاليد التى بينها كثير من الفروق والاختلافات . وتعبيرا عن هذه الاختلافات الحقيقية التى كانت

---

(١) راجع د. عبد الحليم محمود « التفكير الفلسفى فى الاسلام » جـ ١ ص ٣٥ - ٣٧ ط سنة ١٩٥٥ م « نقلا عن ابن هشام » .

بين هذه القبائل الوافدة على هذه المعارض والأسواق ، كانت الآلهـــة المتعددة والمختلفة المنصوبة فوق الكعبة وحولها ، لكل قبيلة اله ، ولكل جماعة ربها المقدس الذى تحج اليه ، والذى هو نسخة مكررة من الهها الذى خلفته فى مضارب خيامها حيث تعيش .

وتعبيرا عن عوامل التقارب والتوحد والالتقاء بين هذه القبائل جميعا كانت تزداد دائرة المتحدثين باللغة الادبية العامة ذات الطابع القرشى ، ويزداد بروز هذه اللغة كلغة مشتركة لكل القبائل العربية يتحدث بهـــا الوافدون فى الموسم ، وينشدون بها القصائد التى يتقدم بها الشـــعراء الى لجان التحكيم التى تنصب لها الخيام والسرادقات ، وتعقـــد لها المجالس ، وتعقد عليها الآمال ، ومع بروز اللغة المشتركة واحتـــلالها المركز الأول ، كانت تنمو العادات العربية الواحدة ، والتقاليد العربية المشتركة ، وتذبل شيئا فشيئا اللهجات القبلية المتعددة ، والعـــادات والتقاليد التى نشأت فى حياة العزلة القبلية بعيدا عن التـــــلاحم والتلاصـــق والانصهار (1) .

ففى سوق « عكاظ » و « مجنة » و « ذى المجاز » وغيرها من أسواق العرب ومعارضها ومهرجاناتها التجارية والثقافية . وفى مواسم حجهم ، بل وفى حروبهم ومعاركهم كانت تنمو السمات المشتركة والملامح الواحدة للجماعة العربية الجديدة . وكما كان المركز الممتاز اقتصاديا وأدبيا وسياسيا «لباريس» على باقى مقاطعات فرنسا ، هو الذى جعل الغلبة للغـــة «باريس» وعاداتها وتقاليدها على هذه المقاطعات ، وكما كان ذلك أيضا شأن النتائج التى انتهى اليها الصراع الذى نشب بين مقومات «لندن» الحضارية ومقومات غيرها من مقاطعات المجتمع البريطانى ، كذلك كانت السيادة للغة قريش التى اغتنت من لهجات القبائل الاخرى .. ولعادات قريش التى أثرت من عادات القبائل التى أفسحت الطريق لكل ما هـــو مشترك ومتحد بين القبائل من العادات والتقاليد .

ولقد نتج عن هذا المركز الاقتصادى الممتاز لمكة ، والذى أحـــدث لها مركزا أدبيا ممتازا كذلك ، أن أصبح لها ، وللقبيـــلة الأم فيهـــا « قريش » مركز سياسى بارز وممتاز ، وبدأت قريش تمارس نوعا من

---

(1) لقد شاعت فى اغلب الدراسات تسمية اللغة العربية الادبية التى نزل بهـا القرآن « بلغة قريش » والسبب فى ذلك أن طابع لهجة قريش كان واضحا جدا فى هذه اللغة الأدبية وان كان ذلك لا ينفى أنها شىء مختلف عن « لهجة قريش » ، وأنها أخذت من غير لهجة قريش الشىء الكثير « راجع د. ابراهيم انيس « من أسرار اللغة » الطبعة الثـــانية سنة ١٩٥٨ م .

السلطة السياسية على مختلف القبائل العربية ، لاترقى لدرجة الدولة والحكومة ، وان تكن تقترب من هذا الشكل ، على النحو الذى كان مألوفا فى ذلك العصر وفى ذلك المكان . ولقد كان وسط شبه الجزيرة العربية يموج بأفكار جديدة عن ضرورة التوحيد العربى ، للوقوف فى وجه الخطر الزاحف من الجنوب والشرق والشمال الغربى .. وكانت خيوط جديدة لحياة جديدة ، وأنسجة جديدة لمجتمع جديد تولد وتنمو فى هذه البقاع ، ووشائج مستحدثة تشد القبائل بعضها الى بعض ، وتربط بين القبائل والعشائر والبطون والأفخاذ .

وتقدمت لقيادة عملية التوحيد هذه قوتان مختلفتان تمام الاختلاف:

١ ـ الأرستقراطية القرشية ، مالكة العبيد وصاحبة القوافل التجارية وبيوت التأمين على القوافل والتجارات .. كانت صاحبة مصلحة حقيقية فى التوحيد العربى خلف مكة كمدينة لها ، وخلف قريش كقبيلة ذات شرف وسيادة ، ولكن بشرط أن تتم عملية التوحيد هذه دون ما مساس بأساس النظام العبودى وجوهره،بالربا الذى كانوا يتقاضونه أضعافامضاعفة ، والذىكان يمثل قاعدة هامة من قواعد الاستغلال، بالتمييز العنصرى بين العرب الأشراف وبين العبيد ، والتمييز الطبقى بين الأغنياء والفقراء • باحتقار المرأة ، فى بعض البيئات العربية ، وقتل البنات أحياء • بالتفسخ المتفشى فى مختلف مناحى الحياة • كانت هذه الارستقراطية اذن راغبة فى التوحيد العربى ، ومن أجل ذلك حاربت الأحباش ، أو همت بحربهم ، ونظرت بشك وارتياب الى المسيحية واليهودية ، كفكر أجنبى يعبر عن نفوذ الأحباش والرومان فى هذه البلاد • ولكنها كانت تقف الى جانب أساس مادى وفكرى رجعى وعتيق وتريد لهذا الأساس الرجعى أن يكون القاعدة التى تتم عليها عملية التوحيد(١) • ولكن روح العصر ما كانت لترضى بما تريده هذه الارستقراطية أن يكون محتوى ومضمونا لهذا المجتمع الجديد ، وما كان ذلك ـ لو تم ـ ليضمن لهذا المجتمع فرصا جدية للتطور والانطلاق .

٢ ـ وأمام هذا النموذج الذى كانت تريده الارستقراطية شكلا لتوحيد الجماعة العربية ، كان هناك نموذج جديد تقدمه وتسهر على صياغته وبلورته قوى عربية جديدة ، قوى لا تريد الحفاظ على

---

(١) ويشهد لقبولهذه الارستقراطية « التوحيد » دون الاعتراف بالقيادة الثورية والمضمون الثورى لهذا « التوحيد » قبول أبى سفيان عندما طلب منه شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله ، قبوله للاولى ، وقوله للرسول عليه الصلاة والسلام عن الثانية : « أما هذه ففى النفس منها شىء !! »

المجتمع العبودى ، بل ثائرة على هذا المجتمع ، ولا مصلحة لها فى الحفاظ على الأسس المادية للاستغلال البشع التى كانت تمارسه الارستقراطية القرشية ، بل تعمل على تقويض هذا الأساس ، ولا تؤمن بالقيم الفكرية المتفسخة لهذا المجتمع العبودى ، بل تناضل للانتقال بالجماعة العربية ، من خلال معركة انصهارها وتوحيدها ، الى مرحلة تطورية جديدة وتجربة حضارية أكثر اتساقا مع مصالح القوى الاجتماعية التى انبثقت قبل ظهور الاسلام ، تلك القوى التى وجدت فى الاسلام ورسالته وتعاليمه الطريق المأمون لتحقيق ما تصبو اليه من آمال . وهذا النموذج الجديد للقيادة ذات الطابع الجديد ، قد تمثل فى الصورة التى رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى صورها القرآن الكريم فى سوره وآياته .. نموذج المجتمع الذى قاد عملية بنائه وناضل من أجل تدعيمه أولئك الذين عمرت قلوبهم وامتلأت ضمائرهم بحرارة الدعوة الاسلامية ، فأقاموا لنا دولته الأولى فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى .

الباب الثانى

الإسْلاَم ثورة عَربيَة

وأمام هذه المخاطر الحقيقيــة التى كانت محدقة بشبه الجزيرة العربية ، ومهددة لحياة العرب القاطنين بها ومصيرهم ، وفى هذه المرحلة التاريخية من حيــاة هذا الشعب ، شهد قلب شبه الجزيرة العربيــة ذلك البناء الروحى والسياسى والاجتماعى والاقتصـادى والانسانى ، والذى لم يرد فقط تلك الأخطـار عن شبه الجزيرة ، وانما تتبعها ـ فيما بعد ـ الى ما وراء الحدود .. هذا البناء العمـلاق الذى مثله فى حيـاة العرب ، بل والعـالم ، دين الاسـلام ، والذى قاد عمليــة تشييد نظامه ومجتمه ، والنضـال فى سبيله الرعيل الأول من المؤمنين السابقين الى الاسلام خلف الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

***

ورغم المحــاولات التى بذلت يوما ما ، والدعوات التى ظهرت فى بعض الأحايين ، والتى حاول أصحابها أن يصوروا الاسـلام ورسالته ، والقرآن الكريم وتعاليمه ، بصورة الدين المنقطع الصلة بشئون الحـكم والسياسة (١) .

ورغم الأفكار التى يحاول أصحابها التقليل من أهمية الجانب الروحى فى الاسلام ، ودوره وفعالياته ، لحساب الجانب السياسى والاجتماعى والاقتصادى فيه .

رغم هذه المحاولات وتلك الأفكار ، فاننا نجد الأغلبية الساحقة من المفكرين والدارسين لهذا الصرح العملاق ـ بما فيهم أغلبية المستشرقين ـ يجمعون على أن الاسلام انما يمثل بناء متكاملا ، وأن شـئون السـياسة

(١) د. على عبد الرازق « الاسلام وأصول الحكم » .

والاجتماع والحكم فيه ليست بمعزل عن الجوانب الروحية والأخلاقية التي قررها القرآن وبشر بها الرسول عليه الصلاة والسلام(١) ·

ومن ثم فان تنـــاول أى جانب من جوانب الاسلام لا يمكن أن يكون بمعزل تام ، ولا بمنهج يقطع الصـــلة تماما بين هذا الجـــانب وغيره من الجوانب الأخرى التى تمثل لبنات متماسكة فى هذا الصرح « الروحى المـــادى » و « الدنيوى – الأخـــروى » ، والذى كان السابقون اليـــه يتناولون حتى شـــئون دنيـــاهم ومعاشـــهم دون أن يغفلوا عن الدوافع والغايات التى تربط شئون الدنيـــا هـــذه « بالمثـــل » والقيم الروحيـــة والأخلاقية التى يؤمنون بها ويقدسونها .

* * *

بل اننا لا نســـتطيع أن نغفل فى حديثنا عن الاســـلام ، فضـــلا عن الدولة العربية الاسلامية ونظمها ، ذلك المحتوى الثورى والنضالى الذى كان للقيم والمبادىء والعبادات التى يظنهـــا بعض الباحثـــين من صميم الجانب الروحى للشريعـــة الاسلامية ، ويحسبون أن لا صلة لها بحياة الشعب النضالية والواقعية الخاصة بأمور الحياة الدنيا ومصير الانسان فى هذه الأرض التى عليها يعيش .

واذا كانت الدراسة الواعية لكثير من فرائض الاسلام وأركانه ، مثل الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ·· تتكشف لنا ، أو تكشف لعقولنا الحديثة المتطورة عن جوانب التربية النفســـية ، والتهـــذيب المعنوى ، وتعليم الجماعة الانسانية ضروبا من النظام والديمقراطية فى الســـلوك والتوحد فى المشاعر ، والرياضات النفســـية والروحيـــة والبدنيـــة ، والتكافل الاجتماعى الذى تستهدفه وتناضل فى سبيله أحدث النظريات والمذاهب التى تنحاز الى صف سعادة الانسان .

اذا كانت هذه بعض « الجوانب المادية » لأخص « شـــئون الاســـلام الروحية » ، فاننا نجد تجسيدا رائعا لهذا الترابط بين جوانب الاسلام الروحيـــة وجوانبه المـــادية فى ذلك النموذج الذى قدمه التصـــوف والمتصوفون فى الاسلام .

ورغم أن هذا الموضوع أكبر بكثير من أن يشـــار اليه – حتى مجرد الاشارة – فى ســـطور أو صفحات الا اننـــا نود أن نقول ان التصـــوف الاسلامى كان ثورة فى الفكر والسلوك ، وأن أئمة هذا التصـــوف كانوا

---

(١) د. ضياء الدين الريس « النظريات السياسية الاسلامية » الطبعة الثانيـــة ســـنة ١٩٦٠ م ·

ـ فى أغلبهم ـ ثوارا ضد الظلم السياسى والاجتماعى والجمود الفكرى الذى عانى منه الانسان ، سواء منهم الذين ارتبطت حركاتهم الثورية بفكر « أهل السنة » ضد « التشيع » ، أو الذين ارتبطت أفكارهم ونشاطاتهم بالشيعة وفرقها الفكرية والسياسية المختلفة عبر التاريخ العربى الاسلامى الطويل .

« والحلاج[1] ، «وشهاب الدين السهروردى» «المقتول»[2] نموذجان رائعان يجدان هذا المعنى الذى نرمى اليه فى هذا المجال .

بل ان وصف السهروردى للامام والخليفة بأنه « الحكيم المتأله » ، اى الجامع والمجسد للحكمة الفلسفية و « الوصول » الروحى الى عالم الربوبية والأنوار العليا ، لهو تعبير جيد عن تجسيد التصوف الاسلامى لوحدة الجوانب الشورية والمادية بالجوانب الروحية « والذوقية » و « الكشفية » فى هذا اللون من ألوان الفكر والسلوك ٠ وهو دليل جيد البرهنة ، ولا شك ، على تلك الوحدة بين الجوانب المادية والروحية التى تتمثل فى الاسلام .

* * *

غير أن الموضوع الذى نحن بصدد تناوله هنا ، فى هذه الدراسة ، وهو الطريق الذى سارت فيه الجماعة العربية نحو اكتساب خصائصها القومية وامتلاك ملامحها الذاتية واستكمال سماتها العامة ، انما يفرض علينا نوعا من التجزئة التى تقتضيها الدراسة ، بصدد تناول البناء الذى مثله وجاء به الاسلام .

---

(١) ولد سنة ٨٥٧ م واستشهد سنة ٩٢٢ م ، ولقد صلب وقتل ، ثم صب الزيت على جسده ، واحرق، والقى برماد جثته فى نهر دجلة من فوق أعلى مئذنة لاحد مساجد بغداد !!٠٠ ولقد استمرت قضيته ومحاكمته تسع سنوات أعقبت هروبة من المطاردة ثلاث سنوات ، وذلك بسبب اشتراكه فى محاولةانقلابية اصلاحية رفع بها أهل السنة الى مركز الخلافة الخليفة « ابن المعتز » لمدة يوم واحد ، ثم فشلت ، وعاد الحكم للخليفة « المقتدر » ووزيره الشيعى « ابن الفرات » ٠ ومركز الحلاج وأثره فى التصوف الاسلامى أكبر وأشهر من أن يساقعنهالحديث،كما انصلتهبالحركات السريةذات الافكارالاجتماعية قد اخذت تتضح فى الدراسات الحديثة التىكتبت وتكتب عنه الآن .

(٢) هو شهاب الدين السهروردى « المقتول » أو « الشهيد » المولود سنة ١١٥٠ م والمتوفى سنة ١١٩٠ ، وهو الذى رأى فيه فقهاء أهل السنة بحلب داعية للامامة الشيعية ، ومفسدا لعقيدة الحاكم السنى لامارتهم الملك الظاهر بن صلاح الدين الايوبى ، فاستغاثوا بصلاح الدين « ادرك ولدك والا تتلف عقيدته » !!٠٠ فحكم عليه صلاح الدين بالاعدام وعندما خير السهروردى بين وسائل الموت المختلفة ، اختار الموت صبرا فى قلعةحلب دون طعام أو ماء ، وكأنما اختار للموت طريقا هو القمة من طرق الرياضات الروحية للمتصوفين

فنحن لن نتحدث عن الجوانب الروحيـة ، والقطـاعات المتعلقة بالعبادات ، بل ولا عن ما عرف في الاسلام وفقهه بالمعـاملات .. وانما سنتناول فقط ، في فصول هذا الباب ، تلك الجوانب من الرسـالة الاسلامية التي يمكن أن نسميها « الملامح والسمات القومية » للبناء العملاق الذي شهدته جزيرة العرب منذ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ذلك اننا نعتقد انه الى جانب الجوانب والعناصر العالمية ، والعمومية والانسانية ، في الدين الجـديد ، قد كانت للتجربة التي أقيمت في شبه الجزيرة ، والدولة التي قامت هناك ، والنظـام السـياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي شهدته هذه الأرض ، وبناه هؤلاء الرواد الأوائل ، قد كان لهذا البناء طابع قومي وملامح قوميـة ، هي التي نمت حينا ، وذبلت أو انتـكست حينا آخر ، والتي لابد لنا ونحن نتحدث الآن عن العروبة والعرب ، والقومية والأمة ، من أن « نحقق النسب » بين سماتنا القومية وبين بذورها التي زرعت في شبه الجزيرة العربية منـذ ذلك التاريخ .

فنحن لسنا أمة بلا تاريخ ، ولسنا مجتمعا بلا حضارة ، ولسنا نبتا عربيا حديثا لأفكار عربية حديثة ، وانما انتسابنا الى هذه الثورة العربية الاسلامية التي أقامت بناء حضاريا عربيا ، بقدر ما هو اسلامي ، منـذ اربعة عشر قرنا من الزمان ، يعطي لفكرنا الاصالة ويمنح أقدامنا الثبات ، ويسلك التجربة التي تواجه أمتنا اليوم على صعيدها القومي ، مشـكلة البلورة والتوحيد ، يسلكها في مكانها الصحيح من سلسلة التجارب التي خاضتها الجماعة العربية ، في هذا الصدد ، عبر مراحل التاريخ .

ومن هنا كانت المواجهة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والقومية ، التي قام بهـا المجتمع العربي الاسـلامي الذي أثمره الدين الاسلامي وبناه ورعاه في النصف الأول من القرن السابع الميـلادي ، كانت هذه المواجهة للتحديات التي أشرنا اليها في الباب السابق ، هي اهم القضايا التي سنحفل بالاشارة اليها في فصول هذا البـاب ، لأن معالجتها ، ولو في ايجاز ، ستكون كفيلة بالقـاء الأضـواء على هـذه الملامح القومية لهذا البناء الحضاري ، كما أنها ستكون البداية ، بداية الخيوط القومية العربية التي أخذت في النمو والعظم شيئا فشيئا ، وبالتدريج ، وعبر العصور الطويلة ، حتى شـهدناها ونشـهدها اليوم تلف أجزاء جسم الأمة العربيـة بهـذا الرداء القومي التقدمي الذي هو موضوع حديثنا في هذا الكتاب .

٢- فأمام التحديات التى كانت تمثلها الأخطار الخارجية الآتية من القوى الأجنبية الزاحفة على شبه الجزيرة من الجنوب والشرق والشمال، واجهت الدولة العربية الاسلامية الوليدة هذه التحديات والأخطار ببناء مجتمع موحد الفكر والارادة ((الى حد كبير بالنسبة لعصره)) يتخذ من العروبة بمعناها اللاعنصرى واللاعرقى ، سمة تطبع ملامحه وقسماته الجديدة ، ويتخذ من التـوحيد الدينى رمزا للتوحيد السياسى الذى لابد منه للعـرب كى يواجهوا هذه الأخطار .

فبمقدار ماكان تعدد الآلهة والأصنام القبلية رمزا للتفرق وتمـزق الهيئة الاجتماعية للجماعة العربية ، كان التوحيد الدينى الذى دعا اليه الاسلام ، وبشر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، رمزا وتجسـيدا للوحدة السياسية والاجتماعية للمجتمع الجديد .

واذا جاز لنا أن نبصر السلام والمحبة ، كجوهر للمسيحية، وأن نعلل مجىء جوهرها على هذا النحو كرد فعل لما أثارته الحرب ضد العبيد ، والردة الرجعية بعد انتكاس ثورة « سبارتاكوس » من مجازر ومآثم وآلام .. فاننا نستطيع ان نبصر الجوهر الذى كان يسرى خلال المبـادىء والأهداف والقيم والتعاليم التى جاء بها الاسلام ، وسنجده متمثلا فى مبدأ التوحيد .

بل لعل الاسلام قد بلغ بدعوة التوحيد هذه حدا من النقاء والوضـوح لم تصل اليه رسالة سماوية أخرى من الرسالات التى تسلك عادة فى سلك الأديان التوحيدية ، مما أتاح للمجتمع العربى فى انطلاقته الثورية الأولى أن يحقق من مهام التوحيد السياسى ماكان أشبه ، لا بالمعجـزات بل بالمستحيلات . والقرآن الكريم يتحدث عن صعوبة التوحيد القـومى للعرب ، واجتماع شمل القبائل والجمـاعات المتنافرة ، عندما يخاطب

الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيقول : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ».

ونحن نعتقد أن هذا التوحيد الذى حققه الاسلام للجماعة العربية الأولى كان ذا طابع قومى ، ومتسما بملامح عربية واضحة ، وأن هذا المجتمع الذى كان ثمرة من ثمار الدين الجديد ، كان يحس بشخصية متميزة ،كمجتمع عربى ، يواجه تحديات الأعداء الذين زحفوا عليه — قبل البعثة — ليحتووه حضاريا وسياسيا ، والذين ظلوا يتربصون به الدوائر حتى بعد أن دانت له كل شبه الجزيرة ، وانخرطت جموعها فى موكب المجتمع العربى الاسلامى الجديد .

والقرآن الكريم يذكر القوم الذين وحد الدين الجديد بينهم ، وضم صفوفهم ، وألف بين قلوبهم ، بحالهم يوم أن كانوا قبائل وشيعا يتنازعها ويستبد بها سلطان الفرس والروم ونفوذهم ، فيقول : « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (١) .

وهذا الطابع العربى للوحدة التى تمثلت فى المجتمع الجديد الذى بناه الاسلام ، لم يكن طابعا عنصريا ولا عرقيا ، بل لانغالى اذا قلنا انه كان نتاجا لفكر يستهدف ويستشرف أعمق الأفكار القومية ذات المحتوى الانسانى النبيل وأرقاها .

فعندما يقف « قيس بن مطاطية » فى أحد المجالس ليعرض بأعجمية كل من « سلمان الفارسى » ، وصهيب الرومى » ، و« بلال الحبشى» ، يأخذ « معاذ بن جبل » بتلابيبه ، ويقوده الى الرسول عليه الصلاةوالسلام وعندما يعلم الرسول بحديث « قيس » هذا ، يطلب أن ينادى : الصلاة جامعة .. ثم يصعد المنبر ، فيقول : « أيها الناس .. ان الرب واحد والأب واحد . وليست العربية بأحدكم من اب ولا أم ، وانما هىاللسان .. فمن تكلم بالعربية فهو عربى » (٢) .

---

(١) فى ص ٢٦٥ من « تفسير البيضاوى » يقول : « ان الخطاب موجه للمهاجرين، وقيل للعرب كافة ، فانهم كانوا أذلاء فى أيدى الفرس والروم » وجدير بنا أن نلاحظ هنا البلاغة والدلالة الخاصة لتعبير « يتخطفكم » الذى صور به القرآن الكريم حال العرب قبل الاسلام .

(٢) تهذيب بن عساكر » ص ١٨٩ من جـ ٢ . و « السهروردى » لسامى الكيالى ص٨ . « من أسرار اللغة » للدكتور ابراهيم انيس ص٢٠ و « مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية » لمحمد صبيح ص ١٣٩ من جـ ١ .

ولقد بلغت هذه المفاهيم التوحيدية ، فى هذا المجتمع الجديد حدا من النضج والقوة بحيث أصبحت التقاليد والقيم القبلية ،والعصبية الجنسية في مركز الدفاع ، وفى طريق الزوال ، بعد أن كانت تنشب أظفارها ومخالب تمزيقها فى كل شيء هناك(١) .

ولأول مرة فى هذه البقاع شهد الناس ألوية جديدة يسير خلفهاالمجتمع ورايات خفاقة يستظل بها القوم ، ليست ألوية القبلية ولا رايات العشائر والأفخاذ والبطون . بل لقد تحدثوا عن الدين الجديد وصاحبه بأنه يفرق بين المرء وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التى تؤويه .. لأن الهيئة الاجتماعية الجديدة ، والنموذج الحضارى الجديد ، والدولة العربية الاسلامية الأولى كانت تستهدف آفاقا أرحب واغنى بالمحتوياتالانسانية من تلك التى عرفها العرب فى ظل المجتمع القبلى العبودى الذى حكم الاسلام على شمسه بالغروب .

---

(١) ومن قيمة التوحيد الدينى يتحدث بعض مفسرى القرآن ، عن أن هذا « التوحيد المطلق يجب أن يعمر القلب والعقل ، والواقع : ليربط الفرد بالله على بصيرة .. وترتبط الجماعة بالمعيار الثابت الذى ترجع اليه فى كافة الروابط بينها والعلاقات .. ثم ليتفتح الطريق للجميع ويتوحد الهدف ، فلا تتمزق طاقاتهم واتجاهاتم مع تمزق أهواء الآلهة وسدنتها ، وهى لا تستقر على حال » « نقلا من تفسير آيات الوصايا العشر للدكتور مصطفى زيد ، ص ٨ » .

٣- وعندما أخذت تعاليم الدين الجديد تمتلك في يدها أداة ((الدولة)) ، ويصبح للمسلمين مجتمع حضـارى يطبقون فيه ، أو يحاولون تطبيق مايدعو اليـه القران الكريم .

وعندما اخذ نفوذ هذه الدولة يسرى بين مختلف أجزاء شبه الجزيرة العربية ، أخذت المراكز الحضارية والبشرية ، السامية غير العربيـــة ، مثل اليهود ، والعربية المشدودة برباط ثقافى وحضارى وسياسى الى مراكز للتوجيه معادية للعرب ، وتعيش خلف حدود شبه الجزيرة ، مثل « المجتمعات » النصرانية فى شبه الجزيرة ، أخذت هذه المراكز الحضارية والبشرية تبصر فى الدولة الجديدة إخطارا لم تكن تقدر مبلغها عنـــدما هادنت هذا الدين الجديد وعاهدته وسالمت أهله فى سنوات ظهـــوره الأولى ، فانحاز اليهود ــ علانية ــ وسالكين لذلك طريق الخيانة ونقض المعاهدات ، الى مشركى قريش فى الصراع ضد دولة الاسلام .

ووجدت الدولة الجديدة انه لابد لها من تأمين نفسها عن طـــريق التخلص من هذه الجيوب غير المأمونة ، والتى تمارس الغدر والخيـــانة فى قلب القاعدة الجديدة التى يبنى عليها الدين الجديد ..

* وفى سنة ٢ هـ (سنة ٦٢٣ م) وعقب غزوة بدر ، اجلى المسلمون يهود « بنى قينقاع » ــ وكانوا صاغة ــ عن « المدينة » ، فذهبـــوا الى « أذرعات » بالشام .

* وفى سنة ٤ هـ (٦٢٥ م) تم اجلاء يهود « بنى النضير » ... بعضهم الى «خيبر» وبعضهم الى الشام .

* وفى سنة ٥ هـ (سنة ٦٢٦ م) فتح المسلمون خصون يهـود « بنى قريظة »

* وفى سنة ٧ هـ (سنة ٦٢٨ م) فتحت حصون يهود خيبـر » الثمانية ، ستة منها فتحت عنوة ، واثنتان صلحا .

* وفى نفس العام (سنة ٧ هـ ، ٦٢٨ م) فتحت « وادى القـرى» و « تيماء ».

* وبعد غزوة « تبوك » (سنة ٩ هـ ، ٦٣٠ م) صالح المسلمون أهل « أذرح » و « جرباء » و « مقنا » (وهم يهود) على الجزية .

حتى اذا كان عهدالخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، استطاع المجتمع العربى الاسلامى الجديد أن يحقق ذلك التجانس فى الرعيـة ، بل الوحدة فى هويتها ، فتم فى ذلك العهد اجلاء باقى الجماعات اليهودية عن أرض شبه الجزيرة العربية ، وأجلى فيه كذلك نصارى « نجـران » (بعد تعويضهم عن ممتلكاتهم تعويضا عادلا) الى العراق والشام .(١) .

واصبح للقاعدة الرئيسية التى أقام عليها العرب دولتهم الاسلامية نوع واحد من الرعايا هم هؤلاء الذين ارتضوا الدين الجديد عقيدة لهم ، والدولة الجديدة مركزا يخصونه بالولاء والوفاء .

ولم يعد يقبل من سكان هذه البقعة الا الخيار بين الاسلام أو السيف ، بينما كان فى وسع الذين سكنوا باقى أجزاء الدولة العربية ان يدفعوا الجزية « وهى ضريبة دفاع » نظـير تأمين حياتهم وعقائدهم وأموالهم وأعراضهم ، وكل ماله يملكون وبه يعتزون .

ولهذا كانت أرض شبه الجزيرة كلها « عشرية » أى تدفع الضريبة التى يدفعها المسلم عن أرضه ، بينما كانت أرض العراق والشام ومصر « خراجية » يدفع أصحابها عنها « الخراج » و « الجزية » عن الرؤوس التى لم تدخل فى الاسلام.

وعندما تحولت القبلة من القدس الى مكة ، ومن المسجد الأقصى الى المسجد الحرام ، واصبحت الكعبة هى المكان الذى يستقبله المسـلمون عندما يتقربون الى الله ، والبقعة التى تهفوا اليها قلوبهم وتهتز لاستقبالها مشاعرهم وأحاسيسهم ، عبر القرآن الكريم عن شوق المسلمين الى هـذا التحول ، حتى قبل أن يأذن به الله فقال : « قد نرى تقلب وجهك فى

---

(١) د. ضياء الدين الريس « الخـراج والنظم المالية للدولة الاسـلامية » ص ٩٤ ـ ١٠١ .

السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

***

وعندما يروى التاريخ انعمربن الخطاب رضى الله عنه ، عندما جاءته الأخماس « نصيب الدولة العام » من أموال كسرى بعد فتح فارس فوضعه بالمسجد ، وأمر عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم فباتا عليها ، ثم غدا بالناس عليها ، فكشف عنها الغطاء ، فأبصر شيئا لم تر عيناه مثله من الجوهر واللؤلؤ والذهب والفضة .. فبكى .. فقال لهابن عوف : هذا من مواقف الشكر ، فما يبكيك ؟!.. فقال : أجل ، ولكن الله لم يعط قوما هذا ، الا ألقى بينهم العداوة والبغضاء . ثم قال : أنحثوا (نصب) لهم « المسلمين » ، أم نكيل لهم بالصاع ؟؟.. ثم اجمع رأيه على ان يحثو لهم ،فحثا لهم(١)..عندما يروى التاريخ ذلك ، فلابد ان نسلك هذا الحادث وذلك الموقف فى سلسلة من الأحداث والمواقف التى بدأت بما حكاه « ابن الأثير » من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى غزوة الخندق : ان أمتى ستظهر على «الحيرة» وقصور كسرى (٢) وارض الشام والروم (٣) وقصور صنعاء (٤) . وبشر المسلمين بذلك . وأيضا قولهعليه الصلاة والسلام لعمه أبى طالب ، فىسنى دعوته الأولى : « الا أدعوهم الى كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب ، ويملكون رقاب العجم ».

وذلك الذى تحدث به « سهيل بن عمرو » عندما وقف على بابالكعبة عقب وفاة الرسول عليه السلام ، وصاح فى وجه تيار الارتداد عن الطريق العربى الاسلامى : « يا أهل مكة ، لاتكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليتمن الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رأيته قائما مقامى هذا وحده وهو يقول : قولوا معى لا اله الا الله ، تدين لكم العرب ، وتؤدى اليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوزكسرى وقيصر فى سبيل الله » (٥) .

فهذه المقدمات التى تحدث عنها « ابن الأثير » ، والنتائج التىشهدها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انما جسدت ذلك التغيير الذى حدث

---

(١) المرجع السابق . ص١٥٠ « نقلا عن الخراج » لأبى يوسف . ص٤٧ .

(٢) وهو الخطر الذى كان يتعرض له العرب من الشرق .

(٣) وهو الخطر الذى كان يتعرض له العرب من الشمال والشمال الشرقى .

(٤) وهو الخطر الذى كان يتعرض له العرب من الجنوب .

(٢) د. ضياء الدين الريس «الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية » ص ١٠٢.

فى ميزان القوى فى هذه المنطقة من العالم فى النصف الأول من القـرن السابع الميلادى ، والذى جعل من العرب رسلا يحثون الخطا لاقامة صرح جديد لحضارة جديدة ، وبناة أشداء لمجتمع جديد ، أسهم فى التطـور الانسانى بكنوز لم تقدر حق قدرها بالدرجة الواجبة والكافية حـتى الآن .

غير أن الطريق الذى سلكته الدولة الجديدة لتحقيق غاياتها ، لم يكن سهلا ، ولا كان معبدا ، ذلك لأن المعركة لم تكن فقط بين العـرب وبين الأخطار والتحديات الخارجية التى تحيط بهم ، وانما كانت هناك معـركة أقسى وأشد ضراوة على نفس أرض شبه الجزيرة ، بين الكيان الجـديد الوليد وبين القيم والعادات والقوانين التى تحكم المجتمع القبلى العبودى الذى جاء الاسلام ليزيحه من الوجود .

ولقد كانت هذه المعركة أشبه ما تكون « بجهاد النفس » ، اذا ما قيست بجهاد العرب للأعداء الخارجيين ، وجهاد النفس هذا هو الذى وصـفه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو عائد من احدى الغزوات ، عندما قال: رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر .

وبغير هذا الجهاد الأكبر ما كان للعرب أن يبنوا لهم دولة أو حضارة ، ومن ثم ما كان لهم أن تمتد أبصارهم ، فضلا عن سيوفهم ، الى مواطن الأخطار والتحديات التى كانت تحيط بهم من الشرق والشمال والجنوب .

٤ - لم يكن بالعمل السهل ذلك التطوير الثورى الذى كانت تهدف اليـــه الثورة العربية المتمثلة فى تعـاليم الاسلام ، ولا هوبالأمر الهين تحويل الافكار والطاقات الثورية اللتين كانت حبلى بهما أرض الواقع ، الىحقيقة موضوعية معاشة .

ولم تكن هذه الصعوبة ناشئة فقط من صعوبة تجميع القبـــائل المتنافرة ، والعشائر التى لم تتعود الاجتماع تحت سلطان واحدوحكومة واحدة ، وانما كانت الصعوبة نابعة بالدرجة الأولى من ذلك التـــراث الرجعى الضخم الذى يزخر به المجتمع ، وتلك القيم والقوانين والنظــم التى كانت تمثل عقبات حقيقية ، وسدودا منيعة ضد اى اصلاح للبيئة، فضلا عن ثورة تغير وجهها تغيرا أساسيا .

فهذا المجتمع القبلى العبودى الذى كانت قاعدته المادية قائمة عـلى اكتاف الرقيق ، والذى انقسم انقساما بشعا الى قلة من الأحراروأكثرية من الرقيق وشبه الرقيق ، لم تكن للروافد التى تمد نهر الرقيق فيـــه بمزيد من الأرقاء ، حدود ولا سدود .

فلم يكن الافريقيون السود المجلوبون عن طريق التجارةومراكز جلب الرقيق ، وعن طريق المستعمرات العربية التجارية التى اقامها التجـار العرب على ساحل افريقيا الشرقى ، لم يكن هؤلاء هم كل العبيد الذين عرفهم المجتمع العبودى فى شبه الجزيرة ، بل ان الحروب المتعددة .. والغارات شبه الدائمة بين القبائل العربية وبعضها ، وما ينتـــج عن كل واقعة من وقائعها من اسرى ورقيق ، كانت ايضا مصدرا من مصـــادر اثراء هذا المجتمع العبودى بمزيد من الأرقاء . والديون التى كانتتحدث

فى معاملات الناس المالية والتجارية ، هذه الديون كثيرا ماكانت تنتهى باسترقاق المدين ، هو أو زوجته أوهما معا ، أو هما مع أولادهما ، عندما يعجز المدين عن السداد .. وكثيرا ماكان يعجز ، وخاصة فى ظل نظام الربا الفاحش الذى كان شريعة مسلما بها فى ذلك الحين ، ذلك الربا الذى تحدث عنه القرآن الكريم ، ووصف بشاعته ، واخبـــر كيف أنهم كانوا يتقاضونه أضعافا مضاعفة .

فالى جانب جيش الأرقاء المجلوب من خارج شبه الجزيرة ، كـان هناك جيش من الأرقاء الوافدين عن طريق الأسر الذى لا تنتهى الحروب المسببة له سوى الأشهر الأربعة الحرام ، يضاف الى ذلك أيضا تلك الأعداد الغفيرة التى تتحول الى رقيق نتيجة العجز عن سداد الديون . روافد عديدة تصب فى نهر الرقيق فتضمن له النماء والفيضان ، وتشحن شبه الجزيرة بقاعدة مادية يعيش فوقها ويؤلفها اكثرية من العبيد ، يحيا فوق اكتافهم وعلى كواهلهم قلة من الأحرار .

* * *

ولم يكن ذلك فقط هو ما فى هـــذا الجانب من جوانب المجتمع من ظلم وبشاعات ، فالى جانب هذه الأعـــداد الغفيرة من الأرقاء ، كانت هناك الأغلبية الساحقـــة من « الأحرار الفقراء » وهم الذين يعملون فى خدمة السادة وعلية القوم ، وخاصة « ملأ قريش » وارستقراطيـــة المكيين .

وفضلا عن البؤس الاقتصادى والاجتماعى اللذين كان يعيشـــهما هؤلاء ، فان شراك العبودية كانت تلاحقهم عندما يعجزون عن ســـداد الديون التى تفرضها عليهم احتياجات الحيـــاة ، وعند ذلك ينخرطون فى سلك الأرقاء .

* * *

واذا كان حديث الرفاهية ، بل والكفاف ، حديثا غريبا عن معظم الذين كانوا يستظلون بظل هذا المجتمع ، فان الحديث عن التعليم ، فضلا عن العلم ، بالنسبة لهؤلاء الناس حديث أكثر غرابة وبعدا عن الأذهان . ويكفى أن تتذكر انه بعد معركة «بدر» بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه وبين الأرستقراطية المكية وحلفائها ، وعندما وقع عدد من أعداء المسلمين أسرى ، كان فى مقدمة شروط الفداء من الأسر أن يعلم الأسير عشرة من ابناء المسلمين القراءة والكتابة .. فالقراءة والكتابة لم تـكن غريبة عن هذا المجتمع ، كمجتمع ، بل غريبة على فقراء هذا المجتمع وأرقائه

أى على أغلبيته الساحقة ، ولذلك كان متعلمو هذه الجماعة العربية هم من أبناء السادة ، أبناء الارستقراطية التى حاربت الدين الجديد ووقفت له بالمرصاد .

***

والمراة .. نصف المجتمع العربى ، لسنا فى حاجة الى أن نفيض فى الحديث عن الدرك الأسفل من المذلة الاجتماعية والانسانية التى وصلت اليها ، بل تكفى اشارتنا الى موقف « السيد » العربى من أن تولد له بنت ، بنت من صلبه (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب) !!! .. ثم يبادر الى مواراتها التراب وهى على قيد الحياة ، حتى ليتساءل القرآن الكريم مستنكرا ، ومبشعا هذا العمل فيقول : (واذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ؟؟ !!) .

فاذا كان هذا هو الموقف من المراة العربية الحرة فى معظم الأماكن والأحيان ، فماذا تكون نظرة المجتمع السائدة للمراة غير الحرة ، أو الفقيرة ، أو الأجنبية (الأعجمية) ؟ !! .

***

ان قطاع السادة هذا فى شبه الجزيرة ، وأصحاب الواحات الزراعية ، وكبار التجار والماليين ، ورؤساء القوافل التجارية وحماتها ، ومحترفى الحرب والاغارة والسلب والنهب ، وجالبى الرقيق ، كل هذا القطاع من الجماعة العربية ، انما كان يمثل ، وتمثل حياته وقيمه وقوانينه التى شرعها ويسهر على حمايتها ، عقبات حقيقية فى سبيل أى اصلاح اجتماعى ، فضلا عن ثورة عارمة كالتى جاء بها الاسلام .

وفوق أرضية اجتماعية كهذه ، وعلى قاعدة مادية مثل التى وصفنا بعض جوانبها ، كان لا بد وأن توجد تربة صالحة للتفسخ الاجتماعى والتحلل الاخلاقى ، وكل ما هو مثير للاشمئزاز . ومثل هذه القيم الاجتماعية العفنة هى التى كانت مبعثا لردود فعل متعددة ، حاولت ان تبصر القوم بالمخاطر ، وأن تشير الى طريق الاصلاح :

« فشعراء الصعاليك » ، أو « فتيان العرب » ، وهم الذين كانوا يحترفون الاغارة على الأغنياء ، وتوزيع ثمار غاراتهم على الفقراء والمعوزين ، وهم الذين أكسبوا الأدب العربى القديم ذلك الشعر المدافع عن الفقراء .. شعراء الصعاليك هؤلاء كانوا امتدادا لسابقين لهم سلكوا

نفس الطريق قبل ظهور الاسلام ، وحفدة لأجداد دقوا ناقوس الخطر حتى قبل ظهور الاسلام .

وذلك الحلف الخير الذى اجتمع فيه ، وتعاهد عليه ، فضلاء قريش ، وشهده معهم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وهو يومئذ شاب يافع ، والذى سمى « حلف الفضول » ، والذى تعاهد فيه المتحالفون برد المظالم ، وانصاف المضطهد ، واحقاق الحق ، والضرب على يد الطغاة .. هو أيضا رد فعل لما كان يزخر به المجتمع من عيوب .

وتلك الأحاديث التى سجلها التراث العربى على ألسنة الحكماء والرهبان حول حاجة المجتمع الى رسول ، وقرب ظهور الرجل الذى سيهدى بتعاليمه ذلك « القطيع » ، وماتعكس من احساس بضرورة التغيير ، ضرورته للمجتمع الذى تفسخ ، والناس الذين تسود علاقاتهم أسوأ أنواع العلاقات .

لقد كانت تلك الأحاديث والحكم والاشارات ، أيضا ، رد فعل للحالة التى وصل اليها المجتمع فى ذلك الحين .

على أن ردود الفعل هذه لم تنجح ، وما كان لها أن تنجح فى تخليص المجتمع من ادوائه هذه ، وانما كانت الثورة الكبرى التى تمثلت فى الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للأسلام هى القادرة على احداث ما يحتاجه المجتمع العربى من تغيير .

فماذا كان موقف الاسلام كثورة ، من المشاكل التى كان يزخر بها المجتمع العربى ؟؟ وبتعبير آخر ، ما هو المحتوى الثورى الذى شهده المجتمع العربى للثورة العربية الاسلامية التى تمثلث فى تعاليم الأسلام ؟؟

اننا نستطيع ان نلخص الدور الذى لعبته الثورة العربية يومئذ فى أبسط عبارة ، وأن نقدر الطاقة التى حملتها هذه الحركة الثورية بأقل ما يمكن من الألفاظ ، اذا نحن قلنا ان الاسلام قد نقل المجتمع العربى من المرحلة العبودية الى مرحلة اجتماعية جديدة ، متقدمة ، وحرة ، ومحملة بأقل ما يمكن من القيود على حياة الناس وحرياتهم وضمائرهم .

وحتى يستطيع الاسلام أن يمثل بالنسبة لحياة الانسان العربى هذه الطاقة الثورية الكبيرة كان لا بد له من موقف حاسم ازاء عديد من المشاكل والقيود التى تثقل المجتمع ، وتشل حركته ، وتشد وثاقه الى التخلف والانحطاط . وهذا ما كان :

فالروافد المتعددة التى كانت تمد نهر الرقيق بمزيد من الأرقاء ٠٠ جاء الإسلام فسن من التشريعات ، وسدد من الضربات ، ما جعل معظمها فى خبر كان . فلقد فتح للناس آفاق حياة جديدة ، ووصل حياتهم وقلوبهم وعقولهم بوسائل جديدة للعيش والحياة تجعلهم يديرون ظهورهم ، الى حد كبير ، لتلك التجارة الرائجة التى كانوا يكسبون من ورائها المكاسب الطائلة ، وهى تجارة الرقيق ٠ ووحد الجماعة العربية على أسس جديدة ، وجعل من العروبة نسبا جديدا يفوق فى قدسيته نسب الأرحام ، وبذلك أنهى تلك الحروب التى كانت مستعرة بين القبائل العربية بشكل دائم ، وبذلك أنهى الى الأبد ، ذلك الرافد الذى طالما أمد نهر الرقيق العربى بالكثير من الأرقاء ٠

وحرم الاسلام الربا ، واسقط عن المدينين ما عليهم من ديون ، أى أنه قد جعل لقانونه هذا أثرا رجعيا ينسحب على ما قبل البعثة ، وبذلك أقام حائطا وسدا منيعا أمام رافد ثالث من الروافد التى كانت تضمن للمجتمع العربى النماء فى قاعدة انتاجه القائمة على الرقيق ٠

وليس ذلك فحسب ، بل لقد تعدى موقف الاسلام من أهم قضايا عصره ، قضية القضاء على أسباب وجود المجتمع العبودى ، تعدى موقف الاسلام من هذه القضية ، نطاق تضييق الروافد والمصادر التى كانت تدفع الى المجتمع بالمزيد من الأرقاء ، والغائها ، فشرع الاسلام يوسع مصب النهر الكبير ، نهر الرقيق ، ليعمل على تحريرهم ، وليعجل بهذا التحرير ، ومن ثم يعجل بتصفية هذا النظام ٠

فهو اذ يعد أنصاره وجماهيره بالجنة ، يجعل من تحرير الأرقاء المملوكين لهم ، أو فى شرائهم ثم تحريرهم أحد السبل المضمونة للفوز بالجنة وما فيها من نعيم ٠٠ فمن يعتق رقيقا يعتق الله بكل عضو من أعضاء هذا الرقيق عضوا من أعضاء محرره ومعتقه من النار ٠٠ ومن يقسم قسما فيحنث فيه لأى سبب من الأسباب فأحد وسائل بره بقسمه وعلاجه لهذا الحنث ، تحريره رقيقا من الأرقاء ٠٠ ومن يفطر فى صيامه دون عذر قهرى ، فسبيله الى الموقف السوى تحرير رقيق من الأرقاء ٠

وليست هذه وأمثالها هى كل ما فتح الاسلام من الأبواب ، يوسع بها مصب نهر الرقيق ، ليصفى هذه الجموع الغفيرة ، ويحررها ، بل لقد رغب الناس أيما ترغيب ، بوسيلة أو بأخرى ، فى تحرير أرقائهم ، أو فى شراء العبيد وتحريرهم ، أو فى معاونتهم على شراء حريتهم والتخلص من حياة الرقيق ٠

وهذا الأسلوب الثورى ، رغم تدرجه ، انما يمثل علامة بارزة على

طريق نضال الانسانية المتقدمة ضد المجتمع العبودى ، قد وضعها ورعاها نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، وثورة العرب الأولى ، منـذ أربعـة عشر قرنا من الزمان ٠

واذا كان الاسلام قد سلك سبيل التدرج فى تحرير الرقيق ، فانه لم يكن باستطاعته أن يفعل غير ذلك ، فلم يكن بامكان أى حركـة مهما كانت طاقتها الثورية ، وقدراتها الخلاقة ، أن تلغى ، بجرة قلـم وبضربة واحده ، القاعدة المادية لمجتمع بأسره ، وأن تفك القوى المنتجة من الأطار الذى تعيش فيه ، وتنتج على أساس من قوانينه ، فجأة ، ودون تمهيد وتدريج ٠

وكأنما قد أبصرت الدولة العربية الاسلامية أن تحرير الرقيق فى المجتمع ، بهذا الأسلوب ، سيستغرق بعض الوقت ، فوضعت بعض الأسس الثورية والانسانية فى معاملة الأرقاء ، الى أن تكتمل عمليـة التحرير ، ٠٠ فنحن نقرأ العديد من الأحاديث النبوية ، مثل : « من أعتق أمة ثم تزوجها ، كان له أجران ٠٠ » ثم يتقدم خطوة الى الأمام فيدعـو الناس الى اسقاط لفظى « عبد » و « أمه » من قاموس حديثهم ومعاملاتهم ، كتتويج لالغاء ما تحمل مثل هذه الألفاظ من قيم مهينة وظالمة طالما عاش فيها الأرقاء : « لا يقولن أحدكم هذا عبدى ، وهذه أمتى ، وليقل هـذا فتاى ، وهذه فتاتى ٠٠ وأطعموهم مما تأكلون ، والبسوهـم ممـا تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأمر مالا يطيقون ٠٠ » الى غير ذلـك من التشريعات الثورية والانسانية التى جعل منها الاسلام قيما جـديدة تصفى فى ظلها بقايا المجتمع العبودى في وقت قصير ٠

***

وازاء هذا الموقف البشع الذى كانت تحدثه التفرقة بين القبائل ، والعصبية القبلية ، وما تصنع من تمزق فى أوصال المجتمع ، ازاء هـذه الثغرة التى ما كان وجودها ليسمح لهذه القبائل المتنافرة بأن تؤلـف جماعة عربية واحدة ، ازاء هذا الداء الذى كان يحول بين هذه القبـائل وبين الانصهار ، وقف الاسلام موقفا ثوريا متقدما ٠٠ فطالب الناس بخلع الولاء القبلى ، واستبداله بالولاء للعروبة ، وحث على اسـقاط القيم الضيقة الأفق ، وافساح الطريق لقيم جديدة ، ترى فى العروبة والملامح القومية للجماعة العربية ، البديل الأصلح والأقوم للولاءات الموزعة بين القبائل والعشائر والبطون ٠

بل لقـد وصل المفهوم المتقدم للاسـلام بصدد هذه القضية الى اسـقاط الأسس القائمة على الجنس والعرق والدم ، وتقـديم مفهوم

أكثر تقدما مما يفكر به بعض المفكرين القوميين المعاصرين . فعندما أنكر بعض الثوار المسلمين على بعض المسلمين الذين ليسوا من أصل عربي ، ومنهم « سلمان الفارسى » و « بلال الحبشى » و « صهيب الرومى » ، أنكروا عليهم ان يكونوا عربا يحسب لهم حساب العرب ، عند ذلك قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : « ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم .. وانما هى باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » . فهو هنا يضع أساسا جديدا لمفهوم العروبة ، وينسج نسيجا جديدا يربط أوصال هذه الجماعة العربية التى تلتحم أجزاؤها على أسس ثورية ، تمثلها تعاليم الاسلام ، فهو يرفض هنا نظرية العرق والجنس ، ويرى فى « التعريب » ، والحديث بالعربية ، والاعتزاز والافتخار بها ، - وهو موقف سلمان وبلال وصهيب - القيم التى تجعل من هذا الانسان عربيا ، ومن هذه الجماعة من الناس جماعة عربية .

***

وازاء الاستغلال البشع الذى كانت تمارسه الأرستقراطية التجارية ، وتجار الرقيق ومالكوه ، ضد الجماهير الغفيرة ، والذى كان يتمثل بالدرجة الأولى فى هذه السلسلة التى لا تنتهى من الديون ، والربا الفاحش والمضاعف ، ازاء هذا النوع من الاستغلال اتخذ الاسلام موقف التحريم القاطع للربا ، سواء أكان بسيطا أم مضاعفا .

وفى مجتمع كالذى شهد ظهور الاسلام ، وفى أمثاله ، علينا أن نرى فى الموقف المعادى من الربا أكثر من موقف معاد لهذا النوع البشع من أنواع المعاملات .

فالربا ، بالدرجة الأولى ، مال يكسبه الدائن دون عمل ، بل يأتيه عن طريق التسليف ، أى مال يثمر مالا جديدا دون جهد مبذول من مالك المال .

ومن هنا فوجه الشبه بين هذه الحالة ، وبين أسلوب الرأسمالية فى الربح ، غير مفقود .. بل انها نفس القيم والأفكار التى تبرر للمرابى الحصول على الربا من كد المدين وكدحه . والقيم والأفكار التى ترفض الربا ، وتقرر الغاءه ، بل وتلغيه بأثر رجعى ، كما فعلت الدولة الاسلامية ، انما تقف موقفا معاديا لاسلوب كسب المال عن طريق المال ، دون عمل بشرى وجهد انسانى .. لأن هذه القيم وتلك الافكار ، وهى قيم وأفكار أرست قواعدها الثورة العربية الاسلامية ، انما تمجد العمل ، وترى فيه المصدر الأول والأساسى ، بل والوحيد ، لكسب المال .

فالقرآن الكريم الذى تزدحم سوره وآياته بالحديث عن « الايمان » ، لانكاد نجد به لفظ « الايمان » الا وكان مقرونا بلفظ « العمل » ، حدث

ذلك غاليا ، والتزمه القرآن ٠٠ كما وضع المبدأ الخالد المتمثل فى آيته الكريمة التى تقول : (وأن ليس للأنسان الا ما سعى) ٠

وللرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الصدد عشرات الأحاديث والتعليقات ، وهو القائل فى وصف يد انسان يكدح وينتج : « هذه يد يحبها الله ورسوله » ، كما أنه هو الذى فضل الانسان الكادح الذى يرعى أسرته وأسرة أخيه على الأخ الذى تستحوذ عليه العبادة والصلاة ليلا ، ويشغله الصوم عن العمل بالنهار ٠

***

والمرأة ٠٠ التى لم تكن فقط جزءا من متاع الرجل ، وقطعة من أثاث منزله ، بل كانت توارى التراب حية بعد ولادتها اتقاء لما يمكن أن تجره على الأسرة والقبيلة من « العار » ، هذه المرأة قد أخذ الاسلام بيدها ٠

واذا قسنا الحقوق والامتيازات التى اعترف الاسلام بها للمرأة ، فى ضوء الظروف والمرحلة التاريخية التى تمت فيها عملية « التحرير » هذه، لوجدنا أن الاسلام قد منح المرأة ما عجزت عن منحها اياه ثورات حدثت بعد ذلك بمئات السنين ٠٠ وهل نستطيع أن نغفل دلالة اشتراك المرأة العربية فى « بيعة العقبة » الثانية التى حددت « العقد الاجتماعى والسياسى » بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين أهل « يثرب » ، قبل هجرته اليها بثلاثة أشهر ـ عندما ضم وفد « يثرب » المعاهد والمبايع امرأتين من أهلها ـ وشرف هذا الاشتراك ؟؟!!

ولقد كان من الممكن أن يتخذ الاسلام كل هذه المواقف الثورية من هذه القضايا الحيوية التى أشرنا اليها ، دون أن تكون لثوريته كل تلك الأبعاد التى أحدثتها تعاليمه ووصاياه ٠٠ وبتعبير آخر : كان من الممكن أن تكون هذه الملامح الثورية التى عرضنا بعضها ، قائمة ، وفعالة فى المجتمع الجديد ، ومؤتية ثمارها ، وأن تحدث هذه الثورة انتقال المجتمع العبودى المتفسخ المتخلف الى مجتمع اقطاعى ، يمثل خطوة أكثر تقدما ، ومرحلة أكثر تطورا ، وموقفا « ثوريا » فى اتجاه تخفيف العبء عن الانسان ، كأن يريح العبد من البيع والشراء والقتل ويربطه الى أداة الانتاج ، ويمنع المرأة من « الوأد » (القتل) ويسجنها خلف أسوار الحريم ٠٠

ولكن هذه التجربة الثورية لم تصنع ذلك ، أو لم تصنع ذلك فقط ، فلم يكن هدف التجربة الاسلامية ، أن تقف بالجماعة العربية ـ بعد تخليصها من بقايا المجتمع القبلى العبودى ـ عند بداية المجتمع الاقطاعى ،

بل اننا نعتقد ، ونؤكد أن التجربة والنموذج الذى أراد المسلمون بناءه فى شبه الجزيرة العربية ، لم يكن النموذج الاقطاعى ، ولا هو شـــكل من أشكال الاقطاع •

واذا شئنا أن نقوم اليوم هذه التجربة وهذا النموذج ، ونحن نقصد هنا النموذج الذى بناه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأكمل بنـــاءه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، واستمر الى قرب نهاية عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب •• أى التجربة التى عاشت قرابة الثلاثة والعشرين عاما ، منذ ظهور الاسلام سنة ٦١٠ م الى قرب نهاية عهد عمر رضى الله عنـــه سنة ٦٣٤ م •

اننا اذا شئنا أن نقوم هذه التجربة ، فلن نجـد أكثر دقة ومطابقـة للواقع من أن نقول عنها انها محاولة جادة ومخلصة وعمـــلاقة لتطبيق أفكار « اشـــتراكية » ، وتجربة جسورة لبناء نموذج من الحياة لم يكن مألوفا ، ولا كانت له فى الكتب ملامح ولا أصول ولا نظريات •

ونحن ، كما قدمنا ، لا نعطى هذا التقويم لهذه التجربة بسبب موقفها من الرقيق ، أو المرأة ، أو العصبية القبلية ، بل ولا حتى لموقفها من الربا كرأس رمح لعمليات الاستغلال ، وانما نحن نعطى هذا التقويم لهـــذه التجربة ، أساسا ، وبالدرجة الأولى ، لموقها من « الملكية الفردية » ، والوزن الذى أعطته للفقراء والكادحين •

فرغم أن الشرق لم يعرف من أشكال الملكية الاقطاعية ذلك الشـــكل الكلاسيكى الذى عرفته المجتمعات الأوربية منذ بداية العصر الاقطاعى ، ورغم أن الملكية كانت فى أغلب الأحيان ملكية للدولة أو السلطان ، وأن الفلاح الفقير أو المتوسط أو الغنى ، لم يعرف من هذه الملكية سوى «ملكية المنفعة» ، رغم ذلك الا أن التجربة التى نحن بصدد الحديث عنها قد قدمت نموذجا مختلفا عن ذلك تمام الاختلاف •

فالقرآن الكريم ، الذى مجد العمل ، ما كان يعقل أن يقيم أصحابه نظاما يقف الى جوار الملاك ، والرسول عليه الصلاة والسلام الذى نشـأ وناضل من أجل المستضعفين فى الأرض قد تحدد منذ البداية ماذا يريد فى هذه الآية من آيات القرآن ، عندما قال : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ••••)(١)

---

(١) ورغم أن هذه الآية قد وردت فى القرآن فى سياق الحديث عن فرعون مصر وظلمه لرعيته ، الا أن القاعدة الشهيرة فى أصول التفسير القرآنى تقول : « ان العبـرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » ، فهى اذن شعار اسلامى يعالج المجتمع العربى •

ولم يكن هذا جديثا عاما ، ولا هي بالأفكار والشعارات العابرة التي لم تجد لها صدى في الواقع والتطبيق ، فتشريعات الدولة الجديدة قد حددت بوضوح ذلك الموقف الحاسم ازاء « الملكية الفردية » حين قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ثلاث لا ملكية فيها : الماء ، والنار ، والكلأ » وفي رواية أخرى « والملح » ·· وهو الحديث الذي ورد بلفظ آخر يقول : « الناس شركاء في ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار »(١) ·

وفي هذه الكلمات البسيطة القليلة ، نجد الموقف العام والأساسي من هذه القضايا الكبيرة والخطيرة ، لأن الماء والنار والكلأ ، انما كانت يومها تمثل معظم مصادر الثروة الأساسية التي يملكها المجتمع ·· فالماء هو المصدر لكل شيء حي في شبه الجزيرة ، وحول آباره وعيونه يحيا الناس والحيوان وتتطور الحياة ، وهو الذي يباع ويشترى ، لأن الأرض واسعة وقاحلة لا قيمة لها ·· والكلأ ، هو المرعى لمجتمع يعتمد على الرعي إعتماده على التجارة ·· والنار ، هي وسيلة استعانة الانسان العربي على الصحراء ، يهتدي بها ، ويدفىء بها نفسه ، ويطهو بها طعامه ، ويصنع السيوف والأدوات ·

وحول هذه الكلمات التي حددت موقف الدولة الاسلامية الى جانب « الملكية الجماعية » لأهم « وسائل الانتاج ومصادره » في المجتمع العربي، وردت أحاديث كثيرة وتوجيهات متعددة ، ووصايا تدعو الناس الى الاهتمام بالفقراء والمساكين ، وتتحدث عن نصيبهم في الأموال ، لا على أنه صدقة واحسان ، بل على أنه (حق معلوم للسائل والمحروم) ·

والموقف من الأرض ، وهو تكملة وتفصيل للتشريع الذي أجمل حديث الملكية العامة تقريره ، تتضح لنا روعته وحسمه عندما نقرأ قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من كانت له أرض فليزرعها بنفسه ، أو يمنحها أخاه ، ولا يؤاجره اياها ولا يكريها » ·· انه يستبعد الأجارة ، أو على الأقل يرغب في ذلك ، لأنه يقدس العمل ويراه المقياس الوحيد ، والباب الوحيد للارتزاق ، وذلك حسبما جاء في الحديث الشريف « لا يؤجر أحد الا بكد يمينه » و « أطيب الكسب عمل الرجل بيده »(٢) ·

---

(١) رواه : أحمد ، وأبو داود ·

(٢) رواه : أحمد ، والحاكم · وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطع أناسا من « مزينة » ، أو « جهينة » أرضا لتعميرها ، فلم يعمروها ،و عمرها غيرهم .. فاختصموا مع هذا الغير الى عمر بن الخطاب ، فقضى للغير الذى عمرها بها ، وقال : « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لايعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » كما روى ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أعطى لبلال بن الحارث المزنى جميع أرض العقيق فلما كان زمن عمر بن الخطاب ، قال لبلال : ان الرسول لم يقطعك لتحجزه عن الناس، انما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي « عن كتاب « الاموال » لابى عبيد ص ١٦ ،٥·

وقد يصعب على البعض الآن أن يتصور كيف أن الرعيل الأول من رجال الدعوة الاسلامية قد حاولوا جاهدين اقامة نموذج للاشتراكية فى شبه الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ٠ ولكننا لن ندهش لذلك اذا أمعنا النظر ، وحاولنا معرفة الدوافع الحقيقية والمادية والموضوعية التى قادت هؤلاء الثوار المؤمنين المخلصين الى مثل هذا الطريق ٠٠

فالى جانب تعاليم القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، والقيم الجديدة للدين الجديد ، كان واقع مجتمع شبه الجزيرة العربية هو الكتاب الذى تعلمت منه الثورة العربية الاسلامية هذه الأفكار، وذلك الاتجاه ٠٠ مجتمع غير زراعى فى الأساس ، والرعى فيه يمثل العمود الفقرى للاقتصاد القبلى ، وترحال القبائل ، وارتباط الرعى بالمطر ، كل ذلك قد خلق زاوية للرؤية اذا ما نظر منها المصلح الثورى باخلاص ، فانه ولا بد أن يرى طريق التقدم والتطور لهذا المجتمع مرتبطا بجماعية الملكية لا للمرعى فقط ، ولا للكلأ فحسب ، بل ولكل « وسائل الانتاج ومصادره »(١) ٠

والمياه التى كانت تمثل شيئا نادرا ، وان يكن ضروريا ، فى هذا المجتمع ، ما كان لمصلح ثورى أن يتركها نهبا لملكية من يملك رأس المال٠

ومن هنا كان الواقع دافعا الى الايمان بأهمية جماعية ملكية «وسائل الانتاج» وضرورتها ٠

وهكذا كان المجتمع العربى المتخلف ، وذو الموارد القليلة ، والظروف الحضارية والاقتصادية القاسية ، هو الكتاب الذى تعلم منه ثواره ، الجماعية فى النظرة ، والجماعية فى تحديد خط التطور ، ومن ثم رسم معالم تجربة ثورية انسانية ، لا نستطيع ونحن نقومها من زواياها الاقتصادية والاجتماعية الا أن نضعها ضمن أنضج التجارب «الاشتراكية»، وأقدمها ، التى شهدها تاريخ الانسان ٠

ونحن اذ نقرر هذه الحقيقة ، انما ندرك أن تناولها بالشرح والتفصيل انما يعسر أن يستوفى فى عدد قليل من الصفحات ، وأن هذا الأمر يحتاج الى دراسة كاملة وشاملة ومستقلة ، ولكن سياق حديثنا ، وخط سيرنا

---

(١) ومن هنا تأتى دلالة الارض التى « حماها » عمر بن الخطاب (أى جعلها عامة) « بالربذة » ، والتى استعمل عليها « هنى » وقال له : « يا هنى ، اضمم جناحك عن الناس واتق دعوة المظلوم فانها مجابة ، وأدخل رب « الصريمة » و «الغنيمة » (اى صاحب الابل والغنم القليلة ، أى الفقير) ، ودعنى من نعم « أى ابل » ابن عفان ونعم ابن عوف « وكانا من الأغنياء » فانهما ان هلكت ماشيتهما رجعا الى نخل وزرع ، وان هذا المسكين ان هلكت ماشيته جاءنى ببنيه يصرخ : يا أمير المؤمنين ٠ أفتاركهم أنا لا أبالك ؟؟ !! فالكلأ أيسر على من الذهب والورق ٠ وانها لأرضهم قاتلوا عليها فى الاسلام ٠٠ ٠٠ » (رواه البخارى) ٠

مع « الجماعة العربية » عبر مراحل نموها وتطورها وتبلورها انما يستدعى تقرير هذه الحقيقة ، وتقديم بعض الأدلة التاريخية ، والمنطقية ، وبعض الاستنتاجات التى تدعم هذه القضـــــية التى طرحناها فيما تقدم من سطور ٠

ولعله من المفيد فى باب التدليل على هذه القضية المطروحة أن نبصر ذلك الفارق الجوهرى والبارز بين مصير الأرقاء الذين حرروا بقيام الدولة العربية الاسلامية وبين مصير أمثالهم من الذين حررتهم التطورات والتغيرات الاقطاعية فى أى مجتمع نقلته « الثورة » الاقطاعية وعلاقات الانتـــاج الاقطاعية وسلطة الاقطاع من العصر العبودى الى مجتمع السيادة فيـــه لنظام الاقطاع ٠

لقد تحول الأرقاء والعبيد الى « اقنان » ، وبعد أن كانوا يباعـــون ويشترون ، وللسيد قبلهم من « الحقوق » ما يصل الى حد القتل وامتلاك كل جزئيات المصير ٠٠ تحولوا الى « أقنان » مرتبطين بالأرض والسيد ، وان تكن لهم بعض « الحقوق » التى تحول بينهم وبين الموت ، وتضمن لهم بعض انتاج ما قدمت أيديهم من كدح واجتهاد ٠

تلك هى الصورة الحديثة التى أصبحت عليها حالة الأرقاء عنـــدما نقلتهم السلطة الاقطاعية من المجتمع العبودى الذى كانوا يعيشون فيه٠

أما فى الدولة العربية الاسلامية الأولى التى أقامها الاسلاموالمسلمون، فلم تكن هذه هى حال أرقاء الأمس ، فلقد ناضل المسلمون الأول لاقرار نوع من الحرية الحقيقية لهؤلاء الأرقاء ، وشرع الاسلام لحياة من المسـاواة الحقيقية يتساوى فيها الجميع بصرف النظر عن درجة تمتعهم بالحرية فى مجتمع ما قبل الاسلام ٠

فالرسول عليـــه الصلاة والسلام يشدد على مجموعة من القـــيم والوصايا والارشادات : « ٠٠٠ من أطاعنى دخل الجنة ولو كان عبـــدا حبشيا ٠ ومن عصانى دخل النـــار ولو كان أميرا قرشيا ٠٠ » ٠٠٠ « النـــاس سواسية كأسنان المشط ٠ لا فضـــل لعربى على أعجمى الا بالتقـــوى ٠٠٠ » ٠٠٠ ثم نجده ، عليـــه الصلاة والسلام ، يقسو على « أبى ذر الغفارى » عندما يعير « بلالا » الحبشى بأمه ، فيقول له : « يا أبا ذر ٠٠٠ ارفع رأسك فانظر ٠ ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر(١)

(١) والأحمر هم الارقاء والعبيد من أصل فارسى ٠

فيها ولا أسود(١) الا أن تفضله بعمل ... ، .. وغير ذلك ، عديد من المواقف والتصرفات العملية التى جعل فيها النظام الثورى الجديد من هؤلاء الأرقاء المحررين سادة حياتهم ومصيرهم ، لا فرق بينهم وبين الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وقد يحتج البعض ضد هذه الصورة التى نقدمها عن الوضع الذى أصبحت عليه حالة الأرقاء ، بأن الاسلام قد جعل من هؤلاء الأرقاء المحررين « موالى » ، وأن هؤلاء الموالى كانت عليهم واجبات قبل أسياد الأمس الذين حرروهم وأعتقوهم .

وهذا حق ... ولكن ... لنسأل : ما هى هذه الحقوق التى قررها التشريع العربى الاسلامى الثورى فى هذا الاتجاه ؟؟... انه قد جعل « ولاء » المعتق ـ بفتح التاء ـ لمن أعتقه ، فاذا مات المعتق ـ بفتح التاء ـ دون وارث فتركته لمعتقه ومحرره .. فما هو جوهر هذه العلاقة التى أقامها الاسلام ؟؟

اننا نستطيع أن نفهم ذلك بعمق أكثر اذا علمنا أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء الأرقاء لم يكونوا من أصل عربى ، وانما كانوا عبيدا جلبوا من المدن والقرى والغابات الأفريقية ، أو من فارس ، أو من بلاد الروم ، طوال عهود طويلة من الاتجار بالأرقاء ، ومن ثم فان عملية الحاقهم بالقبائل العربية ، عن طريق اقامة نوع من العلاقة ـ شبيهة بعلاقة النسب والدم(٢) ـ بينهم وبين معتقيهم من أحرار العرب ، انما هى عملية الحاق بالعروبة ، والعروبة المتحررة ، بمفاهيمها المتقدمة والديمقراطية التى أتى بها الاسلام وتحدث عنها القرآن الكريم ، وأرسى قواعدها البناء الثورى الجديد .

وحتى هذا المكسب الذى كان يحلم به الأرقاء بعد تحريرهم ، لم يكن يمثل قيدا ، ولا عبئا على المحررين ـ بالفتح ـ ، بل لقد كان باستطاعتهم ، وطوع أمرهم أن يقيموا لأنفسهم الكيان المستقل ، وأن يتمتعوا بنفس الحقوق ، ويلتزموا بنفس الواجبات التى للمجتمع قبل الناس . ولعل مما يشهد لذلك ، ذلك الخطاب الذى بعث به عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه الى قواده فى الأمصار والأقاليم ، والذى قال

---

(١) والأسود هم الأرقاء والعبيد المجاوبون من أفريقيا السوداء .

(٢) فى أغلب كتب الفقه الاسلامى نجد هذه العبارة عند الحديث عن « الموالى » : الولاء لحمة كلحمة النسب » .

لهم فيه : « ... ومن أعتقتم من الحمراء ، فأسلموا ، فألحقوهم بمواليهم ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم . **وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم ، فاجعلوهم أسوة فى العطاء »** .

ان هذا المصير الذى أوصلت التجربة العربية الاسلامية الأولى اليه أرقاء الأمس ، لم يحدث من قبل فى ظل نظام اقطاعى ورث مجتمعا من مجتمعات العبيد ، ومن هنا فاننا نبصر فى ذلك دليلا يضاف الى ما قدمنا من أدلة على أن التجربة الثورية التى أقامها الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتى أشرنا الى محتواها التحررى والاجتماعى ، لم تكن تجربة نقلت المجتمع من العبودية القبلية الى الاقطاع ، وانما الى نموذج من الاشتراكية والعدالة الاجتماعية السامية بالمعنى الدقيق لهذا التعبير .

ولعل فيما سنسوقه من حديث مقبل عن بعض الأفكار الاشتراكية التى مثلت فى تقديرنا امتدادا واستمرارا للتجربة العربية الاسلامية الأولى ، لعل فى ذلك دليلا آخر على صحة ما نقدمه لهذه التجربة من تقويم .

ونحن لم نقرر ــ سلفا ــ حاجة هذه الحقيقة لكتاب مستقل ، ودراسة كاملة ، لمجرد أن هذه « التجربة الاشتراكية » تستحق هذا الاهتمام ، وهى تستحقه وأكثر ، وانما لأن هذه الحقيقة لم تستقر بعد فى بعض الأوساط الفكرية والسياسية ، ولم يتناولها أحد بالدرس العلمى الجاد الملتزم بالمنهج العلمى فى دراسة التاريخ . وما ذلك الا لأن الكتاب الذين تناولوا كتابة التاريخ العربى الاسلامى ، وطرقوا مجال دراسة التجربة العربية الاسلامية الأولى ، اما أنهم قد تناولوا دراسة هذه الفترة بمنهج غير علمى ، واما أنهم لم يبصروا تلك الفروق التى يجب ألا تغفل بين التجربة الثورية التى أقامها الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأول ، وبين المصير الذى انتهت اليه تلك التجربة ، والصورة التى أصبحت عليها ، عندما أصبحت السيادة فى الدولة العربية لقوانين المجتمع الاقطاعى ، وعندما فشلت فى الاستمرار أو التطور بعيدا عن متناول قوانين مجتمع الاقطاع ..

ان عدم التمييز بين النظام الذى شهده الرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، والذى استمر الى قرب نهاية عهد عمر ، وبين النظام الذى اتضحت معالمه منذ نهاية حكمه ، وبالذات فى زمن خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ان عدم التمييز ، والخلط فى هذا الأمر ، هو السر فى حاجتنا الى اعطاء هذه

النقطة الكثير من العناية ، وتقرير حاجة هذا الموضوع الى دراسة مستقلة مدعمة بالحجج والأسانيد والتفاصيل(١) •

وهذه الأبعاد الثورية الفسيحة للدولة العربية الاسلامية الأولى التى أقامها الاسلام ، لم تطمس معالمها نتيجة فقدان المنهج العلمى فى البحث فقط ، بل لقد تعمد كثير من المؤرخين طمس حقائق هـــذه التجربة ، وازاحة ملامحها المتقدمة والثورية من الصورة التى رسمت لها ، وقدمت للجماهير طوال عصور طويلة من التاريخ • لأن كثيرا من هؤلاء المؤرخين ، وعديدا من هذه الصور ، قد عاشت وعملت طويلا فى خدمة الرجعيـــة والرجعيين •• وما كان فى صالح الرجعية والرجعيين فى يوم من الأيام أن تقدم للجماهير العربية ، فى تراثها وتاريخها ، مثل هذه الصفحـــات التى تحكى تجارب من الاشتراكية ، فـــكرا وتطبيقها ، لأن فى ذلك اشـــارة الى أن الاشتراكية كنظام اجتماعى ، والتفـــكير الاشتراكى ، والمجتمع الاشتراكى كنمط حياة ، انما هى أمور ليست غريبـــة على الانسان العربى ، ولا هى مصدرة اليه من بلاد غريبة وبعيدة ، بل ان فى ماضيه وتراثه ما يجعله أهلا لأن يسهم فى هذا الميدان بالسهم الوافـــر والنصيب الأوفى ••

ومن الذى ينكر أهمية تقديم تلك الصفحة المشرقة التى تحكى تجربة « المؤاخاة » التى أقامها الرسول عليه الصلاة والسلام بين المهـــاجرين والأنصار بعد الهجرة مباشرة من مكة الى « يثرب » وذلك « الاشتراك » الذى قام بينهم فى كل شىء • من الذى ينكر أثر دراسة علمية تقدم عن هذه التجربة وظروفها وأبعادها وما تضمنته من قيم للعدالة الاجتماعية تعد وثيقة نضج وغنى وثراء للانسان العربى فى هـــذا الميدان •• دلالة كل ذلك وأثره فى الجهد الذى تبذله أمتنا اليوم فى الطريق نحو عدالة اجتماعية وتحرر اجتماعى لأبنائها العاملين ؟!!•• وذلك فضلا عن تقديم كل ما فى هذه التجربة العربيـــة الاسلامية الأولى من صفحات مليئـــة بالأمجاد والاشراق •

---

(١) ويكفى أن نعرف هنـــا موقف كل من العهدين من « الموالى » •• فالخمســـة الذين بايعوا أبا بكر الصديق فى اجتمـــاع « السقيفة » أول يوم كمندوبين عن المسلمين الذين بايعوه بالخـــلافة فى المسجد فى الغـــداة ، هؤلاء الخمسة كان أحـــدهم « سالم مولى حذيفة » •• وأبو بكر قد سوى فى العطاء بين العرب والموالى ، وكذلك صـــنع عمر بن الخطاب . وستعلم بعد ذلك المصير الذى وصل اليه حال الموالى فى ظل المجتمع الاقطاعى الأموى ، وكيف وصلت التفرقة حدا أبعد من الحرمان من العطاء فلم يســـمح لهم بالزواج من العربيات ، ولا أن يؤموا العرب فى الصـــلاة فى بعض الأحيـــان ، ولا أن يعيشوا فى المدن الهـــامة الرئيسية ، كما فعل ذلك الحجـــاج بن يوسف الثقفى حاكم بنى أمية على العراق !!••

الباب الثالث

الإمبراطورية العربية الإقطاعية

١ —

« ... فقـــد تبين أن الخلافة قد وجـدت بدون الملك أولا ، ثم التبست معانيهمـــا واختلطت ، ثم انفـرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة . والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار . »(١)

ولكن ... هل كان باستطاعـة التجربة الاسلامية الأولى ، تجـربة الاشتراكية والعدالة الاجتماعية السامية ، أن تعيش وأن يكتب لها دوام البقاء ؟؟..

ان التطور الذى حدث للمجتمع العربى ، والطـــريق التى انفتحت أمام هذه التجربة ، هى التى لعبت الدور الأساسى فى تخلى هذه «التجربة الاشتراكية» عن مكانها ، وسيادة قوانين المجتمع الاقطاعى بدلا منها .

فالمجتمع العربى البدائى البسيط فى شبه الجزيرة ، لم يعـــد هو الاطار الذى تعيش داخله تجربة الدين الجديد ، وانما تعدت تعاليم هذا الدين اطار هذا المجتمع الفقير ، وفتحت جيوش المسلمين حتى أواخـــر عهد عمر بن الخطـــاب ثلاث مجتمعات زراعية ، ذات تقاليد اقطاعيـــة عريقة : فى مصر ، والعراق ، والشام .

وكما كانت طبيعة المجتمع العربى البدائى البسيط هى التى أنتجت وبلورت قوانين التجربة الاسلامية الأولى فى الاقتصاد والاجتماع ، فان تقاليد البلاد الزراعية والمجتمعات الاقطاعية المفتوحة وقوانينها ، قـــد أخـــذت تنعكس على حياة المجتمع ، وتسود كعوامل حاسمة تحـــدد

---

(١) ابن خلدون « المقدمة » طبعة مصـــطفى فهمى الكتبى . مصر سنة ١٣٢٢ هـ « ١٩٠٤ م » . ص ١٦٥ .

سمات النظـــام وقسماته ، وذلك لأن لقوانين المجتمع الاقطـــاعي من الأصالة والثبات والجاذبية بحيث لا يمكن أن تقف فى طريقها تلك القوانين والتقاليد التى لم تكن قـــد استقرت بعد ، ولا أصبحت على درجة من الرسوخ ، والتى كانت لا تزال بسيطة غير معقدة ، شأنها شأن البيئـة والمجتمع اللذين عاشت فيهما قبل هذه الفتوحات ٠

وحتى نستطيع أن نلمس ذلك التغيير الذى أحدثته فى نظم الدولة العربية الجديدة ، عملية فتح المجتمعات الزراعية الاقطاعيـــة الكبيرة ، يحسن بنا أن نشير الى ذلك الصراع الاجتماعى والقانونى الذى دار بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقطاع من رجالات الدولة ومفـكريها من جانب ، وبين عدد من قادة الجيش ورجالات الدولة ومفكريها من جانب آخر ، حول الموقف من بعض المعضلات الجديدة التى عرضت لهم بسبب هذه الفتوحات ٠

لقد كانت الفتوحات العربية تستتبع الحصـول على بعض المغـــانم والأسلاب ، وكانت هذه الغنائم توزع ، أساسا ، بين المحاربين ، بعـد اقتطاع أجزاء منها لوجوه الانفاق العام ، ووفق نظام خاص ٠ ولـــكن الأمور تعقدت بعد فتح المجتمعات الزراعية الكبيرة ، وثار الخـــلاف عند ما فتحت أرض العراق ٠

فالمحاربون ورجال الجيش الفاتح أرادوا أن تقسم بينهم أرض العراق المفتوحة بما فيها من علوج (عبيد الأرض) ، وكان معهم فى موقفهم هذا : القانون والعرف وما جرى عليه العمل منذ بداية فتوحات الاسلام ٠

ولكن عمر بن الخطاب ، وهو الخليفة ، رأى أن هذه الفتوحات الجديدة ذات طابع جديد ، وأنها قد نقلت الوضع فى الدولة العربيـــة الى حالة « كيفية » جديدة ، وأن الأمر لذلك يتطلب تغييرا فى القانون يتمشى مع هذه التغيرات ٠

لقد كان عمر يحس أن الأمور قد وصلت الى المستوى الذى نستطيع فيه القول بأن الأسس المادية للدولة العربية الاسلامية قد تغيرت ، وأن القوانين الجديدة للأمبراطورية الجديدة لا بد وأن تكون مغـــايرة لقوانين الدولة الاسلامية البسيطة التى ورث حكمها عن الرسول عليه الصـــلاة والسلام والخليفة الأول أبى بكر الصديق ٠

ومن حوار طويل أورده « أبو يوسف » فى كتابه (الخراج) نجتزىء بعض كلمات لعمر بن الخطـــاب يعبر بها ــ تلقائيا ــ عن التغيرات التى التى اعترت الدولة ، واحســـاس عمر بهـــذه التغيرات ، وعزمه على

مراعاتها فيما يختص بالتشريع .. يقول عمر مناقشا الذين يريدون توزيع أرض العراق بين المحاربين الفاتحين : « ... فكيف بمن يأتى من المسلمين ، فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء ، وحيزت ؟؟ ... والله لا يفتح بعدى بلد يكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا(١) على المسلمين . فاذا اقتسمت أراضى العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور ؟؟ ... وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره ، من أهل الشام والعراق ؟؟ ... انه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد أغنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته وجهه ... وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين ، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى بعدهم . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش ، وادرار العطاء عليهم !! فمن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الأرض والعلوج ؟؟!! »

وتعبيرا عن انتصار قوانين المجتمع الاقطاعى وقيمه ، انتصرت وجهة نظر عمر ابن الخطاب ، ووقف الى جواره سادة الأنصار من الأوس والخزرج الذين استدعاهم وحكمهم فى هذا الخلاف . وعندئذ كتب الى قائده على العراق « سعد بن أبى وقاص » يقول : « أما بعد ... فقد بلغنى كتابك ، تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابى هذا فانظر الى ما أجلب الناس به الى المعسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقى بعدهم شيء » .

وأكثر من ذلك ، لقد طلب عمر بن الخطاب من قائد جيشه سعد بن أبى وقاص ، أن يمنع قواته من الانسياب فى أودية العراق وسهوله ، ومن الحياة فيها كما يحيا المواطنون العاديون ، وطلب منهم التزام المعسكرات التى بنيت خصيصا لهم ، مثل البصرة والكوفة ، ابقاء لهم حامية عسكرية تقبض الأعطيات وتقوم على الغزو والمرابطة فى الثغور دون أن تمتهن الزراعة وتمتلك الأرض بدلا من ملاكها الأصليين .

لقد أدخل عمر بهذا الأمر الذى سقنا نصه ، أدخل « علوج » العراق وملاك أرضها ضمن رعية الدولة الجديدة ، فكانوا طلائع طبقة الاقطاعيين الذين أخذ نجمهم فى الصعود منذ ذلك الحين ، وكانوا آباء وأجدادا

---

(١) كلا على المسلمين ، اى عبئا عليهم لفقره الاقتصادى .

للأشراف الذين دافعوا فيما بعد عن النظام الاقطاعى خلف قادة الأمويين والعباسيين(١) ٠

ويشير المقريزى الى مكان قبط مصر من هذه الصورة عندما يقول : « ان القبط كانوا على حال عظيم من الرخاء أيام حكم العرب ، حتى أن عجوزا من أهل قرية (طاء النمل) أضافت المأمون بجيوشه ثلاثة أيام ، وقدمت له هدية : أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة » ٠

ولقد كان ذلك ثمرة لهذا الوضع الجديد الذى أعطاه عمر بن الخطاب للسكان الأصليين لهذه البلاد ٠

وسمة أخـــرى للطور الجديد من أطوار المجتمع العربى ، طـــوره الاقطاعى ، عندما دخل هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمعات ، وهى تلك الظاهـرة التى أخذت فى التفشى والانتشـــار ٠٠ ظاهرة انتشـار الاقطاعيات ٠

فلعلى بن أبى طالب رضى الله عنه اقطاع فى « ينبع » ، ولعمرو بن العاص اقطاع فى « فلسطين » ذهب اليه مع أولاده يرقب منه الحـوادث ابان أواخر فتنـــة عثمان بن عفان ، وللمختـــار الثقفى ضيعة قـــرب « الكوفة » فى « خطر نيه » ، ركن الى الهـــدوء بها زمن معاوية بن أبى سفيان ، وللحسن بن على اقطاع صالح عليه معاوية ، ولابن سندر ألف فدان « بمنية الأصبغ » بمصر ، أقطعه اياها عمر بن الخطاب ٠ كما أقطع عثمان بن عفان « الصوافى » (وهى أرض كسرى ورجاله وقتلى حـربه والفـارين من مقاتلته وأموال دولتـه العامة) ، أقطعها اقطـاع اجارة لا تمليك ، فرأينا لعبـد الله بن مسعود أرضا بالنهـــرين ، ولعمار بن ياسر منطقة « أستينيا » ، ولخباب بن الأرت « صعبنا » ، ولسعد قرية « هرمز » ولطلحة بن عبيـد الله « النشاستج » ٠٠ ولكثيرين غـــيرهم

---

(١) وكان الخراج الذى فرضه عمر بن الخطاب على الأرض المفتوحة ، والعلاقة بين ملاكها وبين الدولة محكومة بالقوانين الضرائبية الاقطاعية التى سبق لكسرى الأول « أنو شروان » الملقب بالعـادل أن وضعها ، والمعروفة بنظـام « المساحة » ، والتى كان يطلق عليها « وضائع كسرى » ، وهى التى اقرها عمر بن الخطاب وظلت سارية المفعول حتى عهد الخليفة العباسى « المهدى » حيث عادت الدولة الى الضريبة العينية « المقاســمة » بدلا من النقـــدية « المساحة » ، فى ذلك التاريخ (د٠ ضياء الدين الريس ٠ الخــراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، ص ٧٥ » ٠

اقطاعات كثيرة أخرى فى أنحاء مختلفة من المجتمعات الزراعية التى تم فتحها فى ذلك الحين(١) .

وهذه الأسماء والاقطاعيات مجرد أمثلة لا غير (وان كان بعضهم انما كان ينفق دخل هذه الأرض ، أو معظمه ، فى المصالح العامة ، وبالذات الامام على كرم الله وجهه) .

وذلك الحديث الذى أشرنا اليه فى الباب السابق ، والذى تحدث فيه الرسول عليه الصلاة والسلام عن مشاعية الملكية فى الماء والنار والكلأ ، نرى أن تغير القاعدة المادية للمجتمع قد ألغى فعاليته فى زمن عثمان بن عفان ، فمن المآخذ التى أخذها الناس عليه أنه « حمى المراعى حول المدينة كلها من مواشى المسلمين كلهم ، الا عن بنى أمية » .

وأرض خيبر التى جعلها النبى صلى الله عليه وسلم « فيئا » للمسلمين ، كل المسلمين ، أقطعها عثمان لرجل دولته ، وقريبه ، مروان ابن الحكم ، مع خمس خراج « أفريقية » ، كما أقطع الصوافى كذلك مخالفا بهذا الأمر عمل الشيخين أبى بكر وعمر بن الخطاب(٢) .

وهكذا أخذت القوانين الموضوعية للنظام الاقطاعى تفرض نفسها على المجتمع الجديد ، فبدلا من جماعية الملكية ومشاعية الاستثمار ، وبدلا من جموع القبائل التى كانت تزرع وترعى ، وتحفر الخنادق وتحارب ، وتقتسم الفىء والغنيمة ، أخذت تظهر وتنمو طبقة ملاك الأرض (غير المسلمين الذين يدفعون الخراج كضريبة للأرض الى جانب الجزية كضريبة على الرؤوس ، والمسلمون الذين يدفعون العشر والزكاه) .

هذه الطبقة من ملاك الأرض ، التى ظهرت ، قد نمت فى سرعة كبيرة ، لأنها كانت تمثل الثقل الذى دخلت به المجتمعات الزراعية الاقطاعية المفتوحة فى الدولة العربية بوضعها الجديد .. ولم يحل بين هذه الطبقة وبين ان تمثل فى حياة المجتمع دور الاقطاعيين أن القانون والتشريع كان يعتبر هذه الأرض ملكا لبيت المال وملكية عامة ، لأن « ملكية المنفعة » كانت قاب قوسين او ادنى من الملكية الخاصة الفردية الكاملة ، وكانت هذه الطبقة تتصرف فى هذه الأرض بالبيع والشراء

---

(١) د. ضياء الدين الريس « الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية » ص ١٤٨ « نقلا عن « فتوح البلدان » للبلاذرى . ص ٢٨٢ »

(٢) المرجع السابق . ص ١٤٨ « نقلا عن «الأحكام السلطانية» للماوردى » .

والتوريث رغم ذلك « التقنين » الذى سنه عمر بن الخطاب ، والذى تحول الى نص فقهى ليس له مفعول (١) .

ولقد كانت هذه المجتمعات تمثل الثقل الإساسى ، والجانب الأكبر من هذه الامبراطورية الكبيرة : العراق ، والشام ، ومصر .. فى مقابل البيئة الصحراوية الفقيرة فى شبه الجزيرة العربية .

وبدلا من تلك الحياة المتقشفة التى كان يحياها رجال الدولة الأوائل المبرزون ، حيـــاة الحرب والجهاد ، أصبحت لعـــديد من هؤلاء الرجال اقطاعيات فى مختلف انحاء البلاد ، ولم يأت زمن حكم عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى خلف هؤلاء الرجال العــرب وراء ظهورهم حيــاة المعسكرات ، واحتراف الحرب ، وتخلوا عن عيشة العزلة التى كانوا يحيونها بعيدا عن أهل البلاد المفتوحة ، واندمجوا فى البيئة الجديدة ، ولم تعد الفواصل القديمة قائمة بين العرب كحاميات حربية وبين الشعوب فى مصر والعراق والشام . كما أخذت النظريات السياسية ، وأيضا الاقتصادية المرتبطة بالمجتمعــات الاقطاعية تأخذ مكانها الى الســيادة والانتشار .

فعثمان بن عفان رضى الله عنه عندما يناقشه الثائرون عليه الحساب ، وهم محيطون به من كل جانب ، وقواتهم المسلحة الغاضــبة تحتــل المدينة ، والهياج الشعبى يأخذ بخناق أنصاره ، ويطلبون منه الاستقالة من منصب الخلافة .. يرفض .. ويتحدث اليهم عن عدم ارتباط توليه الخـــلافة واعتزاله لها برضائهم أو سخطهم ، ويشير الى أن منصبه هذا انما يعلو فوق ارادة الرعية ، وانه خليفة الله على الناس ، وليس نائبا عن هؤلاء النـــاس ، وأنه لذلك « لن يخلع قميصا ألبسه الله اياه »(٢) وتلك نظرية فى السياسة ونظم الحكم لحناها ونلمحها كنظرية للنظام الاقطاعى ، وكتعبير عن عصر الاقطاع .

وعندما يعيب الناس على عثمان بن عفان تلك المحاباة لبنى أمية ، رغم دخولهم الاسلام مؤخرا ، ورغم تاريخهم الطويل فى قيادة الصراع ضد تعاليم الدين الجديد ، ورغم أن مصالحهم الطبقية لا يمكن أن تتفق ولا أن تنسجم مع التعاليم الثورية التى جاء بها الاسلام ، فيعيب الناس على عثمان محاباته لهم ، وتمكينه اياهم من جهاز الدولة وعصب الحياة الاقتصادية والمادية للبلاد ، وما تبع ذلك من احتدام الصراع بين الأمويين

(١) وفى كتاب « الهداية » : « .... وأرض السواد « العراق » مملوكة لأهلها ، يجوز بيعهم لها ، وتصرفهم فيها ، لأن الامام اذا فتح أرضا عنوة وقهرا ، له أن يقر أهلها عليها ، ويضع عليها وعلى رؤوسهم الخراج ، فتبقى الأرض مملوكة لأهلها »

(٢) بينما كان أبو بكر الصديق يغضب عندما يدعوه البعض خليفة الله ، ويقول انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الذين يقودون البلاد فى اتجاه تثبيت قوانين المجتمع الاقطاعى وانظمته ضد القوانين والقيم التقدمية التى جاء بها الاسلام ، واحتدام الصراع بينهم وبين جماهير المسلمين(١) .

وعندما ماج المجتمع العربي بهذه الصراعات والتناقضات ، وناقش الناس عثمان ، وعنفوه ، احتج عليهم بأن هذا المال « مال الله » وليس « مال الناس » ، وبما انه خليفة الله فان سلطانه مطلق فى التصرف ، ولعماله ورجاله نفس الصلاحيات ، حتى خطب معاوية بن أبى سفيان الناس من فوق المنبر فى دمشق فقال : « انما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه » . وهذه افكار وسمات وقيم خاصة بالمجتمع الاقطاعى .

وهذا البلاط الذى أقامه بدمشق معاوية ، وارث الأرستقراطية المكية ، ووارث عثمان بن عفان ، ووارث الحضارة الاقطاعية العريقة التى عرفها الشام وشهدتها دمشق خلال الاحتلال الرومانى ، وقبل الفتح العربى لهذه البلاد .. هذا البلاط الاقطاعى الذى جعل الحكم ذا نظام ملكى وراثى ، وأرسى قواعد المجتمع الاقطاعى العربى ، التى نمت وتطورت حتى نشوء البرجوازيات العربية التى ازاحت من السلطة ، نظام الاقطاع .. هذا البلاط لم ينشأ بعد مقتل الامام على بن أبى طالب ، ولا بعد اجتماع السلطة لمعاوية « عام الجماعة » سنة ٦١ هـ (سنة ٦٨٠ م) عندما بايعه الحسن ابن على وتنازل عن السلطة ، وانما نشأ هذا البلاط ، كبلاط اقطاعى ، عندما تولى السلطة والخلافة عثمان بن عفان .

ودلالة وقوف الشام ، بعربه الذين هاجروا من شبه الجزيرة الى هناك ، ومارسوا حياة اقطاعية موروثة عن المجتمع الرومانى القديم ، وايضا بعربه الذين عاشوا فى هذا المجتمع قبل ظهور الاسلام ، والذين نشأوا وتربوا وترعرعوا فى ظل نظام الاقطاع ، ان وقوف هذه القوى الى جانب بنى أمية دليل على أن النظام الأموى انما كان النظام الأقرب الى مفاهيم هؤلاء الناس وقيمهم ومصالحهم .. لقد كان النظام الاقطاعى الذى يفتح أمامهم أبواب الطريق المألوف .

ووقوف أشراف العراق الى جوار بنى أمية طوال تاريخ الصراع بين الأمويين وبين مختلف القوى التى عارضتهم وثارت ضدهم ، وهؤلاء

---

(١) لقد كان رجل الدولة الأول فى زمن عثمان هو مروان بن الحكم ، وهو من أشد خصوم الاسلام زمن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى لقد أهدر الرسول دمه فى فترة من الفترات .

الأشراف هم اقطاعيو العراق ، أولئك الذين رفض عمر بن الخطاب أن تنتزع منهم ارض هذا الاقليم وأنهاره وعلوجه ، وطالب ببقائهم فيها لادارتها وزراعتها . فعندما حارب معاوية عليا ، تثاقل هؤلاء الأشراف عن القتال مع على ، وذلك على الرغم من أنه قد اتخذ من « الكوفة » عاصمة عراقهم ، عاصمة للخلافة ، وفى ذلك اعلاء لشأن هـــذا الاقليم .

ولم يكن ذلك عن جبن منهم ، ولا رغبة فى عدم امتشاق الحسام ، فلقد سارعوا مرات عديدة ، خلف على ، وخلف غيره ، لقتـــال « الخوارج » الذين ثاروا ضد على وضد الأمويين ، رغم أن هؤلاء « الخوارج » كانوا اقارب قبائل هؤلاء الأشراف وأصدقاءهم ومعـــارفهم ، حتى قال لهم الامام على يوما : « سيروا الى القاسطين (أى الأمويين الظالمين) **فهم أهم علينا من الخوارج** ، سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين (١) يتخذهم الناس أربابا ، ويتخذون عباد الله خولا ، وما لهم دولا » .

فهم اقطاعيون ، قد تثاقلوا عن حرب معاوية ، لأنه يقود الصراع فى الامبراطورية العربية من أجل سيادة نظم المجتمع الذى يريدون ، ورسوخ قيمه .

والمختار الثقفى ، عندما جاء الى أرض العراق ، واعلن ثورته ضد الأمويين ، ظن بعض الناس أن ثورته هـــذه انمـــا هى حـــركة عراقية « استقلالية » ضـــد سلطان حكام الشـــام وتسلطهم ، وانخدع بعض الباحثين فتوهم أن المختار الثقفى كان مؤيدا من العراقيين لأنه كان يرضى غرورهم ، ويحارب على رأسهم « الاستعمار » الشامى المتمثل فى الأمويين !! .

المختار الثقفى هذا ، لم يقف بجانبه أشراف العراق واقطاعيوه ، فلقد وقفوا مع السلطة الاقطاعية التى كان يمثلها الأمويون فى الشام ، وكانت المصالح الطبقية هى التى تقودهم فى هذا الصراع .

بل لقد وقفوا مع مصعب بن الزبير ، شقيق عبد الله الزبير وممثله فى العراق ، لأنه كان يمثل السلطة الأرستقراطية القـــائمة فى أرض الحجاز ، وقفوا معه ضد المختار الثقفى ، لأنه كان يحرر العبيد ويسوى بين الموالى وبين هؤلاء الأشراف .

والعصبية القبلية التى أثارها الأمويين ورعوها وسهروا على اذكاء نارها ، كانت أيضا احدى السمات التى تميز بها ذلك المجتمع الاقطاعى .

(١) جبارين أى ملوكا . و « هند بنت زيد » الأنصارية ترثى « حجر بن عدى » الذى قتل ظلما فى عهد معاوية فتقول :

تجبرت الجبـــابر بعد حجر ... وطاب لها الخـــورنق والسدير

كما يقول شاعر خارجى فى « ابن زياد » عندما هرب من معركة هزم فيها :

يارب جبـــار شديد كلبه ... قد صار فينا تاجه وسلبه !!

فبعد التعاليم الثورية التى جعلت من العربى : كل من يتكلم العربية ويعتز بالعروبة ، ويحس بينه وبينها وشائج وصلات . وبعد عملية الانصهار التى جعلت من الرجل العربى مناضلا يقف الى جانب رايه حتى لو جعله هذا الراى معاديا لأهله وذويه ، والتى جعلت أرض «صفين» عندما التقت عليها جيوش على بن ابى طالب رضى الله عنه فى حربها لمعاوية بن أبى سفيان ، تشهد ابناء كل قبيلة يقاتون مع على ، يواجهون ويبارزون ابناء قبيلتهم الذين جاءوا فى جيش ابن ابى سفيان ، والتى جعلت عقيل بن أبى طالب يحارب عليا اخاه فى صفوف الأمويين .

بعد هذه التعاليم الثورية ، وتلك المواقف العملية التى جاءت دليلا على سير المجتمع شوطا غير قصير فى طريق الانصهار .. جاءت القيم الاقطاعية فاتخذت من القبليــة والنزعات العنصرية ســلاحا تثبت به سلطانها ، وتستخدمه فى تصفية نفوذ الثائرين .

ففى موقعة « الحـرة » التى دمر الأمويون فيها « المدينــة » ، أطلق العنان للعناصر الموتورة من عاصمة التجربة الثورية الأولى ، تلك العناصر التى لحقها الذل والعار ، وأصابتها الهزيمة بسيوف المسلمين الأول فى « بدر » وغيرها من المعارك والغزوات . فلقد كانت المدينة يوم موقعة « الحــرة » مســتقرا ومقاما لبقايا الرعيل الأول من الســابقين الى الاسلام ، ودون ما ضرورة حربية فى هــذه الموقعة ، اعمــل الأمويون سيوفهم فى هؤلاء الثوار القدامى ، وقتلوا يومها فيمن قتلوا ثمانين من الذين شهدو غزوة « بدر » على وجه الخصوص ، يوم سقط ســادة قريش ، وبالذات بنو أمية صرعى تحت ضربات سيوف المسلمين .

والصراع بين القبائل اليمنية من جانب ، والقيسية من جانب آخر ، والذى اتخذ فى ظل السلطة الأموية الاقطاعية العديد من الأساليب ، والذى اتخذ ذروة أشكاله المسلحة والعنيفة فى معركة « مرج راهط » التى أهلك فيها اليمنيون كثيرا من القيسيين ، والتى كانت سببا فى وقوف القيسيين موقف العــداء الدائم من بنى أميــة ، وبالذات بنى مروان .. هذا النزاع كان صورة حية لموقف السلطة الاقطاعية من العصبية القبلية ، وارتدادها عن الأفكار والقيم والمواقف الثورية التى اختطها الاســلام فى هذا الاتجــاه ، حتى جاء الوقت الذى يقول فيه الشاعر العربى :

وتفرقوا شيعا ، فكل قبيلة فيها امير المؤمنين ، ومنبر

والموقف من الأرقاء ، ذلك الذى تحدثنا عنه فيما سبق - هــذا الموقف قد تخلت عنه السلطة الاقطاعية ، وعاد الغــرور والتعصــب

العرقى ، ورؤية كل الفضائل فيمن يجـرى فى عروقه الدم العربى الأصيل ، وكل المثالب فيمن ينحدر من جنس آخر غير الجنس العربى ؛ وشهدنا عديدا من القادة ورجالات الدولة وكبار الاقطاعيين ، يستخدمون فى اقطاعياتهم آلافا من العبيد الأرقاء ، وأقنان الأرض ، الذين كتب عنهم « المقريزى » فى خططه يقول : « .. كان يسمى الفلاح المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن اقطع تلك الناحية ، الا انه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له » .

ورأينا الحجاج بن يوسف الثقفى ، أحد رجالات الدولة الأموية ، يتحدث عن الرقيق ، ويرسم لهم دورهم فيقول : « احمل عبدك على الفرس ، فان هلك هلك ، وان نجا فلك !! » .

والموقف من الموالى ، وهم المسلمون المنحدرون من أصول غير عربية ، والذين كانوا رقيقا فيما مضى ، ان هذا النظام الاقطاعى لم يفتح الباب امام هؤلاء الموالى للاندماج فى الهيئة الاجتماعية العربية ، ولم يساعد فى عملية الصهر للمجاعة البشرية التى استظلت بظل الامبراطورية العربية الجديدة ، بل طارد هذه الجموع الغفيرة التى ارتضت الدخول فى الدين الجديد ، ونسى قادة الدولة الأموية ومفكروها حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومساواته بين العرب وبين الموالى ، وتراث التجـربة الاسلامية الأولى فى حقل المساواة . وشهدت مدن العراق فى ظل سياط الحجاج بن يوسف اجـلاء الموالى عن أحيائها ، فلقـد جمعهم الحجاج ، ونقش على يد كل منهم اسم القـرية التى ينتسب اليهـا ، وحتم عليهم الاقامة فى القرى ، قائلا لهم : « أنتم علوج وعجم ، وقراكم اولى بكم !! » . كما امر الا يؤم الناس بالكوفة فى الصلاة الا عربى ؟ !! .

بل لقد شهد تاريخ التفرقة العنصرية رجلا مثل « عبد الله بن كثير » مولى بنى مخزوم بالعراق ، يتزوج من امراة عربية ، وهو يحبها وهى تحبه ، ولكن مصعب بن الزبير يفرق بينهما ، لا لشىء الا لأنها عربية وهو من الموالى . كما نشهد أحد رجال هذه الدولة الأموية يتحدث عن دور الموالى ووظيفتهم فى ظل نظامها الاقطاعى فيقول : « انهم يكسحون طرقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحيكون ثيابنا .. » .. هكذا .. فقط لا غير !! (١) .

---

(١) ومن الافكار العنصرية يومئذ الموقف من « الهجين » ، فابن قتيبة يقول : « ان العرب كانت لا تتزوج الهجين من الرجال ، وربما كان لأحدهم الولد من الأمة فاستبعده !! » .. ويقول « ابن منظور » فى « اللسـان » فى مادة « هجين » : « والهجنـة من الـكلام ما يعيبك ، والهجين : العربى من الأمة ، لأنه معيب » !!.. وفى قاموس « الفروزابادى » : « والهجين : اللئيم ، وعربى ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه » !!

وردا على ذلك التراث من الشعر العربى الذى قيل فى الغزوات الاسلامية الأولى ، والتى ارتفعت فيها راية الاسلام ضد الأرستقراطية المكية وعلى رأسها الفرع الأموى من قريش ، ردا على هذا الشعر استأجر الأمويون الشعراء لهجاء بنى هاشم والأنصار ، وعندما تحــرج بعض الشعراء من القيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر ، وأبت عقيدتهم هجاء آل بيت الرسول عليه الصلاة والســلام ، وصحابته الســابقين الى الاسلام ، استأجر الأمويون بعض الشعراء العرب المسيحيين ، كالأخطل ، للقيام بهذه المهمة ، مهمة الهجاء .

وهكذا أصابت السلطة الاقطاعية التجربة الثورية فى الصميم ، فانقسم المجتمع الى شيع وأحزاب ، واستشرت العصبية القبلية .. وقبل ذلك ، انقسم المجتمع الى سادة اشراف ، لهم كل شىء ، ورعية من الفقراء ، عليها كل الواجبات . وانحاز الأشراف ـ من كل جنس ودين ـ بعضهم الى بعض ، والتفوا حول السلطة الحاكمة (أموية كانت أو عباسية أو تركية) ، حتى شهدنا شاعر كالبحترى يقف الى جوارهم دون تمييز ، فيقول معبرا عن ذلك :

وأرانى من بعد كلفت بالأشرا   ف طرا ، من كل جنس وأس

ونظام الحريم .. تلك السمة التى كانت على مر الأيام والعصور ، وباستعراض المجتمعــات والنظم التى مر بها الجنس البشرى ، احــدى سمات عصر الاقطاع ، هذا النظام من العلاقة بين الرجل والمراة ، والنمط من الحياة الأسرية ، نجده قد ظهر وتفشى فى الدولة الاقطاعية بشــكل لم يسبق له مثيل . فالى جانب عشرات ومئات من الجوارى التى كانت تزخر بها بيوت رجال الدولة والأمراء وكبار الملاك ، حيث بنيت قصور خاصة للجوارى ، ذات ادارات مســتقلة ، ونظم بالغة حد التفســخ والتعقيد ، الى جانب هذا العالم من القيم الاقطاعية الخاصة بالحريم ، نجد تعدد الزوجات ، وتتابع الزواج والطــلاق وتكرارهما فى حيــاة القادة وكبار رجال الدولة وقواد الجيش وكبار الاقطاعيين ، بل أن بعض هؤلاء الرجال من أمثال « المغيرة بن شعبة » قد رويت عن هذا الجانب من جوانب حياتهم روايات أقرب الى الأساطير منها الى الحقيقة القابلة للتحقق والتطبيق .

وذلك الشكل الادارى من أشكال التنظيم الذى شهدته هذه الدولة الاقطاعية ، كان احدى السمات التى اتسمت بها دولة الاقطاع فى معظم المجتمعات ، ففى قمة السلطة الخليفة الذى يجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وتحت مستوى الخليفة هذا مجموعة من الأمراء

والولاة والعمال ، يتولى كل منهم حكم امارة من الامارات ، وفى كل مدينة هامة أو ثغر من الثغور أو امارة من الامارات حامية عسكرية تحرس سلطة أمير المؤمنين ، وتهيمن على جباية الزكاة والجزية والخراج ، وسائر انواع الضرائب والمكوس .

كما تركزت كل اهتمامات جهاز الانشاء والتعمير فى الدولة لخدمة المشاريع التى تدر المزيد من الأرباح والمكاسب على كبار الملاك والاقطاعيين ، دون غيرهم من فئات المجتمع الأخرى ، فالمشاريع التى أقيمت فى مصر ، كان من أهمها ما تعلق بالرى وضبط مياه الأنهار ، وانشاء مقياس النيل عند « الفسطاط » ، تحت اشراف العالم الفلكى القادم من بغداد « أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى » . وفى العراق ، تقام الأقنية بين دجلة والفرات ، ويستخدم فى ذلك علم المهندس الفيلسوف المعتزلى الكندى (٨٠١ ـ ٨٦٧ م) وهندسته وكتبه . ويساق العبيد والأقنان فى استصلاح أرض العراق وتخليصها من الأملاح المتخلفة فيها بفعل جوارها لمياه الخليج العربى .

وتقام عدة سدود لتساعد فى المشروعات الزراعية ، مثل السد الذى أقامه سنة ٦٨٠ م عبد الله بن ابراهيم ، غربى « الطائف » ، والذى لا يزال موجودا حتى الآن .

وتنال كبار الأسر والعائلات ورؤساء القبائل والعشائر وأمراء الأسر الحاكمة وأمراؤها ورجال الدولة ، الأرض الصالحة للزراعة ، والمساحات المستصلحة حديثا ، ومعظم الثمار التى يدرها على الدولة نظام الجزية والخراج .

تلك هى بعض ملامح الصورة التى وصلت اليها التجربة الاسلامية فى تطورها عندما سادتها قوانين عصر الاقطاع ، تلك القوانين التى رزح المجتمع العربى تحت نيرها نحوا من أحد عشر قرنا ونصف قرن من الزمان ، أى الى ظهور البرجوازيات العربية فى القرن التاسع عشر الميلادى . وذلك هو المحتوى الذى تضمنته هذه الامبراطورية الاقطاعية ، **وهو محتوى دولة اقطاعية ، جذبتها الى النظام الاقطاعى قوانينه الموضوعية التى سادت فيها بعد فتح المجتمعات الزراعية الاقطاعية فى الشام ومصر والعراق ، وبعد أن عدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموقف التقليدى من الأرض المفتوحة وأهلها ، وأدخل فى اطار الرعية ـ (التى تدفع الضرائب ، وتقيم علاقات مع جهاز الدولة ، ومن ثم تمارس نفوذا متزايدا فى البلاد) ـ طبقة من الاقطاعيين القدامى ، وكبار الملاك ، ذات تقاليد اقطاعية وتراث اقطاعى وقيم اقطاعية عريقة . بينما كان**

قصد عمر من ذلك التقنين والتشريع لنظام متقدم للملـكية يكون فيه للملكية العامة وبيت المال وجهاز الدولة نصيب كبير .

وعندما نقلت هذه الطبقة تلك التقاليد والقيم ، وذلك التراث الى المجتمع الجديد ، وعندما انضم الى هؤلاء الملاك الـكبار الاقطاعيين ، اولئك العرب الذين غادروا حياة الجندية ، وأداروا ظهورهم للمعسكرات، وامتلكوا الأرض ومارسوا حياة الاقطاعيين ، منذ عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والذين تزايدت أعدادهم بالهجرات العربية الواسعة الى احواض الأنهار حول النيل ودجلة والفرات وبردى والأردن والعاص .. عند ذلك ازداد وزن هذه الطبقة من الاقطاعيين .

وهذه الملامح ، وذلك المضـمون والمحتوى ، انما تمثـل نموذجا لامبراطورية عربية اقطاعية (١) ، وهى وان تكن قد جاءت امتدادا لتلك التجربة العربية الثورية الأولى ، والتى تحدثنا عنها فى الباب السابق ، الا أنها تعتبر ارتدادا عن كثير من القيم والأفكار الثورية التى شهدتها التجربة الأولى ، وانتكاسا عن عديد من التقاليد الأكثر تقدما ، والتى لو أتيح لها البقاء والتدعيم والتطور ، ولو هىء لها الجو الملائم ، لقدمت لنا معجزة النموذج الاجتماعى العربى العادل ، المتكامل البنيان ، منذ اربعة عشر قرنا من الزمان .

---

(١) وهذا الحديث الذى سقناه انما ينقض دعوى الكاتب الفرنسى « روجيه جارودى » والقائل ان « الشعب العربى ـ هذا الشعب الجواب الفاتح ـ الذى أسس امبراطورية تجارية .. الخ .. الخ .. » « الحضـارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ .. ترجمة قدرى قلعجى . ص ١٥ » .

٢ -

على اننا لا نكون محيطين بكل جوانب الصورة اذا لم نبصر بها غير هذا الجانب الذى قدمنا الحديث عنه فيما تقدم من صفحات ، جانب الملامح الاقطاعية التى تغلبت على ملامح الصورة الأولى للتجربة الاشتراكية التى أشرقت بها على العالم شمس الاسلام .

فالتحولات الاقطاعية ، وبروز قوانين المجتمع والنظام الاقطاعى وسيادتها ، لم تتم ولم تستقر ، ولم تكتب لها السيادة والرسوخ فى يسر وسهولة ، ولا دون أن تلقى المقاومة والاعتراضات . بل ان سيادة هذه القوانين انما حدثت خلال معارك ضارية وقتال عنيف ، ودماء صبغت أرض الامبراطورية العربية ، وسنين طويلة من العذابات والآلام ، وصراعات خاضتها القوى الاقطاعية من أمويين وعباسيين وأتراك ، ضد قوى سياسية واجتماعية غير اقطاعية ، ومعادية لنظام الاقطاع ، ومناضلة فى سبيل استمرار التجربة الثورية العربية الأولى ، وتطويرها وبلورة تعاليمها وانظمتها ، أو استلهام تجارب ثورية وأفكار عن العدالة والاصلاح تتناقض مع النظام الاقطاعى ، وتقف له بالمرصاد .

لقد كانت صورة المجتمع الاقطاعى العربى تحمل الى جانب الملامح الاقطاعية ، ملامح حركات اجتماعية وسياسية وفكرية غير اقطاعية ، خاضت صراعا سلميا ، بل ومسلحا ضد الاقطاع .

فالرعيل الأول من الثوار الذين رضعوا تعاليم التجربة المتقدمة من قائدها ورسولها محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، عندما رأوا ذلك التحول الاقطاعى يحث خطاه الى كل جانب من جوانب حياة الدولة ، لم يقفوا مكتوفى الأيدى ، معصوبى الأعين ، غافلين عما يدور ، بل قاوموا هذا الانحراف ، وأخذوا يستنهضون همم الفقراء وكل القوى الاجتماعية

صاحبة المصلحة الحقيقية فى معارضة استبدال الاستغلال العبودى القبلى القديم بالاستغلال سادة الاقطاع .

وكنموذج لهذه الكوكبة من الثوار العرب الحقيقيين كان ذلك القائد الثائر الاشتراكى ، أبو ذر الغفارى .

ولقد ألمعنا فيما مضى الى موقف أبى ذر فى معارضته لذلك التفسير الاقطاعى الذى ظهر فى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه ، لمركز الأموال والثروة فى الدولة .. وهل هى للناس ؟! . فتكون ادارة الدولة لها نيابة عنهم ، ومن ثم فهى مسـئولة عن تصرفاتها الماليـة تجاههم ؟• (وهو ما قال به أبو ذر الغفارى ، ومن خلفه جماهير الفقراء) .. أم أن هذه الأموال ملك لله ؟! .. والدولة تديرها نيابة عن الله ، لأن الخليفة ، خليفة الله وظله على الأرض ، ومن ثم فالحساب لله ، والمسئولية أمام الله ، ولا حق للناس فى السؤال أو الحساب ؟! (وهو ما قال به أمير المؤمنين عثمان بن عفان) .

ولما لم يستجب عثمان لمقالة أبى ذر ، لم يركن أبو ذر الى حيـاة الدعة والهدوء ، ولم يعتزل الناس منطويا على نفسه ، بل اخذ يطوف فى الأمصار ، ويلتقى بالقبائل والعشائر ويستنهض همم الثوار ليحولوا بين الدولة العربية والطريق الذى يقودها اليه الأمويون .

ولقد سلك الأمويون (ومن خلفهم قوى المجتمع الاقطاعى) كل سبيل لاثناء أبى ذر الغفارى عن مواصلة السير فى هذا الطريق ، طريق الثورة على الأسس الاقطاعية التى ترسى للمجتمع الجديد ، فحاول معـاوية بن أبى سفيان ، أثناء ولايته على الشام ، اغراءه بالمال والدعة والهدوء ، ولما لم يفلح فى هذا ، حاول تهـديده واثارة مخاوفه واشفاقه من عاقبـة ما يذيع من أحاديث ويحدث من اثارة ، ويقوم به من نشاط . وعندما اخفق فى الحصول على نتائج ايجابية لما بذل من تهديد ووعيد ، كتب الى عثمان بن عفان يستنجد به لوقف نشاط أبى ذر ، ويبصره بالمخاطر والقلاقل التى بدأت تأخذ طريقها الى الذيوع والانتشار .

وعندما استدعى عثمان أبا ذر ، وتحدث اليه ، متهما اياه باثارة الفتنة والقلاقل وبذر بذور الشقاق ، انقلبت صورة المقابلة واللقاء ، وتحول ابو ذر من موقف الدفاع الى مركز الهجوم ، واخذ يعنف عثمان ابن عفان أمير المؤمنين ، ويبصره بالانحرافات التى يقود الأمويون المجتمع اليها ، والردة عن سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام التى يسير فيها جهاز الدولة ورجالاتها فى ذلك الحين .

وعندما أرهق أبو ذر أعصاب الخليفة ، لم يجد عثمان حماية لنظامه الا ان ينفى أبا ذر الى « الربذة » ، ويحرم عليه مغادرتها أو الالتقاء فيها بأحد من المريدين او الثائرين مدى الحياة .. وأكره أبو ذر على التنفيذ (بل لقد حرم عثمان على الصحابة الخروج لوداع أبى ذر وهو ذاهب الى منفاه .. ولما لم ينفذ الامام على بن أبى طالب هذا الأمر ، عاتبه عثمان ، فعنفه على على هذا الموقف غير المألوف) .

ولكن تلك التعاليم التى أطلقتها التجربة العربية الاسلامية ، والتى طاف ابو ذر البلاد والأحياء ينفض عنها الغبار ، ويذيعها بين الناس ، لم تسجن معه فى « الربذة » ، ولم تنفذ أوامر تحديد الاقامة والاعتقال .

ولقد ظلت كلمات أبى ذر تشعل لهيب الثورة فى قوائم المجتمع الاقطاعى التى يقيم صرحها الأمويون ، وترن فى آذان الناس كلماته الخالدة : « اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر : خذنى معك » !! .. واستنهاضه هم الفقراء والثوار عندما يخاطبهم ويدعوهم للثورة المسلحة ضد ظالميهم ، فيقول : « عجبت لرجل لا يجد فى بيته قوت يومه ، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه ؟؟ !! » . وقوله لمعاوية بن أبى سفيان يعنفه : « يامعاوية ، لقد أغنيت الغنى ، وأفقرت الفقير » .. فاذا قال له معاوية مهددا : « خير لك أن تنتهى عما أنت فيه » .. يجيبه : « **والله لا أنتهى حتى توزع الأموال على الناس كافة** » .

ان هذه الأفكار لم تعتقل مع أبى ذر ، ولم تدفن فى التراب معه عندما مات ، وهى وان كانت قد بدأت صيحات فى واد ، فلقد تجمعت عواصف أخذت تزلزل الأركان ، وكادت أن تقتلع الأوتاد !! .

فالجماهير الثائرة ، تزحف على المدينة من كل مكان ، من مصر والشام ، ومن اليمن والعراق ، ويحتل الثوار ودعاة «الفتنة» عاصمة الدولة ، ويحيطون ببيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ويطالبونه بالتنازل عن الخلافة ، وعندما يرفض عثمان ذلك قائلا لهم : « لا أخلع قميصا ألبسنيه الله » ، تسوروا عليه البيت ، وقتلوه ، فاستشهد وهو يرتل القرآن الكريم(١) .

واختار الثوار على بن أبى طالب كرم الله وجهه خليفة وأميرا للمؤمنين وارتضى على أن ترفعه الى قمة السلطة تلك الأيدى التى استشهد بها

---

(١) يذكر المسعودى فى « مروج الذهب » جـ ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ أن ثروة أمير المؤمنين عثمان بن عفان قدرت عند استشهاده بمبلغ : ١٥٠ر٠٠٠ دينار ، وألف ألف درهم وجدت عند خازنه . وكذلك ١٠٠ر٠٠٠ دينار هى قيمة ضياعه « بوادى القرى وحنين » وغيرهما « د. ضياء الدين الريس . الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية . ص١٧٧ »

الخليفة السابق عثمان .. لأنهما كانا مدرستين مختلفتين ، وعقليتين متباينتين ، وصنفين متمايزين من الناس(١) .

ويكفى للرد على الذين ينفون عن على شبهة حماية قتلة عثمان ، واستناد حكمه على قوة الثوار الذين أوردوا الخليفة الثالث حتفه ، وانتهوا به الى هذا المصير ، يكفى للرد على هؤلاء أن نضع بين أيديهم حقيقتين من بين عديد من الحقائق تؤكد هذا الذى نقول :

الأولى : ان علياً قد اختير للخلافة وبويع بها بالمدينة ، بعد مقتل عثمان ، وهى يومئذ محتلة من قبـــل الثوار ، وتحت سيطرة الذين قتلوه .

والثانية : انه عندما ارسل معاوية بن أبى سفيان ، أمير الشام يومئذ عندما ارسل رسوله الى على يطلب منه تسليم قتلة عثمان ، وعنـدما تلى خطاب معاوية هذا بمسجد المدينة ، صاح انصار على من كل جانب من جنبات المسجد مستنكرين هذا المطلب ، ومستنكرين حق ابن أبى سفيان فى مثل هذا الحديث ، وصاحوا فى حضرة على ، وهو على المنبر ، تلك الصيحة المشهورة : « كلنا قتل عثمان » . ولم يتخذ على يومها ، ولا بعد يومها ، أى اجراء ضد أحد من هؤلاء .

ولم يكن عبثا ذلك الاختيار الذى حدث من الثوار لعلى بن ابى طالب بالذات ، فهو هاشمى ، من الفرع القرشى الذى ناضل ضد الارستقراطية المكية التى كان يمثلها الأمويون . وهو الذى أراده الثوار المســلمون الفقراء خليفة وحاكما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل وامتنعوا فى البداية ، بقيادة ابى ذر الغفارى ، عن مبايعة ابى بكر ، يوم قال أبو ذر : « لأجمعن : المقداد ، وسلمان ، وعبادة بن الصامت ، وابا الهيثم ، وحذيفة ، وعمار ، لنرى لنا رايا » ، وجميـــع هؤلاء من الثوار الفقراء ، ومنهم من كانوا يسكنون مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام لأنهم لايجدون لهم سكنا يعيشون فيه .

وعلى بن أبى طالب ، أيضا ، صاحب قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تجعله متحمسا لمواصلة طريق التجربة التى بدأ الرسول تنفيـذها .

وهو ملتصق بمجموعة من الصـــحابة السابقين الى الاســلام ، والحريصين على عدم تسليم مقاليد الدولة للذين دخلوا الاسلام مؤخـرا

---

(١) وكانت الثروة التى خلفها الامام على عند استشهاده لا تتعدى مبلغ ٢٠٠ درهم « المرجع السابق ص ١٧٦ نقلا عن « العقد الفريد » لابن عبد ربه . جـ٣ . ص١٢٤ » .

ومن كانوا ضمن « المؤلفة قلوبهم » ، ومن ناضلوا ضد الاسلام وقتا غير قصير (*).

وهو وان كان يملك ضيعة واقطاعا فى « ينبع » ، الا أنه كان دائم الاعتراض والانتقاد لعثمان بن عفان والحكام والعمال والولاة الأمويين .

فهل كان الثوار موفقين فى هذا الاختيار ؟ ؟ وهل كان باستطاعة الامام على بن أبى طالب أن يكون « رجل الساعة » ـ حسب تعبيرنا الحديث ـ ؟ ؟ وان يعيد الجماعة العربية الى الطريق الذى بدأت السير فيه ، ويصرفها عن الطريق الذى يريده الأمويون ؟ ..

هل كان الثوار ودعاة «الفتنة» الذين قتلوا عثمان رضى الله عنه عباقرة فى اختيار الامام على لقيادة السفينة فى هذه الظروف ؟؟

اننا نستطيع أن نؤكد أن الامام على ، لم يكن داعية من دعاة النظم الاقطاعية ، ولا أحد المناضلين فى سبيل سيادة هذه النظم فى الامبراطورية العربية التى أصبح عليها خليفة ولها اماما .

ففى الوقت الذى كانت القيم الاقطاعية تقف فيه من الرقيق والموالى الموقف الذى أشرنا اليه فى الباب السابق ، نجد جيش ابن أبى طالب قد ضم فى صفوفه ستة عشر ألفا من الموالى والرقيق .

وفى الوقت الذى كانت اهتمامات الدولة الاقطاعية منصرفة فيه الى اقامة المشاريع لاحياء الأرض الموات ، واستصلاحها لحساب كبار الملاك والاقطاعيين ، وذلك الموقف الذى تقفه من «العمل» ، والنظرة التى كانت تنظرها الى «الجهد المبذول» ، وهذا السهر على تنمية الثروة الاقطاعية ، واقامة علاقات انتاجية تقف موقف العداء من «العمل» ، وتعطى الثمار لطبقة كبار الملاك .. هذان الموقفان لم يكن يقف الى جوارهما ، ولا يعبر عنهما على بن أبى طالب ، وهذا خطاب أرسله الى عامله «قرظة بن كعب» يقول فيه :

« أما بعد .. فان قوما من أهل عملك أتونى ، فذكروا أن لهم نهرا قد عفى ودرس ، وأنهم ان حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقووا على كل خراجهم ، وزاد فىء المسلمين قبلهم .. وسألونى الكتابة اليك لتأخذهم بعمله ، وتجمعهم لحفره والانفاق عليه ، ولست أرى أن أجبر أحدا على عمل يكرهه ، فادعهم اليك ، فان كان الأمر فى النهر على ماوصفوا ، فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل ، **والنهر عن عمل دون من كرهه** ، ولأن يعملوا ويقووا أحب الى من أن يضعفوا . والسلام » .

فالسلطة هنا ليست سلطة الدولة الاقطاعية الساعية الى استصلاح الأراضى ، واصلاح الأنهار ، والحكم بأن « النهر لمن عمل » ،

كل ذلك دليل قاطع على أن الموقف الذى وقفه على بن أبى طالب لم يكن على أرضية الاقطاع .

غير اننا لانستطيع ان نقول بتوفيق الثوار الذين قتلوا عثمان وثاروا ضد نظام حكم بنى أمية وعشيرة الخليفة الشهيد ، فى اختيار على ليحل محل عثمان ، فتطور الأحداث التى جرت بين على ومعاوية وسير الوقائع الحربية وغير الحربية التى شهدتها الدولة العربية بين قوات الطرفين وجيوشهما ، قد أكدت ان علياً لم يكن هو «رجل الساعة» القادر على أن يقتلع الجذور التى غرست للنظام الاقطاعى فى التربة العربية ، ولا هو الذى **ينحاز كلية** الى معسكر الفقراء ، ويسقط من حسابه علية القوم والأشراف ، هؤلاء الذين وضع على ثقته فيهم ، فوضعوا سيوفهم فى خدمته على حين كانت قلوبهم تهفو لنصرة بنى أمية .. ثم استبدلوا السيوف بالقلوب ، جعلوها لعلى ، بينما وضعوا السيوف فى خدمة الأمويين ! ! لأن مصالحهم فى كل الحالات كانت مع الأمويين .

على أن هذه القوة ، وذلك الاتجاه المعادى للسلطة الاقطاعية فى الدولة العربية والذى بدأ بالتيار الهاشمى الذى قاده على بن ابى طالب ، وان كان قد بدأ متواضعا ، ودون مستوى الموقف والأحداث ، وان لم يكتب له النصر ، الا ان تطور الاحداث قد اثمر منه تلك الحركة التى عرفها الأدب السياسى العربى بحركة « الشيعة » ، والتى اخذت فى التبلور والوضوح ، وعندما صلب عودها ، حققت الكثير من النجاحات.

فبعد مقتل على بن ابى طالب (سنة ٤١ هـ) سنة ٦٦١ م ، وعندما ذهب وفد من أشراف الكوفة الى « الحسين » يتقدمهم « ابن صرد » ، وعرضوا عليه ما خلفهم من قوة ونفوذ ، وطلبوا منه الخروج على راسهم للثورة على الأمويين ، عند ذلك أصبح لهذا الاتجاه الهاشمى حزبه السياسى المنظم ، وشيعته التى تناضل لايصال آل البيت الى السلطة بدلا من الأمويين .

ورغم أن هذا الحزب قد ضم جماهير غفيرة من الموالى والعبيد ، ورغم رفع هذا الحزب لمنزلة هذه الفئات غير العربية الأصل ، حتى أن سادة الكوفة عندما ثاروا ضد « المختار الثقفى » (وهو من أبرز ثوار الشيعة وقادتهم) ، وغادروا الكوفة الى البصرة للقاء مصعب بن الزبير ، حدثوه حديث الساخطين على « المختار » الناقمين عليه ، قائلين عنه : « وأطمع موالينا فينا ، واخذ عبيدنا فحارب بهم » . وان « شبث بن ربعى » ، أحد سادة العرب ، احتج يوما على « المختار » ، قائلا له : « عمدت

الى موالينا ، وهى فيء افاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعا رقابهم .. فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا .. » ..

رغم هذا الموقف الذى وقفته الحركة الشيعية من الموالى والرقيق ، الا انها قد بدات حزبا « عربيا » ،واستمرت كحزب « عربى » ، ولم تكن فى يوم من الأيام حركة شعوبية للعناصر غير العربية فى مواجهة العناصر العربية التى كانت مسيطرة فى ذلك الحين .

فالمختار الثقفى ، الذى يضرب به المثل على أنه أبرز شيعى تجمعت من حوله جموع من الموالى والرقيق ، الى جوار انه من قبيلة « ثقيف » العربية الكبيرة ، فلقد وقفت معه فى ثورته التى بنى بها دولة شيعية فى المشرق العربى ، قبائل عربية كبيرة مثل « باجك » و « تميم » و « همدان » و « النخع » ، وكثير من العشائر مثل « نهد » و « خارف » و « ثور » و « شاكر » و « شبام » ، وكثير غيرهم من العرب اليمنيين .

فالخيط الذى كان ينتظم القوى التى ناضلت تحت رايات التشيع — اساسا — كان خيط الضائقة الاقتصادية ، وفقدان الغنى واليسار ، وكما يقول « جورج كيرك » فى كتابه (موجز تاريخ الشرق الأوسط) : « ان فكرة التشيع قد انتشرت بين فقراء العرب الذين لم ينالوا شيئا من غنائم النصر » .

غير أننا نخطىء اذا قلنا ان هذا الخيط كان ينتظم كل الشيعيين ، فلقد عرفت الحركة الشيعية أجنحة رجعية ، واتجاهات وقفت فى اقصى اليمين ، مثل تلك التى وقفت عند حد القناعة بما حققته السلطة الاقطاعية على يد بنى العباس .. أو تلك التى اقامت سلطة اقطاعية تحت علم شيعى تمثلت فى الدولة الفاطمية العربية .

كما حلقت الحركة الشيعية بأجنحة مغرقة فى الخيالات والخرافات والأوهام ، وبالذات حول شخصية الأمام المرتقب ، والمهدى المنتظر ، ذلك الأمام الذى تغيب فى السماء ، والذى ظل الشيعة ، أو بعضهم قرونا طويلة ، فى مكان محدد على شاطىء نهر دجلة فى انتظار عودته ساعة الغروب من كل مساء !!! ... وهو الذى يقول عنه الشاعر الشيعى « كثير عزة » :

الا ان الائمة من قريش ولاة الحق اربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس لهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلاء

وســـــبط لا تراه العين حتى يقـــود الخيل يتبعهـــا اللواء
تغيب ، لا يرى ، عنهم زمانا « برضوى » ، عنده عســـل وماء

وهو نفس الأمام الذى سخر منه أبو العلاء المعرى ، ومن تفكير الشيعة بخصوصه عندما قال فى اللزوميات :

يرتجى الناس أن يقوم امـــام ناطق فى الكتيبة الخرســـاء
كذب الظن ، لا أمـــام سوى العقل مشيرا فى صبحه والمســـاء

وهكذا كانت الحركة الشيعية احدى الحركات التى تمثل المقاومة العربيـــة ، فى أحشاء المجتمع العربى ، للسلطة الاقطاعيـــة التى تمثلت فى حكم بنى امية وبنى العباس والاتراك . وهى وان تكن قد شابتها كثير من الأفكار والقيم الرجعية واليمينة ، الا أنها قد أثرت أبلغ الأثر فى بعض الحركات التقدمية التى شهدتها الدولة العربية خلال العصر الاقطاعى الطويل ، كما انها قد فتحت آفاقا واسعة فى حقل الفكر والثقافة ، وأعطت للعقل وزنا كبيرا فى هذا الميدان .

٣-

واذا كانت الشيعة ، كحزب سياسى منظم ، معاد للسلطة الاقطاعية ، قد ظهر بعد مقتل على بن أبى طالب، واذا كان هذا الحزب بافكاره الاجتماعية والسياسية ونظرته لمسألة ((الأمامة)) ، قد كان دون متطلبات الحركة الثورية ، وامتدادا غير مؤهل ، لوراثة التجربة العربية الثورية الأولى ، بل ومسخا تشوها ، أحيانا، لهذه التجربة ، فان هناك حزبا آخر قد نشأ قبل مقتل الامام على ، وظل يعيش فى ضمير الجماعة العربية ، يناضل فى كل مكان ، وبكل الوسائل لاسقاط دولة الاقطاع ، واحلال سلطة الشعب محلها ، واعادة الحياة الى التجربة التى خنقها فى مهدها نظام الاقطاع .. وهذا الحزب هو حزب الخوارج.

واذا كانت التطورات السياسية التى شهدتها الامبراطورية العربية ، قد شهدت الخوارج كحزب سياسى مستقل ، له قادته وجيشه المسلح ، بل ودولته ونظامه السياسى والاجتماعى ، بعد موافقة على بن أبى طالب على التحكيم فى النزاع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، الا أن جذور هذا الحزب ، وبداية التحرك الثورى للعناصر الأساسية التى كونته وقادت نشاطه ، انما ترجع لتلك الأيام التى حدثت فيها الثورة«والفتنة» ضد عثمان بن عفان ، والتى انتهت بمقتله وتنصيب على بدلا منه .

لقد شارك مؤسسو حزب الخوارج فى هذه الأحداث ، وأسهموا فيها بنصيب غير قليل ، ثم ساروا وسيوفهم مشرعة خلف الامام على بن أبى طالب ، ظنا منهم انه خير ممثل لأهدافهم ومراميهم ، ولكن عليا قد ارتضى ، أو اضطر الى ارتضاء « التحكيم » ، ووافق على اسلوب

المفاوضات فى حسم النزاع مع القوى السياسية الساعية لتثبيت أقدام الاقطاع ، أو أجبر على ذلك ، على أقل تقدير . وما كان الثوار الذين سالت دماء عثمان على أيديهم ، والذين ارتضوا هذا العمل الجلل لأنهم قد نذروا انفسهم ليحولوا بين مستقبل الجماعة العربية وبين الوقوع فريسة فى يد الارستقراطية العربية التى تعمل لاعادة مجد الارستقراطية المكية القديمة ، والذين يخشون انتقام معاوية بن أبى سفيان منهم لدم عثمان ومقتله ، ما كان لهؤلاء الرجال أن يطيعوا عليا ، ولا أن يرضوا عنه، بل ولا ان يهادنوه حينما سار فى هذه الطريق ، فخرجوا عليه ، وحاربوا تهادنه ، وسلقوه هو ورجاله بالسنة حداد ، ونشروا على الملأ العربى تلك الأفكار النقية الجذابة التى سبق أن بشر بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتى تمثل روح الثورة العربية الأولى ، وروح القرآن الكريم .

فقالوا ببطلان كل ما نسب الى الرسول عليه الصلاة السلام من أحاديث تحصر ولاية أمور المسلمين فى قريش ، ورفضوا ذلك الاحتكار للسلطة الذى يريده القرشيون ، وأعلنوا تلك القيم والأفكار «الديمقراطية» عن وجوب اختيار الخليفة على أساس صلاحياته وكفاءته ، لا نسبه وعصبيته ، وعن حق كل عربى فى أن ينتخب وينتخب لهذا المنصب الخطير . لقد قدموا فى مواجهة الأفكار والشعارات الاقطاعية عن «الحق الالهى» شعارا هو أقرب الى « الجمهورية » منه الى أى نظام آخر للحكم، وذلك للمرة الأولى ، بهذا الوضوح ، فى الدولة العربية الكبرى .

كما تبنوا بحماس واخلاص تلك الأفكار والقيم التى تسوى بين الأجناس والألوان التى تعيش مستظلة براية العروبة والاسلام . فهم لم يكونوا أول حركة عربية سياسية ، فى تلك الفترة ، تسوى بين العرب والموالى والرقيق فحسب ، ولم يكن جيشهم أول جيش عربى ، فى هذه الحقبة الزمنية ، يحارب فيه الأرقاء « فرسانا » بعد أن كانوا يحاربون كخدم تابعين للجيوش ، فقط ، بل لقد كانت الحركة الخارجية من الحركات التى ابصرت دور المرأة العربية : داعية ، ومثيرة ، ومستنفرة الرجال ، بل محاربة فى ميدان القتال .

وكما تعرض الرجل الخارجي للعنت والاضطهاد والتعذيب ، وكما تحمل كل ذلك ببسالة كانت ولا تزال مضرب الأمثال ، كذلك كان شأن المرأة الخارجية ، وهذا « عبيد الله بن زياد » ، أحد رجال الدولة الأموية وطغاتها وطواغيتها ، يأتى بامرأة خارجية ، فيعذبها ، ثم يقطع يديها ورجليها ، ثم يعرضها فى السوق ؟!

والطابع « الديمقراطى » الذى صبغ كل تصرفات الحركة العربية الأولى ، نراه سمة بارزة عند هؤلاء الناس ، بل اننا نجد القبائل العربية التى انحازت منذ البداية الى الحركة الخارجية ، مثل «تميم»و«حنيفة» و « ربيعة » ، انما كانت صاحبة تاريخ فى العصر الجاهلى ، وعاشقة للحرية ، وأن الطابع الديمقراطى الذى اصطبغت به تعاليم الاسلام كان من أهم ما حبب اليها هذا الدين .

وعندما انضمت جموع غفيرة من الموالى والأرقاء الى هذه القوى العربية ، وتكونت القاعدة العريضة للحركة الخارجية ، كانت جميع هذه القوى صاحبة مصلحة أصيلة وحقيقية فى سيادة أوسع أشكال « الديمقراطية » فى هذه البلاد ، لأن هذه الحركة السياسية انما كانت تعبر أصدق تعبير عن حركة بسطاء الناس ، كما كانت التجسيد الحى لحرارة القيم الثورية التى جاء بها الاسلام .

ومن أجل ذلك كانت حرارة الكلمات التى وجهها هؤلاء الدعاة الى الناس ، والآثار التى فجرتها هذه التعاليم ، ثورات ملتهبة لا تعرف الهدوء ضد سلطة الاقطاع ، حتى ليصف عبد الله بن زياد ، الخوارج، فيقول : « لكلام هؤلاء أسرع الى القلوب من النار الى اليراع » .

على أن الذى أعطى للحركة الخارجية كل هذا الثقل فى التاريخ الثورى العربى ، وجعل لتعاليمها كل هذا اللمعان ، ولشهدائها كل هذا المجد ، لم يكن فقط ما بشروا به من تعاليم ، ولا مجرد تمثيلهم ، بحق ، الامتداد الثورى للتجربة الثورية الاسلامية ، ولا أن هذه التعاليم والقيم قد أقيمت على أساسها دولتان خارجيتان ، أحداهما أقامها الخوارج « الأزارقة » في « الأهواز » ، والثانية تلك التى أقامها فى شبهالجزيرة الخوارج « النجدات » .. لم يكن ذلك هو الذى أعطى الحركة الخارجية كل هذا الثقل والاحترام ، حتى من أعدئها السياسيين ، وانما الذى ميز الحركة الخارجية عن عديد من الحركات الثورية العربية التى شهدها المجتمع العربى ، هو ذلك الاسلوب الذى سلكه الخوارج فى نشر أفكارهم ، والسبيل التى اتبعوها لاسقاط سلطة الاقطاع .

لقد سلكوا سبيل الثورة المسلحة ، ورفضوا اخفاء نواياهم وكتمان أفكارهم ، مهما كانت قوة عدوهم ، حتى ولو فاقت قوتهم مئات المرات.

لقد قدم الخوارج فى المعارك التى خاضوها مستوى من الشجاعة والاستبسال لم تشهده ساحات القتال من حركة سياسة أخرى ،ودرجة من الاقدام والتفانى جعلت بعض أوصافهم « الشراة » أى الذين اشتروا

الجنة بالاستشهاد ، و « سباع العرب » ، وجعلتهم موضع احترام وتقدير ، حتى من الأعداء .

فالزعيم الخارجي « الوليد بن طريف » ، ينشد فى المعركة عندما ثار ضد الأمويين بأرض الجزيرة ، فيقول :

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

بينما « خطرى بن الفجاءة » أحد قادة الخوارج المبرزين فى عهد عبد الملك بن مروان ، يخلف لنا شعرا من أروع الشعر الذى يمثل نفس المناضل الباسل عندما يلتقى بأعدائه فى ميدان القتال ، فيقول مخاطبا نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ، ويحك لا تراعى
فانك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
وما للمرء خير فى حياة اذا ما عد من سقط المتاع

و « أبو بلال مرداس بن أدية » ، أحد أبطال الخوارج الذين ترك استبسالهم واستشهادهم أعمق الأثر فى النفوس ، فعندما خطب « زيادة ابن أبيه » احد طغاة الدولة الأموية ، خطبته المشهورة التى قال فيها : « ... لآخذن البرىء بالمسىء والصحيح بالسقيم ... » تصدى له أبو بلال ، وانكر عليه ذلك المنهج فى الحكم وهذا السبيل فى السياسة والقضاء ، وذكره بآية من القرآن الكريم : (وابرهيم الذى وفى ، الاتزر وازرة وزر أخرى ، وان ليس للانسان الا ما سعى) .

وهو ــ أبو بلال ــ الذى لم تحتمل نفسه الصبر على قتل الأبطال الخوارج ، والمثلة بالنساء المجاهدات ، فخرج على الأمويين فى أربعين من رفاقه ، فقاتل جيشا قيل ان عدده قد بلغ الالفين ، وهزمه فى موقعة « آسك » حتى قال الخوارج فى ذلك شعرا :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم « بآسك » اربعونا ؟!
كذبتم ، ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا .

ولكن القواد العسكريين للدولة الأموية ، والذين عجزوا عن تحقيق الانتصار الحربى على أبى بلال ، انتهزوا فرصة مجىء وقت الصلاة وانصراف الخوارج الى اقامتها ، فقرغوا من صلاتهم على عجل ، أوهم قطعوها ولم يتموها ، وأعملوا سيوفهم غدرا وغيلة فى أبى بلال ورفاقه ، فقتلوهم وهم بين يدى الله سبحانه وتعالى .

ولعل هذه الصورة المقدسة التى مات عليها أبو بلال مرداس بن ادية الى جانب شجاعته فى الحق ، واستبساله فى التضال من أجل أهدافه ومبادئه ، هى التى جعلت كل الفرق الاسلامية والأحزاب العربية تتنازع نسبته اليها ، فالمعتزلة يعتبرونه من أوائلهم ، والشيعة يقولون انه كان منهم ، والكل يخلع عليه صفات الأبطال والشهداء ٠

ولـكن .. اذا كانت هذه هى ملامح الحركة الخارجية ، حزب العدالة و «الجمهورية» والمساواة بين الأجناس ، حزب البسالة والاستشهاد فى سبيل مايعتقده الانسان ، وأصدق المعبرين عن ثورية التجربة الاسلامية الأولى وبساطتها ، فلماذا شوهت كل هذا التشويه فيما كتبـــه معظم مؤرخى التاريخ العربى القديم وباحثيه ؟؟

اننا نعتقد أن الذى دعا الـكثير من المؤرخين الى هـــذا الموقف غير العلمى ، وغير الموضوعى ، والعارى عن الانصاف ، انما هى عوامل عدة :

أولها : ان تاريخ الخوارج انما كتب ودون ــ قـــديما ــ من قبل مؤرخى الدولة الاقطاعية التى كانت تناصبهم أشد العداء ، ولم تتـح ظروف الحرب المستمرة التى خاضتها الحركة الخارجية ، لم تتح لهم فرصة وضع تاريخ لحركتهم وفرقهم ، ولا تدوين نظرية شبه متـكاملة لمـا يسعون لتحقيقه من أهداف . لقد حالت دون ذلك ظروف الحرب والقتال والمطاردة ، وأيضا تلك الحياة شبه البدائية التى كان يحياها الخوارج ، لأنهم ــ كما قلنا ــ كانوا الامتداد للتجربة الاسلامية الأولى فى بساطتها ، وعدم دخولها فيما عرفته المدنية الحديثة من علوم ومعارف وتصانيف ، وتعقيدات .

بل ان الشعر الخارجى الذى صور حياة هؤلاء القوم أصدق تصوير وأروعه ، لم يدون منه الا أقله ، أو لعله قد دون ولـكنه لم يصل الينا منه الا القليل .

وثانيها : ان الشدة التى قوبلت بها حركة الخوارج من قبل الدولة وتلك الابادة الجماعية التى مورست ضدهم ، سواء من الامام على بن ابى طالب ، أو بنى أمية ، أو العباسيين ، قد دفعت الخوارج الى مسالك وعرة ، وطرق غير مطروقة من ردود الأفعال وعمليات الانتقام .. وايضا الى بعض الجرائم والأخطاء ، وخصوصا بعد أن تفرق المذهب الخارجى وظهرت فيه العديد من الاتجاهات والمذاهب ، واصبح لأصحابه أكثر من دولة واحدة ، وتوزعتهم الأرض العربية من « الأهواز » الى شبه الجزيرة الى أرض الشمال الأفريقى وجبال الجزائر حيث القبائل العربية الحرة وأبطال «البربر» المسلمين المستعربين .

ولقد تلقف مؤرخو الدولة الاقطاعية هذه الأخطاء ، فنفخوا فيها ، وجعلوها السمة العامة والأساسية والوحيدة لحياة الأبطال الخارجين وحركتهم .

وثالثها : ان صفوف الخوارج ، كحركة ثورية ، لم تكن صافية ولا نقية باستمرار ، وفى مجتمع اقطاعى يمارس أنواعا عديدة من الكبت والعنت والارهاق ، سنجد الخارجين والثائرين على هذا المجتمع تتعدد بهم الأهداف والهويات ، كما سنجد بينهم أيضا الكثير من المغامرين والأفاقين .

فهاهو ذا «الخريت بن راشد السامى» يتحدث عن نفسه كأحد قادة الخوارج ، ويناظر الامام على بن ابى طالب ويحاجيه يوما فيقول لعلى : « والله لا أطعت أمرك ، ولا صليت خلفك » . فيقول له على : « ثكلتك أمك ، اذن تعصى ربك ، وتنكث عهدك ، ولا تغرن الا نفسك ، ولم تفعل ذلك ؟ ؟ » فيقول الخريت : « لأنك حكمت فى الكتاب ، وضعفت عن الحق حين جد الجد ، وركنت الى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، فأنا عليك زار ، وعليهم ناقم » .

وليس ذلك فحسب ، بل يخرج الخريت هذا على راس جيش ليحارب دولة الاقطاع تحت العلم الخارجى ، افبعد ذلك شك فى نوايا مؤرخ يحسب على الخوارج كل ما يقترفه الخريت هذا وجيشه وأمثالهم من جرائم وآثام ؟ ؟

ولكن صورة الخريت هذه لم تكن الا وجها واحدا من وجهى العملة فلقد كان فى لقاءاته مع الذين يبكون مقتل عثمان بن عفان ويطلبون الثأر له والقصاص من قاتليه ، يوهمهم بأنه معهم ، وأنه «عثمانى» وأنه يسير واياهم فى ذات الاتجاه .

ثم تأتى الحقيقة .. فاذا الخريت لا هذا ولا ذاك ، مغامر جمع حوله جيشا معظمه من المغامرين وقطاع الطرق ونهابى اموال الناس ، بل لقد اتضح ان بجيشه العديد من المرتدين عن دينهم ، والخارجين على القانون .. كل قانون ؟ !

فهل نفزع بعد ذلك اذا وجدنا فى كتب التاريخ كثيرا من الزيف والنقائص التى الصقت ، عمدا ، أو بحسن نية ، بهؤلاء الثوار ؟ !

بل ان هذه الصورة التى تبدو للخوارج حتى فى كتب الذين ينصفونهم ، والتى تصورهم بشجاعتهم ، ورفضهم «التقية» والقعود من الجهاد ، فى صورة أقرب الى النزق والتعصب الأعمى ، وعدم القدرة

والرغبة فى التفكير السياسى الهادىء المنظم ، ان هذه الصورة ليست أيضـــا مما يثبت للضوء الذى تسلطه حقائق حيـــاة هؤلاء الناس .. «فالتحالف» و «الجبهة» ، وهما من أعقد المسائل التى تثبت المرونة وتحتاج الى المراس السياسى الطويل ، هذا اللون من الوان العمـــل النضالى لم يكن غريبا عن الحزب الخارجى .. فعندما تهددت جيوش الدولة الأموية مـكة الثائرة بقيادة الأرستقراطى القرشى عبد الله بن الزبير ، تحالف الخوارج الأزارقة مع ابن الزبير ، لحماية مكة والدفاع عنها ، حلفا مؤقتا ومرهونا بهذا الظرف الطارىء ، دون أن يكون بينهما من نقاط الاتفاق سوى العداء للأمويين ، والرغبة فى حماية مـكة من العدوان .. وخطب «نافع بن الأزرق» فى حزبه قائلا : « ان الله قد أنزل عليـكم الـكتاب ، وفرض عليـكم الجهاد ، واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد أهل الظلم فيكم السيوف ، فاخرجوا بنا الى هذا الذى ثار بمكة ، فان كان على رأينا جاهدنا معه ، وان لم يكن ، دافعنـــا عن «البيت» ، ثم نظرنا بعد ذلك فى أمورنا » ..

هكذا كان الخوارج .. وهكذا كان الدور البطولى ، وحركة المقاومة الثورية التى قادوها طوال قرون عدة ضد دولة الاقطاع وسلطانها .

واذا ما استعرضت الحركات الثورية العربية أمجادها ، وما خلفت من معارك ، وما جيشت من جيوش ، وما أقامت من دول ، وما قدمت من ضحايا ، فان الحركة الخارجية ، ولا شك ، ستقف فى مقـدمة هذه الحركات .

٤ - وعلى ذكر الحركات الثورية التى قادت نضالا مسلحا ، فضلا عن النضال الفكرى ، ضد دولة الاقطاع وقيمه وسلطانه ، نجد من الضرورى أن نتحدث عن ثورة قامت فى أرض العراق ، وطبعت آثارها على النظام المتداعى للدولة الاقطاعية العباسية ، وخلفت ذكرى فى التراث العربى ، والأدب السياسى للحركات الثورية العربية ، وان تكن حتى اليوم لم تأخذ مكانها كموضوع لا غنى عنه لأعمال فنية كبرى ، ومادة حية ودسمة لانتاج فكرى متقدم ، يقدم لجماهيرنا العربية صفحات مشرقة من التراث والماضى المجيد ·· تلك هى « ثورة الزنج » بقيادة بطلها الباسل « على بن محمد » ··

لقد كانت الجماهير الزنجية ، ومعها جماهير الفقراء من غير السود ، يرهقها العمل المضنى لدى السادة وكبار الملاك والاقطاعيين ، كانوا يعملون فى الخدمة فى المنازل والمتاجر ، وتجفيف المستنقعات حيث الميكروبات والأمراض تفتك بهم ، دون أن يكون هناك طب أو علاج ، وفى ازالة الأملاح التى تعلو الأرض لقربها من مياه الخليج العربى ، فتصبح صالحة لادرار المال للأغنياء ، وفى استخراج العصير من التمر وتخميره وتعتيقه مشروبا للحانات والخانات ومجالس الشعر والغناء والسمر فى قصور الموسرين ، كما يعملون فى استصلاح الأراضى البكر لتتسع رقعة الاقطاعيات التى يملكها الأمراء والأغنياء ·

تلك كانت الحياة التى يحياها آلاف ، بل ملايين من الزنوج ، وغيرهم من الكادحين · وفى قرية « ورزنين » قرب « طهران » ، ولد الرجل الذى قدر له أن يقود ثورة هؤلاء الناس البسطاء المستضعفين يوما من الأيام · وفى مدينة « سامرا » التى كانت تشهد سنة ٢٢١ هـ

(سنة ٨٣٤ م) قمة التفسخ الذى يحياه السادة ، ونموذجا كاملا للتحلل الذى وصلت اليه الحيـــاة الداخلية لـكبار القادة والأغنياء ، وسيطرة الأتراك وعبثهم بمقدرات الأمور · فى هذه المدينة ، وفى ذلك التاريخ ، عاش « على بن محمد » ، واتصل بحاشية الخليفة أمير المؤمنين ، ومن ثم أصبحت لديه صـورة متكاملة لما يعانيه الحـكم الاقطاعى من أزمة ، الى جانب ما لديه من صورة عن البؤس والشقاء الذى يحيا فيه الكادحون من الزنوج والفقراء ·

كما كان اشتغال على بن محمد بتعليم الأطفـــال ، مجالا جديدا ليطلع على الكثير من دخائل هذا المجتمع ، فيدخل الكثير من البيوت ، ويسمع الكثير من القصص ، ويرى الكثير من النماذج التى تساعـد على اكتمال الرؤية الثورية ووضوحها لدى كل من يتصدى لقيادة عملية من عمليات النضال ·

وفى سنة ٢٤٩ هـ (٨٧٣ م) بدأ أولى جولاته ضد السلطة الاقطاعية العباسية ، فاستولى على الحكم فى امارة « البحرين » ، ولـــكن الجيش العباسى عاد فدخل الأمارة وطرد على بن محمد ورفاقه الى قلب الصحراء، ولكنه عاد من جديد للاستيلاء على مقاليد الأمور هناك ، وعادت المعـارك بينه وبين الجيش العباسى من جديد ·

على ان الثورة الحقيقية التى قادها على بن محمد ، والتى كانت الجماهير الزنجية تمثل أغلبية جيشها وأصحاب المصلحة فى اشـــعال نارها ، انما بدأت انتفاضـاتها الثورية ضد ملاك العبيد وســـادة الزنج ومستغليهم ومصاصى دمائهم ودماء غيرهم من الفقراء ، ثم تطورت هذه الانتفاضات الى ثورة شعبية مسلحة عارمة ضد الدولة التى تحمى كل أنواع الاستغلال التى يئن منها هؤلاء الثوار ·

ولقد أعطى انضمام جماهير الفلاحين الفقراء ، بقرب «البصرة» وفى ريف العراق ، الى الثورة ، أعطاها ذلك صفة الشعبية التقـــدمية ، وجعلها تأخذ صورة الحرب الطبقية ، لا مجرد ثورة زنجية تحمل ظلال حرب عنصرية بين السود وغير السود[1] .

كما أن انضمام الفرقة السودانية فى الجيش العبـــاسى ، بمعداتها وأسلحتها ، الى الجيش الثائر فى احدى المعارك ، قد جعل الســـلطة العباسية تحسب ألف حساب لـما ينتظرها من مصير على يد هؤلاء الثوار ،

(١) « يقول « ابن طباطبا » عن هذه الثورة وقائدها : « واستمال قلوب العبيـــد من الزنج بالبصرة ونواحيها ، فاجتمع اليه منهم خلق كثير ، وناس آخرون من غيرهم ، وعظم شأنه وقويت شوكته » ··

ذلك المصير الذى ظل شبحه يتهدد هذه الدولة قرابة الخمســة عشر عاما ٢٥٥ ــ ٢٧٠ هـ (٨٦٨ ــ ٨٨٣ م) ، والذى تراءى أمام العباسيين دولة يحكمها الفقراء ، وترتفع أعلامها على أقاليم كثيرة مثل : الأبلة ، وعبادان ، والأهواز ، والبصرة ، وواسط ، والنعامة ، ورامهرمز ، والتى اخذت تطرق أبواب بغداد .

ومن «المختارة» عاصمة الدولة الثورية ، كان على بن محمد يقود ويوجه ويربى فى الناس قيما جديدة ، تستلهم كل ما فى التجربة العربية الاسلامية الأولى من قيم ثورية وأفكار اجتماعية متقدمة ، ويحارب كل مانشره النظام الاقطاعى على الأرض العربية من قيم غريبة ، وأفكار بعيدة عن جوهر الاسلام .

و «صاحب الزنج» هذا ، كما يسميه المؤرخون ، هو الذى قال عنه «المسعودى» : « انه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج » .. كما أنه هو القائل عن نفسه وثورته وأفكاره :

وانــا لتصبح أســيافنا اذا ما انتضين ليوم سفوك
منــا برهن بطون الأكف واغمادهن رؤوس المــلوك ! !

وهذه الصلة التى تحدث عنهــا «المسعودى» بين ثورة الزنج وبين افكار الخوارج الأزارقة ومبادئهم ، تجعلنا نعود فنذكر بالموقف الذى اتخذه التاريخ الرسمى للدولة العربية الاقطاعية من الحركة الخارجية ، لأنه هو نفس الموقف الذى اتخذه هذا التــاريخ وهؤلاء المؤرخون من «صاحب الزنج» وثورته التى هزت يوما ما اعمدة دولة الاقطاع واركانها.

وكم هو هام ومرتقب ذلك اليوم الذى ترى فيه الجماهير العربيــة «على بن محمد» وثورته يقدمان اليها ، كما قدم المفــكرون والأدباء والفنانون التقدميون فى الغرب الى الانسانية كلها «سبارتاكوس» وثورة العبيد .. حتى تؤكد للتاريخ وللعالم وللحضارات ، أن لدينا من الكنوز ماهو متنوع ومجيد ، حتى ليكاد بريقها ولمعانها يذهب بالعقول والأبصار.

٥ - وحركة ثورية رابعـــة شهدها المجتمع العــربى الاقطاعى ، وكالت لأفكاره وحكامه العديد من الضربات واستخدمت فى صراعها أسلحة الفكر والسياسة ، والتنظيم السرى ، وجهاز الدولة ، والســلاح ... تلك هى الحركة المعروفة بحركة «القرامطة» ..

ونحن اذا كنا قد أشرنا مرارا ، بصدد حديثنا عن هذه الحركات الثورية الى أنها جميعا ، وان تكن بدرجات متفاوتة ، **انها تعكس مصالح قوى اجتماعية لا تنسجم مصالحها مع النظام الاقطــاعى ، وتدفع فى جسم الحياة العربية بتيارات فكرية معاكسة لمـا ينفثه النظام الاقطاعى من أفكار وآراء** . اذا كنا قد حرصنا على تأكيد هذه الحقيقة ، فان الحركة «القرمطية» دليل جيد البرهنة على صدق هذا التحليل .

فالقرامطة فرع من فروع الحركة الشيعية ، « جناح يسارى » فى هذهالحركة الفكرية الـكبيرة التى ضمت بين جناحيهــــا العديد من الاتجاهات .

أما القوى الاجتماعية التى كان يمثلها القرامطة ، أساســـا ، فهى جماهير الحرفيين واصحاب الورش والصناعات ، ولقد كانت «نقاباتهم» و «روابطهم» مجالا تنظيميا ودعائيا وسياسيا هاما لنشاط القرامطة فى مختلف انحاء البلاد .

ومن الأمور التى تلقى المزيد من الاضواء على هذه الحقيقــة ، ان النطـــاق الجغرافى الذى أفرخت فيـــه هذه الحركة الثورية أفـــكارها ، وأقامت فيه دولها ، وأشعلت فيه ثوراتها ، كان هو النطاق الجغرافى **المتمثل فى منطقة الخليج العربى والجنوب ، وهى منطقة قد أهلتهـــا**

صلاتها بالعالم الخارجي في آسيا وارتباطها بالتجارة منذ القـــدم لأن تنمو فيها الصناعات الحرفية والقيم المرتبطة بها وبالقائمين عليهـــا ، وبسبب ذلك كانت «جزية» أهل «نجران» زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ...ر٢ حلة «ثوب» ، لأنهم صناع حرفيون(١) كمـــا كانت جزية القبائل اليهودية الثلاث التي سكنت « مقنا » هي ربع عروكهم «خشب يصطاد عليه» وغزولهم وثمارهم ، لأن الأعمال الحرفية كانت الأســـاس في بنائهم الاقتصادي(٢) .

ونحن نعلم أن نقابات الحرف ، وجماهير الحرفيين ، انمـــا كانت تزدهر وتبلغ أوج مجدها في الانتشار والتنظيم والنفوذ في ظل سلطة الاقطاع ودولته ، وان التطور الرأسمالي والمجتمع البورجوازي ، انمـــا يسدد لهذه «النقابات» الضربات الساحقة ، ويحطمهـــا ضمن مايحطم من أشكال انتاج المجتمع القديم ، ولـــكن ... رغم ذلك الارتباط ، فان الحـــرفيين وأصحاب الصناعات ، قد كانوا أكثر استنارة من الأمراء الاقطاعيين ، ولقد كانت مصالحهم اكثر ارتباطا بتقدم المجتمع وتطوره ، ومن ثم فان الحركة القرمطية التي كانت التعبـــير الثوري العربي عن مصـــالح أصحاب الحرف وأرباب الصناعات ، انما كانت تمثل قوى ثورية في المجتمع الاقطاعي ، والحرب الفكرية والسياسية والعسكرية التي خاضتها ضد الدولة العباسية الاقطاعية انما جاءت تعبيرا عن ذلك التناقض الحاد بين هاتين القوتين الاجتماعيتين .

والحركة القرمطية ، لم تترك لنا آثارا فكرية واضحة المعـــالم ، مباشرة الدلالة ، نهتدي منها الى نظرتها الثورية ، ونظريتها الفلسفية ، وأسلوبها في تطبيق العدل بين الناس ، الا أن النموذج الذي أقامته في شكل دولة للقرامطة ، كان تجسيدا لـــا لديهم من آراء وأفكار .

فحول عاصمتهم «هجر» أقام القرامطة دولتهم على شاطىء الخليج العربي وبلاد اليمن ، وأخذوا منها يطرقون أبواب بغداد ، بل واقتحموا مكة في يوم من الأيام .. وفي هذه الدولة طبقوا ما نادوا به من أفكار ، فالأرض الزراعية قد انتزعت من كبار الملاك الاقطاعيين ، ووزعت على الفلاحين بالمجان ، ودون أن يدفعوا عنهـــا أية تعويضات . واعلن في الدولة ذلك المبدأ الذي يناضل اليوم تحت دعاة الاشـــتراكية العلمية

---

(١) د. ضياء الدين الريس « الخـــراج والنظم المالية للدولة الاسلامية » ص ٣٢٨ « نقلا عن فتوح البلدان للبلاذري . ص ٧٠ ــ ٧٤ » .

(٢) المرجع السابق . ص١٠٠ .

وهو تقديس العمل ، واعتباره القيمة الأساسية والوحيدة فى المجتمع ، وقضى فى الدولة القرمطية على البطـــالة ، بل وعلى التبطل ، وطبق مبدأ : « من يعمل يأكل ، ومن لايعمل لايأكل » . وتنافس فى ميدان العمل والانتاج كل المواطنين ، سواء أكانوا من الرجال أم من النساء .

وحررت المرأة بالمساواة بين الجنسين فى العمل وفىالأجر المتساوى عن العمل المتساوى ، وأصبح للمرأة الحق فى حرية الرفض والاختيار فى موضوع الزواج[1] .

وحكمت المدن والقرى عن طريق مجالس مختارة ومنتخبة باقتراع عام من جماهير السـكان .

بل لقد تعدت هذه المواقف والمعاملات ، العلاقة القائمة بين قادة هذه الدولة القرمطية ومن يسكنها من رعية ومواطنيـــين ، فالأسرى ، من الرجال والنساء ، الذين كانوا يقعون فى الأسر بعد المواقع والمعارك التى كانت تدور بين الجيش القرمطى وجيوش العباسيين ، هؤلاء الأسرى كان يعاملهم القرامطة معاملة انسانية غريبة عن روح عصرهم ، ويكفى أن نعلم أن بغداد عاصمة الخلافة العباسية قد صحت يوما من نومها على اخبار أراد لها قصر الخلافة أن تشيع فى الناس الفرح والابتهاج ، وهى القبض على أحد قادة القرامطة ، ودعوة الناس لشـــهود اعدامه فى احدى الساحات ، وبدلا من أن تبتهج قلوب سكان بغداد ، ســـمعت أصوات البكاء والنحيب فى بيوت كثيرة ، وناحت وولولت الـكثيرات من السيدات لاعدام انسان أكرمهن وهن أسيرات فى يد القرامطـــة ، واحسن استقبالهن ، ثم أوصلهن الى ذويهن فى اكرام وأمن وسلام .

لقد كانت معاملة القرامطة ، جيشا غير منظور يغزو أحيـاء بغداد وقلوب أهلها ، حتى فى ظل تلك الظلال التى احدثتها المشانق المنتصبة لهم فى الساحات(٢) .

---

(١) عارف تامر « القرامطة » ص ٦١ ــ ٧٢ .

(٢) وان كان ذلك لا ينفى وجود صفحات غير مشرقة فى تاريخ الحـــركة القرمطية ، مثلها فى ذلك كمثل عديد من الحركات الثورية التى عرفها ذلك الحين « المرجع الســـابق ص ٦٦ »

٦ - عندما أخذت موجات الفكر الاقطاعى وسحبه تخيم في سماء الدولة العربية ، وتضع القيود والأغلال على ضمائر المفكرين ، وتسلب العقل العربى تلك المكتسبات التى أعطتها له التجربة الثورية ، والخاصة بحرية الفكر والارادة ، واهابتها بالانسان العربى أن يتفكر ويتدبر فى الكون والمجتمع ، فى الخلق والتطور، فى الماضى والحاضر ، وأيضا فى المستقبل . عندما جاء النظام الاقطاعى بموجته الفكرية المعاكسة ، ظهرت فى الحركة الفكرية جماعة من المفكرين الأحرار ، تدعو لحرية الرأى ، وتناضل من أجل تحرير ارادة الانسان ، وعرفت هذه الجماعة فى كتب التراث العربى الاسلامى بـ«القدرية» .

كما سجل التاريخ الثورى لحركة النضال ضد السلطة الأموية مساهمة الرجال البارزين فى الحركة «القدرية» فى الثورات التى اشتعلت ضد نظام الأمويين ، فهذا «معبد بن عبد الله الجهنى» ثار ضد بنى أمية ، وخرج فى جيش الثائر « عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث» وقتله الحجاج بن يوسف الثقفى صبرا سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) (١) .

و «غيلان الدمشقى» أحد قادة «القدرية» ، يقتله هشام بن عبد الملك(٢) . أما «جهم بن صفوان» فانه يخرج فى موكب الثائرين بقيادة

(١) د. عبد الحليم محمود « التفكير الفلسفى فى الاسلام » جـ١ . ص١٩٨ .

(٢) وقد كان يرى فى الامامة رأى الخوارج ، وفى الايمان بالله رأى الفلاسفة ، ويسميه « المعرفة الثانية » ، أى الناشئة عن نظر واستدلال ، لا المعرفة الأولى « التقليدية » الناشئة عن الاضطرار « المرجع السابق جـ١ ص١٩٩ ، ٢٠٠ » .

«الحارث بن سريج» ، ويقتل بيد الأمويين سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م) (٢) .

واذا كانت الحركة «القدرية» لم تعش طويلا فى أحشاء الحركة الثورية العربية ، ولم تخلف لنا من القسمات البارزة المطبوعة على جبين الحركة الثورية الفكرية والسياسية الشيء الكثير ، اذا كان عمر هذه الحركة لم يزد كثيرا عن عمر الزهور ، فلقد كان التاريخ يعد لوراثتها حركة فكرية عملاقة ، ورثت كل الأفكار والتقاليد التى كانت للحركة «القدرية» ، ورفعت من الأعلام والرايات ما أصبحت منارات للفكر الحر المناضل على مسار التاريخ . وهذه الحركة الفكرية العملاقة هى حركة «الاعتزال» .

ولم تكن كلمة «الاعتزال» ، أو «المعتزلة» ، بالتسمية العلمية ، ولا هى بالدقيقة لهذه الحركة الثورية التى نحن بصدد الحديث عنها ، فلقد كانوا يسمون أنفسهم ، وتسميهم الناس « أصحاب العدل » ، وذلك لأنهم ، وان كانوا قد ورثوا وطوروا تلك الأفكار التى تقرر حرية الضمير والارادة ، وامتلاك الانسان لمصيره ومستقبله ، وأنه هو الصانع لأفعاله ومن ثم فهو صانع حاضره ومستقبله ، ومن ثم فان التاريخ من صنع الانسان ، الا أنهم استهلوا رحلاتهم الجريئة فى ميدان التفكير بذلك الحديث عن « العدل » ، الذى لم يدعوا اليه ، ويوجبوه فقط على الحاكم وكل من بيده مصير انسان آخر ، بل لقد أوجبوا هذا العدل أيضا على الله سبحانه وتعالى .

ونحن نستطيع أن ندرك بالبداهة والاستنتاج ، تلك المنزلة المقدسة التى كانت لصفة العدل ، وللسلوك العادل ، ولقيم العدالة ، عند هؤلاء الناس ، تلك المنزلة التى جعلتهم يرون فى العدل صفة أوجبوا التزامها على الله .. فما بالك بالانسان ؟؟!!.. ومن ثم كانت تسميتهم « أصحاب العدل » تعبيرا عن الاضافة الأولى التى أضافتها « المعتزلة » لتراث حرية الارادة الذى ورثوه عن الحركة « القدرية » ، ثم اضافوا اليه وطوروه .

والى جانب حرية الارادة ، ووجوب العدل ، كان للمعتزلة موقف متميز ، تجلى فى القيمة الكبيرة والتقويم السامى اللذين أعطوهما للانسان فلقد قارب المعتزلة أن يروا فى الانسان أثمن رأسمال فى الوجود .

فهم لم يؤمنوا بأن فى العالم سرا سيظل مغلقا على العقل الانسانى الى مالا نهاية ، وقرروا امكانية الانسان وقدرته على فهم اسرار الكون ،

(١) وهو وان قال « بالجبر » لا « بالاختيار » الا أنه قد أعطى للعقل جزءا كبيرا ولم يجعل المعرفة موقوفة على السماع « المرجع السابق . جـ١ ص٢٠٣ ـ ٢٠٨ » .

وحل مغاليق العـــالم المادى بمرور الوقت وتطـــور أســـاليب البحث والتنقيب .

والمعركة الكبرى التى اطلق عليها « خلق القرآن » ، والتى أثارها المعتزلة ، لم تكن معركة ضيقة ، ولم تدر فقط فى ذلك الأطار من الخلافات الفقهية و « الجدل الكلامى » ، كما صـورتها عليه كتب الفقـه والكلام . والا لو كانت محصورة فى هذا النطاق الضيق ، لما كانت قضية جماهيرية وسياسية من الدرجة الأولى ، ولظلت قضية خلافية كعشرات ومئات القضايا الخلافية بين فرق الكلام وعلمائه .

ولـكن الذين يتتبعون تاريخ هذه المعركة الفـكرية والسيـاسية الـكبرى منذ أن أثارها المفكر المعتزلى «الجعد بن درهم» ، معلم مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، حتى نجاح المعتزلى فى كسب الخليفة العباسى المستنير «المـأمون» الى صفوف حركتهم ، والذى جعل من الفكر الاعتزالى مذهبا رسميا للدولة ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن وحدوثه سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) ، ثم تبعه فى ذلك الخليفتان اللذان رأيا رأيه فى الاعتزال وهما : «الواثق» و «المعتصم» .. انالذى يتتبع هذه المعركة الفكرية الخصبة وما أثارته من جدل ، ثم ما اعترض طريق نجاحها من عقبات وما أصيبت به من انتكاسـات ، يدرك انها لم تكن مجرد معركة « كلامية » ، ولا هى بالخلاف الفلسفى فقط ، بل لقد كانت ، ولاتزال ، أحد الأركان الهامة من ذلك البناء الفكرى المتحرر الذى بناه هذا الرعيل الأول من المفكرين المتقدمين .

وانطلاقا من هذا المنهج شبه العلمى ، والموقف الفكرى المتميز الذى ترتب عليه فى عديد من المواقف والقضايا والمفاهيم ، وقف المعتزلة فى مجـال التربية والتعليم موقفا متقدما ومشـيرا للاعجـاب ، فرغم التفسيرات غير الدقيقة والاسطورية والخرافية التى حشيت بها بعض كتب التفسير لما ورد فى القرآن الكريم خاصا بالجن ، الا أن المعتزلة قد انكروا رؤية الانسان له ، ومن ثم جعله مصـدرا للخوف ونسـج الأساطير ، وأسقطوا من حسابهم كل ما روى أو يروى عن هذا العالم غير المنظور ، وعرف هذا الموقف المتقدم طريقه الى منازل هؤلاء المفكرين ومدارسهم ، فلم يكونوا وحدهم الذين لا يخافون الجن ، بل أن نساءهم وأطفالهم كذلك لم يكونوا يخافونه ، بل ولا يعرفون شـيئا من هـذا القصص الذى يخيف بها الناس الأطفـال . والأمر البديهى ان ظـاهر القرآن كان فى صف المعتزلة فى هذا التفسير ، وذلك حيث تقول آيته الكريمة عن الجن (انه يراكم من حيث لا ترونه) .

بل ان الموقف المتقدم الذى اعتمد عليه المعتزلة فى فض الكثير من المغاليق ، والذى جعل للعقل الانسانى المنزلة الاولى بالقياس الى ما روى ويروى من النصوص ، ان هذا الموقف العقلى قد جعـل بعض علمـاء « النحو » من المعتزلة يحدثون فى هذا العـلم ثورة كبرى ، لا مجرد اصلاحات .. فهذا « أبو على الفارسى » ، وتلميذه العبقرى « ابن جنى » يستخدمان منهج الاعتزال فى دراستهما النحوية ، فيقدمان فى هـذا الميدان نظرية « القياس العقلى » ، وتحكيم العقل فيما روى عن القدماء ، وعدم التسليم تسليما أعمى بهذا المروى عن هؤلاء القدماء ، أيا كانت الرواية والرواة ، كما يقدمان اللغة العربية ، كظاهرة لغوية ، لها نشأتها وتطورها ، دون أن يكون لها كل هذا « التقديس » الذى جعل منها عند الكثيرين مجرد « خادم مقدس » للقرآن الكريم والحديث الشريف ، وكل هذا الذى استطاع أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى احـداثه ، انما يعتبر امتدادا اعتزاليا الى ميدان الدراسات النحوية (١) .

على أن هذه الحركة الفكرية الثورية ، وان لم تكن قد استخدمت السلاح والجيوش ، ولم تبن الدول المستقلة ، الا أنها قد نشأت وتطورت وعاشـت فى صراع دائم ومرير مع السلطة الاقطاعية وجهـاز الدولة الرجعى، سواء أكان ذلك أيام بنى أمية أو زمن بنى العباس .

وباستثناء عهد الخلفاء الذين انضموا الى صفوف حركة الاعتزال ، المأمون ، والواثق ، والمعتصم ، فلقد لقى المفكرون الأحرار كثيرا من العنت والاضطهاد ، وسببوا للدولة الكثير من القلاقل والمتاعب . اذ فضلا عن تلك الأفكار التى أشرنا اليها ، والتى كانت فى جملتها معادية للاقطاع ، ولفكر « أهل السنة » المحافظ ، فلقد كان المعتزلة يقفون قريبا من فكر الخوارج فى عدد من القضايا الهامة ، كما يقفون الى جانب الشيعة فى بعض الأحيان .. فهم ضد معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ، فى موقفهما من النزاع العربى الاسلامى الشهير ، وهم يرون فى أبى موسى الأشعرى ، مندوب على بن أبى طالب فى « التحكيم » ، يرون فيه « صاحب كبيره » ، وهى مرتبة تلى مرتبة الكفار عند أصحاب الاعتزال ، كما كان المعتزلة يقفون الى جانب على بن أبى طالب فى تقويم احداث هذا النزاع .

وككل حركة ثورية تناضل فى ظروف صعبة ، كانت حركة المعتزلة على جانب كبير من التنظيم ، ضمن لها كل ما حققت من تقدم ونجاح ..

---

(١) انظر « الخصائص » لابن جنى جـ ١ . مطبعة الهلال بالفجالة سنة ١٩١٣ م

مدارس للدعاة ، وبعثات تجوب الاقاليم ، وصلات وروابط تعقد على اساس من الفكر المتقدم ، وحلقات للدراسة فى كل مكان .. ويشير الى جانب من ذلك شاعر المعتزلة وهو يتحدث عن قائدهم « واصل بن عطاء » فيقول :

له خلف شعب الصين ، فى كل ثغرة
الى « سوسها » الأقصى وخلف البرابر
رجـــال دعـــاة لا يفـــل عـــزيمهم
تهجم جبـــار ، ولا كيـــد ماكـــر

وهكذا تقف هذه الحركة الفكرية ، رغم سلميتها ، ثورية ، كأكثر ما تكون الحركات الثورية فعالية فى المعركة ضد الاقطاع .

٧- وحركة ثورية أخرى شهدتها الدولة العربية ، ولكنها تميزت عن غيرها من الحركات بأنها ، أولا : قد أخذت صورة التنظيم السرى ، ذى الرموز والأسرار ، وثانيا : باهتمامها الأكبر بالجانب الفكرى العلمى والفلسفى بوجه خاص ، وتلك هى الحركة التى عرفها الناس بجماعة « اخوان الصفاء وخلان الوفاء » .

ففى « البصرة» حوالى سنة ٣٦٠ هـ «٩٧٠م» نشأت هذه الجمعية السرية فى بيئة غنية بالدراسات العلمية والبحث الفلسفى ، ومجالس الجدل والمناظرت ، ثم أخذت المدن المتعددة تشهد فروعا سرية لهذا التنظيم .

وأخذ أعضاء هذه الجماعة يسعون لجذب الشبان النبهاء الى صفوف جماعتهم ، وتجنيد الرجال المبرزين فى مجالات الفكر والعمل المختلفة الى صفوفها ، كما أخذوا يعقدون الاجتماعات الأسبوعية ،حيثما كانوا .. اجتماعات لايحضرها سوى الأعضاء ، للدراسة والجدل والمناظرات واكتساب المعارف والعلوم .

واذا كانت هناك جماعة ثورية قد بلغت فى تقدمها العلمى والفكرى والفلسفى المستوى الأرقى ، والمنزلة العظمى ، فى تلك الحقبة الزمنية ، فلقد كانت هى جماعة اخوان الصفاء .

ونحن كلما وقعت عيوننا على بعض المناحى التى طرقها اخوان الصفاء وبعض المغاليق التى اكتشفوا مفاتيحها فى ميادين الفلسفة ، والاجتماع ، والفكر بوجه عام ، تدهشنا عظمة هؤلاء الرواد الأوائل ، وجلال ما قدموا للانسانية من خدمات .

فاذا كان الناس ، يومئذ ، قد راوا فى الفلسفة لونا من الوان الفكر : ترفا للعقول تارة ، ونازلة حلت بالدراسات الدينية تارة أخرى ، ومفتاحا لحل بعض الألغاز والمغلقات عند فريق ثالث ، فلقد ابصر اخوان الصفا فى الفلسفة كل شيء ، وقرروا بحسم « أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية » (١)

بل اننا نراهم يفضلون الفلسفة على « الشريعة » ، ويتحدثون عن «أن الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء » .. ومن أجل ذلك ، فهم عندما يعددون « الأنبياء » نراهم يذكرون : نوح ، وابراهيم ، وسقراط ، وافلاطون ، وزرادشت ، وعيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه .. الخ .. الخ .. الخ ...(٢)

وبعض الناس يتصورون أن « قوانين الجدل » التى حددها وصاغها « كارل ماركس » و « فردريك أنجلز » فى منتصف القرن التاسع عشر ، لم تعرف قبل العصر الذى عاشا فيه ، وليس سوى الفيلسوف الألمانى « هيجل » والفلسفة الألمانية ، هى التى عرفت بعض هذه القوانين .

وبعض آخر من الباحثين ، ومنهم « كارل ماركس » نفسه ، يرون أن اكتشاف عدد من هذه القوانين ، موزعة ومتفرقة ، انما هو أمر أكثر ايغالا فى أعماق التاريخ من عصر ماركس وأنجلز وهيجل وغيرهم من الفلاسفة الألمان ، ويتحدثون عن دور المفكر العربى العملاق «عبد الرحمن بن خلدون» واكتشافه فى مقدمته الشهيرة بعض قوانين « المادية التاريخية » ، عندما اكتشف وصاغ وتحدث عن علم الاجتماع ، الذى أسماه « العمران » ..

وكل ذلك حق ، وليس لنا عليه اعتراض ، ولكننا نضيف أن طرق الفكر الثورى العربى الاسلامى لهذه المجالات والميادين ، انما هو أكثر ايغالا وقدما من القرن الرابع عشر الميلادى ، الذى ظهر فيه ابن خلدون . والا فمن الذى لا يبصر فى العبارة التى سنوردها هنا من عبارات اخوان الصفاء فى رسائلهم الشهيرة ، أحد قوانين الجدل التى صاغها ماركس وانجلز فى منتصف القرن الماضى ، صياغة علمية لا تبعد كثيرا عن صياغة اخوان الصفاء لها منذ حوالى الألف عام !!!

(١) رسائل اخوان الصفاء جـ ١ ص ٢٤ .

(٢) ولذلك فان ثورية هذه الجماعة وتقدمها ودورها الذى قامت به فى ارساء قيم غير اقطاعية فى المجتمع ، لا تعنى أننا نوافقهم على كل ما قالوا به ، وخاصة فيما يختص بالجوانب الروحية والاعتقادية فى الاسلام ، حيث تبنوا الكثير من قضايا « الافلاطونية الحديثة » فى هذا المجال .

ففي احدى رسائل اخوان الصفاء يقولون : « ان كل دولة لها وقت ، منه تبتدىء ، وغاية اليها ترتقي ، وحد اليه تنتهى ... فاذا بلغت الى أقصى غاياتها ، ومنتهى نهاياتها ، سارع اليها الانحطاط والنقصان ، وبدأ فى أهلها الشؤم والخذلان ، واستأنف الآخرون (المعارضون) القوة والنشاط والظهور والانبساط . هكذا حكم الزمان فى دولة أهل الخير ودولة أهل الشر »(١) .

ونحن لن نعقد المقارنات العلمية هنا بين هذا النص وبين القانون المماثل فى النظرية العلمية عن قوانين الجدل التى صاغها « ماركس » و « انجلز » ، وانما نحيل فى ذلك الى الكتب الفلسفية التى تتحدث عن « المادية الجدلية » ، وعلى الجزء الخاص من مؤلفات « ماركس » و «انجلز» عن « التفسير المادى للتاريخ » .

والموقف من العلم ، والايمان به وبمعطياته ، الذى وقفه اخوان الصفاء لم يكن خاصا بعلم دون علم ، بل ان انحيازهم الى الفلسفة ، وكانت يومئذ علم العلوم وأم المعارف ، انما كان يعنى ولعهم بكل أنواع العلوم ، فهم الذين قالوا فى رسائلهم : « ينبغى لاخواننا ، أيدهم الله ، ألا يعادوا علما من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب .

ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم كلها »(٢) .

كما جاء فى التعليمات التى دونوها فى رسائلهم الشهيرة : « ينبغى لاخواننا ، أيدهم الله ، حيث كانوا من البلاد ، أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة ، لا يداخلهم فيه غيرهم ، يتذاكرون فيه علومهم ، ويتحاورون فيه أسرارهم . وينبغى أن تكون مذكراتهم أكثرها فى علم النفس(٣) ، والحس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والنظر والبحث عن أسرار الكتب الالهية والتنزيلات النبوية ، ومعانى ما تضمنتها موضوعات الشريعة . وينبغى أيضا أن يتذاكروا العلوم والرياضيات الأربع ، أعنى : العدد ، والهندسة ، والتنجيم ، والتأليف والموسيقى »(٤) .

---

(١) المصدر السابق . ج ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ٤ ص ١٠٥ .

(٣) و « علم النفس » هنا ليس مطابقا ولا مرادا بها العلم المسمى بهذا الاسم فى الدراسات الحديثة ، بل هى قضية من قضايا البحث الفلسفى تقابل المادة والجسم .

(٤) راجع . عمر الدسوقى « اخوان الصفاء » طبعة دار احياء الكتب العربية .

ولقد قاد هذا الموقف العلمى لأخوان الصفا ، والارضية الفلسفية التى انطلقت أبحاثهم من فوقها ، قادهم ذلك الى أعلانهم ، مثـــلا، ان الأوصاف التى ذكرها القرآن الكريم للجنة والنار والحساب انمـــا هى صور حسية تعبر عن رموز نفسية لعقاب ونعيم غير حسى يلقاه المخطىء والمصيب ، وهو موقف شغل حيزا كبيرا من كتب الجدل والفلســـفة فى التراث الاسلامى وتناوله كل من الامام الغـزالى فى « تهـــافت الفلاسفه » و « فضائح الباطنية » ورد عليه الفيلسوف الكبير ابو الوليد ابن رشد فى « تهافت التهافت » و « فصل المقال فيما بين الحكمـــة والشريعة من اتصال » .

واكثر تحديدا من الموقف الذى وصل اليه المعتزلة فيمـــا يختص بوسائل تحصيل المعرفة ، وطرق الوصول الى معرفة المجهول والجديد ، قال اخوان الصفاء بانحصار هذه الطرق فى ثلاث :

أولها : طريق الحواس .. وفيها يستوى الانسان والحيوان .

وثانيها : طريق العقل .. وفيه يستوى كل بنى الانسان .

وثالثها : طريق البرهان .. وهو الذى ينفرد به الفلاسفة والصفوة المختارة من المفكرين والمثقفين .

وهكذا نجد ان اخوان الصفاء ، ورسائلهم الاثنتين والخمسين التى خلفوها لنا ، انما تقف فى تراثنا العلمى العربى ، موسوعة علمية تقدمية، ومنهاجا ثوريا لجماعة ثورية لعبت دورا متقدما فى الصراع الفكرى ضد السلطة الاقطاعية وقيمها ..

وكما قال المرحوم « احمد امين » فى كتابه (ظهر الأسلام) : «انهم جمـــاعة متميزون ، يتخيرون من كل دين ومذهب ما يناسب عقليتهم ، لا يتورعون عن اقتباس من النصرانية واليهودية ، ووثنيى اليــــونان والفرس والهند ، وما يرون انه معقول ، فمن قال انهم سنيون ســنية تامة فقد اخطأ ، من قال انهم شيعة شيعية تامة فقد اخطأ ، ولكنهم من غير شك اميالهم شيعية »

وهكذا ... ورغم عدم امتشاق الحسام ، واراقة الدماء فىهذا الصراع الذى شنه اخوان الصفا ، الا أن هذا الفكر العـلمى المتقـدم ، والقيم المستنيرة التى قدموها ، كانت معاول شديدة الوطأة على الأسس التى قام عليها المجتمع الحاكم فى ذلك الحين ، ومن هذه الزاوية كانت حركة اخوان الصفا حلقة فى سلسلة طويلة من الحـركات الثورية التى

انبتتها التربة العربية كرد فعل للظلم الاجتماعى والسياسى ، وللارهاب الذى شنته السلطة الاقطاعية ضد كل ما هو متقدم فى هذه الحياة .

***

وهكذا نجد أنفسنا بعد هذا الحديث ، أمام جانبين من جوانب الصورة التى ارتسمت للامبراطورية العربية الاقطاعية ؛ جانب ملامح الصورة الاقطاعية وقسماتها وسماتها .. وجانب الملامح التى ظهرت بها الحركات الثورية التى اسهمت فى مقاومة طغيان الاقطاع .

بعد هذا الحديث نجد أنفسنا قد اقتربنا من المواقع التى نستطيع ان نلمس منها الصورة المتكاملة للامبراطورية العربية الاقطاعية، الصورة التى تتجسد فيها كل ما حملت هذه الامبراطورية من سمات وقسمات ، ومن تناقضات والوان للحركة والصراع ، ومن قوى تمزق أوصالها ، وأخرى تنسج لها نسيج التقارب والتلاحم ، والوحدة والانصهار .

وعندما تكتمل هذه الصورة فى الأبواب والفصول القادمة ، سنرى كيف أن الغلبة كانت لعوامل التقارب والتوحيد ، وأن النمو كان من نصيب الانسجة التى شدت خيوط الجماعة العربية بعضها الى بعض ، رغم عوامل التجزئة وفعل التناقضات .

* * *

على اننا نريد قبل أن نترك هذا الحديث الذى قدمناه عن هذه الحركات الثورية التى عرفها المجتمع العربى الاقطاعى ، نريد ان نؤكد حقيقة موضوعية معاصرة ، وضرورية تفرض نفسها على الفكر التقدمى فى هذه المرحلة التى نكتب فيها هذه الصفحات . وهى أن الظروف والملابسات التى انشأت ، وساهمت فى تكوين هذه المذاهب والفرق والحركات الثورية ، ثم ساعدت على تمايزها ، وايضا خلقت فيما بينها اسباب الصراع وظروفه ، أن هذه الظروف لم يعد لها وجود الآن .

واذا كنا نرى فى نشأة هذه الحركات الثورية والقيادات الفكرية ، نزوعا عربيا نحو اقامة كيان عربى يكتسب ملامحه القومية بمرور الأيام ، فاننا نرى اليوم فى بلورة الكيان الواحد للأمة العربية الواحدة ، المناخ الأفضل والأكثر ملاءمة ، بل والوحيد لصهر كل أبناء الجماعة العربية على اختلاف مللهم ونحلهم والمذاهب والتيارات الفكرية والدينية التى لها ينتسبون وبها يدينون .

فهذه الحركات الثورية والتيارات الفكرية التى كانت اداة صهر وبلورة وتوحيد للجماعة العربية يوم أن كانت بيضا وسودا وحمرا ،

وحينما كانت عربا وموالى ، بل قيسية ويمنية ، يجب الا ترتد وتبقى عقبة رجعية تقيم بين ابناء الوطن العربى الواحد من أسباب الفرقة والاختلاف ما رفضته هى نفسها عندما كانت تزخر بحرارة الفكرالثورى الشاب ، وترفض ان تتعايش مع فكر الاقطاع ونظمه وسلطانه .

كما نود ان ننبه ، بل ونؤكد ، أن عرضنا لكثير من آراء بعض هذه الحركات الفكرية الثورية ، وخاصةما يتصل منها بجوانب العقيدة الدينية ، او الأحكام الشرعية ، لا يعنى اننا نميل مع فرقة ضد أخرى، أو نرجح وجهة نظر على ما عداها ، ولا ننتصر لمذهب ضد مذهب ، وانما الهدف الذى رمينا اليه منهذه الاشارات ، علاوة على ارتباط بعض هذه الأفكار بالملامح القومية للفكر العربى الاسلامى وسلوك جماعاته الثورية، هو الاشارة الى ما فى التراث العربى الاسلامى من كنوز فكرية وعلمية ، وتنوع فى البحث والدرس ، وآفاق رحبة وغنية يحسب كثير منالناس أن الفكر الانسانى لم يعرفها قبل العصر الحديث .

٨ - واذا كنا قد تحدثنا فى سياق الكلام عن الامبراطورية الاقطاعية ، عن قسمتين من قسماتها .. فعرضنا للملامح الاقطاعية ، والقيم والقوانين التى جعلتنا نؤكد سيادة هذا النظـــام الاجتماعى ، بعد أن ســـار المجتمع العربى خطوة نحو اقامة نمط من الاشتراكية والعدالة الاجتماعية المثلى — ثم عرضنا لقسمة ثانية ، متمثلة فى الحركات الثـــورية العربية التى شهدتها انحاء الامبراطورية العربية طوال عصرنا الاقطاعى الطويل ، ... فاننا لا نعتقد ان هذه هى كل السمات والقسمات والظروف والملابسات .

فكما انتفض جسم الامبراطورية العربية بالحركات الثـورية التى اشرنا الى أهمها وأخطرها ، فلقد انتفض هذا الجسم كذلك،بل واهتزت روحها ، بحركة ثقافية عارمة ، وحركة فكرية عمـــلاقة ، ومد علمى ، انقذ الانسـانية من تهمة الافلاس والجدب خلال مرورها بالعصـــــور الوسطى ، وجعل تعبير « العصور المظلمة » غير قابل للاطلاق والتعميم .

فمنذ اليوم الذى بدأ فيه الناس يسمعون ويرتلـون آيات القرآن الكريم ، وصلتهم بالعلم والمعرفة تزداد يوما بعد يوم ، بل ان الآيةالأولى، واللبنة الأساسية ، من آياته انما كانت عن القراءة والتعليم والمعرفة ، حيث يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقـــوله : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانســـــان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم .)

ثم اخذت تولد وتنمو وتتطور حركة علمية كبـــــيرة ، ونشأ فى المجتمع العربى جيل من العلماء والأدباء والمشرعين والمؤرخين ، الى آخر فروع المعرفة التى شهدتها البيئة العربية فى ذلك الحين .

فمن المدرسة الأولى التى فتحت لأبناء المسلمين ، والتى أجبر على التدريس فيها ، لقاء حريتهم ، أسرى موقعة « بدر » ... ومن المساجد التى لم تكن دور عبادة فقط الايوم تحولت تعاليم الاسلام الثورية الى مجرد طقوس وعبادات ... ومن حلقات الدراسات ... وأسواق الوراقين ... ومجالس الشعراء والعلماء وسراة القوم وقاعات قصور الخلفاء والأمراء ... من كل هذه المدارس و « المولدات الثقافية » ، ان جاز هذا التعبير ، أخذت تتفتح الحياة الثقافية العربية ، وتتطلع الى الأمام .

وهذه العصبية العربية ، التى ربما كانت ضرورة حرب وأمن فى مراحل بناء الدولة الأولى ، قد جعلت جيوش الفتوحات العربية تزخر بجمهور غفير من المقاتلة غير المرتزقة ، بل العناصر الأساسية فى الدولة ، والمجاهدين السابقين الى الاسلام ، اى أن هذه الجيوش قد حملت الى الأقطار المفتوحة ، وبالذات فارس والشام ومصر ، أكثر الرجال استنارة فى الدولة العربية الجديدة ، لا ليحملوا فقط التعاليم التحررية الجديدة الى هذه البلاد ، بل وليتعلموا من هذه البلاد ، ولقد كانت بلاد حضارة أعرق من الحضارة العربية بكثير .

ولقد كان المزيج الذى ولدته هذه المصاهرة الثقافية ، حضارة عربية شابة ، فيها حرارة تعاليم الدين الجديد ، ومدنية الأقطار التى دخلت فى حوزة العرب الفاتحين (١) .

ان الذين يتصورون الجيش العربى الفاتح على غرار الجيوش القائمة فى عصرنا الحديث ، لن يهتدوا أبدا الى سر هذا النتاج الثقافى الحضارى الذى أثمرته هذه الفتوحات ، لأنهم لا يبصرون نوعية العناصر التى كانت تتكون منها تلك الجيوش ، فلقد كان الجيش العربى الفاتح قافلة علمية وثقافية متنقلة ، تحمل الفكر الى جوار السيوف والسهام والنبال .

***

والتجارة العربية ، فى ظل المجتمع الاقطاعى العربى ، لها دور لم تشهده دولة اقطاعية أخرى ، لها مثل هذا الحجم الكبير .. هذه التجارة ،

---

(١) يقول أحد فلاسفة الغرب : « ان المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، و « يوحنا النحوى » ، ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ، ودخل فى التوحيد المحمدى ، وأصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع » وكما يقول أعظم كتاب أسبانيا « بلاسكوايبانيز » : « .. كان فلاسفة الاغريق يوشكون ان يتلاشوا فى ظلمة النسيان ، فأنقذهم العرب ، وساروا مع الفتح العربى الى كل مكان ، واستعاد أرسطو مكانته الرفيعة فى جامعة قرطبة الشهيرة .. » « روجيه جارودى . الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ . ص ١٣ » .

وهؤلاء التجار كانوا هم ايضا قوافل علمية وثقافية جاست خلال الديار، وشرقت وغربت فى المدن والأمصار ، وحملت الزاد العلمى والمعارف الانسانية الى كل مكان . فعديد من العلماء والمفكرين العرب كانوا تجارا ، وأكثر منهم التجار الذين كانوا بطانة وهواة ومريدين للعلماء والعلوم .

والذين يقرؤون تاريخ القارة الافريقية ، يدهشون لذلك التاريخ السياسى والحضارى والثقافى الذى قام ، والذى صنعه العرب فى وسط القارة البكر وشرقها وغربها ، ذلك التاريخ الذى بدأ بالتجار العرب ، والذى أصابته الانتكاسات والتدهور عندما أجلى الاستعمار الأوربى عن القارة البكر هؤلاء التجار .

وفى سواحل الهند الغربية كانت الجاليات العربية التجارية ،تبنى المساجد والمدارس ، وتدرس حضارة الهند ، وتهتم بالمقارنة بين العقائد والأديان ، وتستضيف العلماء وتسهل لهم سبل البحث والدرس والتثقيف .

بل ان هذا المجد الذى قاده نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ م ، والذى تمثل فى البعثة العلمية التى فتحت آفاقا جديدة امام شعبنا المصرى ، فى تاريخه القديم ، وفى اهمية الحكم العصرى وضرورته ، وفعاليةشعور الأمة بالمدنية الحديثة ، والتى وضعت ذلك السفر المسمى (وصف مصر) ، ان هذا المجد قد سبق اليه العرب منذ قرون ، فالدولة « الغزنوية » ، رغم الأصول غير العربية لقادتها ، فان فتوحاتها فى شبه القارة الهندية قد حملت الى هناك عبقريا عالميا « كالبيرونى » ، استغرقت دراساته العلمية والاجتماعية للحضارة الهندية أربعين عاما ، قدم فيها للانسانية زادا عاشت عليه الانسانية الى ما بعد عصر النهضة الأوربية بأكثر من قرن من الزمان .

ومن هذه المصادر العديدة ، وبهذه الوسائل المتعددة ، بدأتالحركة الثقافية العربية ، وكان لابد لها بحكم وسائلها وادواتها ، أن تكون شاملة لكل أنحاء الامبراطورية ، وأنتغطى كل أجزاء الدولة ، وان تمثل على خريطة الأرض العربية خيوطا تربط الاقطار والامارات والولايات .

والى جانب تعدد السبل والوسائل التى بدأت وانتشرت بها الحركة الثقافية العربية ، كانت هناك ايضا ضخامة القوى العلمية التى ساهمت فى هذه الحركة ، والغنى الذى شهدته بالمثقفين والعلماء ، انه غنى لا يثبت فقط تميز الدولة العربية عن باقى الدول الاقطاعية ابان العصر الاقطاعى والقرون الوسطى ، بل يرتب ويحتم نتائج امتازت بها

الامبراطورية العربية نتيجة لهذا الغنى والثراء الذى شهدته فى المثقفين والعلماء .

لقد أثمر هذا التفاعل والتزاوج بين التعاليم الاسلامية الثورية وبين الحضارات العريقة للبلاد المفتوحة ، وذلك الغنى الذى أصبحت عليـــه هذه الحضارة العربية الجديدة .. اثمر ذلك طورا من الحياة الثقافيـــة تميز بالنظام والتنظيم .

ففى سنة ٨٣٠ م ، واعظم الدول حضارة اليـــــوم ، كانت لا تزال تحيا حياة بدائية ، وتفكر فى عالم من الخرافات كما يفكر الأطفـــال فى مجتمعات مليئة بالسحر والأوهام .. انشأ الخليفة « المـأمون » (بيت الحكمة) ببغداد ، وجعل منه « أكاديمية » للثقافة والعلوم ، بل وكانت اقسامه دليلا على النضج العربى ، واهتدائهم فى ذلك التـــــاريخ الى مستوى رفيع من التخصص وتقسيم العلوم .

ففى قسم الترجمة بهذه « الأكاديمية » ، قامت مدرســـــة كاملة امتدت فروعها حتى تعدت حدود بغداد ، وشملت الامبراطوريةالعربية. وقرانا عن احد اعلامها « حنين بن اسحق العبادى » ــ من قبيلة عباد، بالحيرة ــ والذى ظل يعطى هذا العمل من حيويته وحياته اعواماامتدت من سنة ٨٢٦ م حتى وفاته سنة ٨٧٧ م ، والذى كان يستعين فيهـــا بمدرسة من المترجمين ، فينقل النص الأغريقى الى السريانية ، ثم يحوله مساعدوه الى العربية ، ويراجع هو النصوص الثلاثة ويقارن بينها .

واسم حنين بن اسحق هذا يشير الى حقيقة لابد من التنبيه اليهــا وتأكيدها ، فهو مسيحى من قبيلة كانت المسيحية فيها ذات شأن ،ومع ذلك فهو أحد الأعمدة التى حملت واغنت الحضارة العربية بالفكروالثروة الثقافية التى اذهلت العلماء المعاصرين . وهكذا ، فالحضارة التى شارك حنين فى اقامتها لم تكن دينية بقدر ما هى عربية ، والاسلام فيهــا كان كما لا يزال ، قطاعا هاما من ميدان تكوين أهلهـــا النفسى ، وان كان فى أرضها وبين أهلها قد اكتسب ملامح متميزة جاءته من العرب والعروبة ومالهم من خصائص وقسمات .

وعبد الله بن المقفع ، احد أعلام الترجمة والانتاج الفـكرى فى نفس الوقت ، والمفكر المتحرر ، والذى ينحدر من اصل فارسى ، انهبمساهمته فى بناء الحركة الثقافية العربية وبلورتها،انما يقدم نموذجا ذا دلاله... فهو من أصل فارسى ، ولكنه تعرب فاصبح عربيا ،يعتزـعمليا ـبالعروبة ثقافة وعقلية ونمط حياة . وهو « متحرر » فيما يختص بالعقيدة الدينية ــ أو هكذا ادعى عليه خصومه ــ بدليل اعدامه بتهمة الزندقة ، فهـــو

نموذج ودليل على مساهمة غير « المؤمنين » من العرب في بناء الحضارة التي قامت في ذلك الحين .

اما قسم الفلك في هذه الأكاديمية ، فانه لم يقتصر فقط على انشاء مرصد بغداد ، ثم مرصد ثان في سهل « تدمر » ، وانما نشأت في هذا القسم ، وفي هذين المرصدين ، ومن حولهما مدرسة فلكية جغرافية رياضية ، خلفت لنا عشرات من المؤلفات العلمية القيمة ، وأيضا عشرات من أسماء الأعلام .. وعلى سبيل المثال شهدت هذه المدرسة عددا كبيرا من العلماء ذوي الوزن العلمي ، منهم : « سند بن علي » المشرف على مرصد بغداد ، والأخوة : « احمد » و « حسن » و «أبو جعفر» ابناء «موسى بن شاكر» ، والذين كانوا يكتبون مؤلفاتهم ويقدمونها للناس بصورة جماعية ، والذين تخصص أولهم في الميكانيكا ، والثاني في الهندسة ، والثالث في الفلك . و «أحمد بن عبد الله المروزي» الشهير بحبش ، و « ابو العباس احمد بن محمد بن كثير الفرغاني » صاحب كتاب (الحركات السماوية وجوامع علم النجوم) و (ملخص الهيئة) و (المزاول) ، والذي رحل من بغداد الى مصر واشرف بنفسه على اقامة مقياس النيل عند الفسطاط . و « خالد بن عبد الملك » وابنه «محمد» و « أبو سعيد الضرير » و « أبو العباس بن سعيد الجوهري » و «يحي بن أبي منصور » و «أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي » ، و « أبو عبد الله محمد بن عيسى المهاني » ، و « ابو العباس الفضل بن حاتم التبريزي » ، و « عبد الله بن أماجور » وابنه « علي » و « ابو اسحق ابراهيم بن يحي » ، و « أبو القاسم مسلم بن احمد المجريطي » و « ابن السمح » و « ربيع بن زيد الاسقف » و « أبو سهل الكوهي » ، و «أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر الصوفي » ، و « ابو الوفاء » ، و«الكرخي» و «علي بن عباس» ، و «أبو حامد الصاغاني» ، و « حامد بن نصر الخجندي » .... وغيرهم كثيرون وكثيرون . (١)

كما انشيء في (بيت الحكمة) هذا قسم للدراسات الطبية ، نقل هذا العلم من طور السحر الى علم منظم ، سواء في الصيدلة ودراسة الأعشاب والعقاقير أم في التطبيب ، وعرف هذا العلم ، وهؤلاء الأطباء الملاحظة والتجربة وغيرهما من الأسس الخاصة به ، والتي اضافها العرب عندما نبغوا فيه (٢)

---

(١) راجع د. امام ابراهيم محمد « تاريخ الفلك عند العرب » و د. قدري حافظ طوقان « تراث العربي العلمي » .

(٢) يقول « جوستاف لوبون » : « ان القاعدة عند العربي هي « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » ، وعند الاوربي الى مابعد القرن العاشر الميلادي : (اقرأ الكتب ، وكرر مايقول الاساتذة ، تكن عالما) » .

ومن هذا القسم تخرج الذين اداروا عـــــــددا من المشـــــافى والبيمارستانات فى بغداد وغيرها من المدن العربية الأخرى .

كما انشىء فى هذه « الأكاديمية » قسم للنسخ (الخطـاطة) ، حتى تصبح ذخائر الفكر المترجم ، والفكر العربى فى متناول اكبر عدد تسمح به ظروف عصر لم تكن الطباعة فيه قدرات النور .

كما أقيمت مكتبة ، كانت وحيدة عصرها ، جلبت اليها المجـلدات من كل انحاء العالم ، وحيثما كانت توجد الكتب والمجلدات . هذا الى جانب فروع أخرى لعديد من العلوم والفنون التى عرفت وازدهرت فى ذلك الحين ، كالفلسفة ، والتشريع ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وغـــير ذلك كثير .

وتعبيرا عن الحضارة العربية المستمرة والمتجـــــددة ، كانت تلك الصورة الجديدة التى اتخذها (بيت الحكمة) الذى أقامه « المأمون » فى بغداد ، تلك الصورة التى اتخذها هذا العمل العلمى العمـلاق ، على يد خليفة آخر قد أغرم الى جوار تعاليم الشيعة ، بالعلوم والفلسفة والنجوم ، وهو « الحاكم بأمر الله » الفاطمى .

ففى القاهرة ، وفى ظل سلطان الفاطميين ، انشأ الحاكم (دارالحكمة) لتلعب دور (بيت الحكمة) ، ولتكون امتدادا له ، ولتخرج أجيـــالا من العلماء ، ولتثرى الحضارة العربية ، ولتواصل المهمة التى بدأتهـــــا « آكاديمية » بغداد على يد الخليفة المعتزلى المستنير « المأمون » .

واجتمع يومها فى هذه « الأكاديمية » عشرات من العلمـــاء ، من أمثال : « أبو عبد الله بن سعيد التميمى » أحد علماء الصـيدلة ، ومن الأطباء « أحمد بن يحى البلدى » و « ابو القاسم عمار بن على الموصلى » ، و «ماسويه الماردينى» ، «على بن رضوان» ، والرياضى الفلكى العمـلاق «ابن يونس» المتوفى سنة ١٠٠٩ م (١)

وقبل (دار الحكمة) هذه اقام الفاطميون ذلك المركز العـــلمى الثقافى الذى ظل منذ انشائه ، وحتى عصرنا هذا منارة للفكر العـــربى وحصنا للحضارة العربية الاسلامية ، وحارسا يذود عن السمات والملامح العربية فى الثقافة ، موجات التدمير والمسخ والتشـــويه ، ذلك الحصن

---

(١) قدرى حافظ طوقان « تراث العرب العلمى » و د. امام ابراهيم محمـــد « تاريخ الفلك عنـد العـــرب »

الذى بدأ مسجدا ، ثم أصبح معهدا، ثم صار جامعة تحمل اسم«الأزهر الشريف» .

ونحن لن نجهد أنفسنا فى الحديث عن دور الأزهر فى حماية التراث ، بل وانشاء ما نسميه اليوم تراثا ، ولا فى الحديث عن الأجيال التى رباها بين احضانه من العلماء ، وانما فقط ، نريد أن نشير الى زاوية هامة ، هى تلك التى جعلت من الأزهر مركز اشعاع للعالم العربى بالدرجة الأولى ، وخيطا يربط الجماعة العربية — فضلا عن الجماعات الاسلامية — ويذكى فيها عوامل عزتها وقوميتها ، نحوا من ألف عام ، وثقل وزن هذه الجامعة عندما نستعرض صلتها العضوية بأجزاء الوطن العربى فى احدى السنوات (سنة ١٩٦٢ م) ، (مع مراعاة أن دورها اليوم أقل من الماضى بمراحل كثيرة ، لانتشار التعليم العام ، والجامعى ، عندنا وفى بلاد عربية كثيرة) .

ولكن هذه الصلة العضوية بين هذه المنارة الثقافية وبين مختلف أجزاء وطن الجماعة العربية ، ترينا الى أى حد كانت هذه الجامعة خيطا ثقافيا وقوميا يشد اجزاء الجماعة العربية بعضها الى بعض ، وتقيم ، منذ نحو الألف عام ، قواعد الوحدة الفكرية المعبرة عن السمات العامة التى شهدتها أجزاء هذه الامبراطورية العربية وشعوبها طوال عصر طويل. وكل ذلك انما يتضح بأشياء كثيرة ، وأدلة شتى ، منها هذا الجدول :(١)

(الطلبة العرب فى الأزهر سنة ١٩٦٢ م)

الدولة العربية	عدد طلبتها	الدولة العربية	عدد طلبتها	الدولة العربية	عدد طلبتها
السودان	٧٣٣	موريتانيا	١٦	جبال الاكراد	٨
ليبيا	١٨٩	سوريا	١٢٨	اليمن	٤٣
تونس	١٢	لبنان	٢١	السعودية	٤
المغرب	١٠	الاردن	١٦٢	العراق	١٦
الجزائر	٢٣	فلسطين	١٦٠	البحرين	٤

المجموع الكلى ١٥٢٩

(١) الأهرام الاقتصادى .

وهذا جدول آخر يكمل الصورة(١) :

(المبعوثون الأزهريون الى البلاد العربية سنة ١٩٦٢ م)

عدد المبعوثين اليها	الدولة العربية	المجموع الكلى
٤١	الكويت	٧٢١
٥٤	المغرب	
٧٠	قطر	
٢٦٠	ليبيا	
٢٧٦	السعودية	
٤	البحرين	
٦	العراق	
٢٤	غزة	
١٨	السودان	
١٨	لبنان	

والى جانب منارة الأزهر ، أنشأ ، فى بغداد ، الوزير السلجوقى المستنير « النظام » سنة ١٠٦٦ م (الجامعة النظامية) ، التى وان تكن قد قامت فى ظل الدولة السلجوقية التى تنحدر من أصل غير عربى ، الا أنها بحكم قيامها ونشأتها فى بيئة عربية ، ووسط حضارة عربية ، كانت معهدا ذا طابع عربى ، ومنارة للفكر العربى الذى كان يكتسح رغبات الحكام غير العرب فى معاكسة تياره ، بل كان لا يسمح لهذه الرغبات حتى برؤية النور .

وطرق القوافل والمسالك والدروب ، فى طول الامبراطورية العربية وعرضها ، كانت تموج بحركة العلماء ورحلاتهم ، وتشهد تنقلاتهم ، وقيام مدارسهم ، وامتداد فروعها ، وتلامذتها الى مختلف البلاد .

ونحن نستطيع أن نتخيل الامبراطورية العربية ، وعلى وجه الدقة المنطقة العربية ، محيطا يسبح فيه ، طولا وعرضا ، فى مسابقة لا تنتهى ، عشرات وعشرات من المفكرين والمثقفين والعلماء(٢) .

وحتى ندرك أى نو من السباحين كانوا ، ومن أى معدن كان هؤلاء الرجال الفرسان ، نقدم هنا بعض الأسماء ، فقط بعض الأسماء :

(١) المرجع السابق . ونحن قد ذكرنا هنا علاقات الأزهر بالوطن العربى دون الأوطان الاسلامية ، لأن الأولى هى موضوع حديثنا .

(٢) بل لقد قال « الدوميلى » فى كتابه « بالعلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى » عن أثر الثقافة العربية فى الصين : « لهذا ازدادت حضارة الصين نموا بواسطة الاتصال بالتأثير العربى » .

جابر بن حيان : (٧٣٧ ــ ٨١٣ م) ، وهو من أبرز علماء الكيمياء فى ذلك العصر ، لم يمنعه تخصصه العلمى من الاشتغال بالسياسة ، فاعتنق مذهب الشيعة ، وارتبط بالمعتزلة ، وكان عضوا فى جمعية اخوان الصفاء ، وتنقل فى مختلف الولايات والامارات العربية ·

* * *

محمد بن موسى الخوارزمى : (توفى سنة ٨٥٠ م) فى عصر المأمون ، صاحب كتاب (صورة الأرض) ، وواضع علم (الجبر) ، وأحد الأساتذة الذين تتلمذ عليهم علماء الغرب فى عصر النهضة وما تلاه ، وهو الذى وضع أصول هذا العلم فى كتاب ألفه استجابة لرغبة الخليفة المأمون ، وهو كتاب (الجبر والمقابلة) ، ثم وضع له مختصرا قال عنه : « اننى ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا ، حاصرا للطيف الحساب وجليله ، **لما لزم الناس من الحاجة اليه فى مواريثهم ، ووصاياهم ، وفى مقاسمتهم ، وأحكامهم ، وتجاراتهم ، وفى جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين ، وكرى الأنهار ، والهندسة ، وغير ذلك من وجوهه وفنونه** » ·

وهذه الكلمات بالنسبة لنا أكثر من تعريف بمختصر ألفه الخوارزمى ·· انها دليل على أن التأليف العلمى ، حتى فى أصعب فروع العلم يومئذ وأحدثها ، الجبر والمقابلة ، لم يكن ترفا ذهنيا ، ولا هو من أجل حلقة ضيقة من العلماء والباحثين ، وانما كان موجها لخدمة جماهير الناس · وهذا الارتباط الوثيق بين العلم والجماهير ، يجعل من حياة العلماء ورحلاتهم وأفكارهم ، والآثار التى تحدثها حياتهم ، أشياء وثيقة الصلة بالناس وتطورهم ، والتكوين النفسى والحياة العقلية التى تعيش فيها هذه الجماهير ·

* * *

الكندى : (٨٠١ ــ ٨٦٧ م) وهو الفيلسوف الذى أعطى للفلسفة العربية كثيرا من ملامحها الخاصة ، كما أنه المهندس الذى كانت كتبه الدليل الذى استعان به الذين حفروا القنوات بين دجلة والفرات لاحياء الأرض وزراعتها هناك · كما أنه المعتزلى الشيعى الذى قال : « ينبغى ألا نستحى من الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وان أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا » ·

* * *

ثابت بن قره : (٨٣٥ ــ ٩٠٠ م) ، أحد نوابغ علم الرياضة ، وهو صابىء ، وذلك دليل على مشاركة طوائف غير اسلامية فى بناء الحضارة

العربية ، وهذا الصابىء الذى « حرمته » طائفته الدينية ، وحرمت عليه دخول « الهيـــكل » وطردته من المذهب ، هو الذى كان « محل احترام الخليفة المعتضد ورعايته ، وقد أحاطه بعطفه ، تقديرا لعلمه ، وأغدق عليه العطايا والهبات ، وأقطعه الضياع الجليلة » (١)

* * *

البتاني : (٨٤٩ – ٩٢٩ م) ، وهو من الذين نبغوا فى علم الفلك ، وأهم مؤلفاته كتابه الذى أسماه (الزيج الصابى) .

* * *

أبو بكر الرازى : (٨٥٤ ـ ٩٣٢ م) وهو الملقب بأبى الطب العربى ، ولم تكن علاقته بالطب علاقة الدرس والبحث النظريين فحسب ، بل لقد مارس الطب ، وأجرى التجارب ، وعمل مديرا للبيمارستان العضـــدى ببغداد . كما كانت له فى الفلسفة والالهيات آراء لم تكن محل رضى من علماء الأديان سواء فى الاسلام أو المسيحية أو غيرهما من الأديان .

* * *

الفارابى : (٨٣٢ ـ ٩٥٠ م) وهو من أشهر الفلاسفة العرب الذين نحو فى كتبهم الفلسفية منحى يوحى بأشكال سياسية لتنظيم المجتمع ، كما فعل فى كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) . وهو تركى الأصل ، ولكن ثقافته عربية ، ودوره فى التراث العربى والحضارة العربية علامة على طريق انصهار مختلف الأجناس فى بوتقة هذه الحضارة ، واندماجها فى الجماعة العربية التى أخذت بالتبلور فى ذلك الحين ، ودليل على صحة تلك الكلمة القائلة : « كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا »(٢) .

* * *

ابن سينا : (٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) ، من أعلام الفلسفة الذين لايحتاجون الى تعريف ، ورائد من رواد الفلســـفة « الاشراقية » الصوفيـــة ، وهو والفارابى يعتبران أبرز من مثلا من الفلاســـفة العرب المسلمين تيـــار « الافلاطونية المحـدثة » الفلسفى فى ثوبه العـربى الاسلامى ، كمـا أنه طبيب عظيم بقدر ما هو فيلسوف عملاق .

* * *

أبو الحسن بن الهيثم : (٩٦٥ ـ ١٠٣٩ م) ، واضع علم البصريات ،

(١) د. قدرى حافظ طوقان « الخالدون العـرب »

(٢) محمد عبده « الاسلام بين العلم والمدنية » ص ١٦٦ . طبعة دار الهلال « كتـاب الهلال » .

وصاحب المؤلفات التى ظلت مراجع لهذا العلم فى الجامعات الأوربية حتى عهد غير بعيد ، وهو من مواليد البصرة ، وتوفى بمصر ، فكانت حياته أحد الخيوط التى تشهد للانصهار العربى ، وهو القائل : « انى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية » .. كما أن أبحاثه فى علوم الفضاء ، وبالذات ما كتبه عن البقع القائمة على سطح القمر هى الآن محل دراسة وبحث من علماء غزو الفضاء فى أيامنا هذه ، وفى سنة ١٩٦٥ م طلبت وزارة الثقافة السوفيتية من مكتبة جامعة الاسكندرية صورا من مؤلفات ابن الهيثم فى هذا الصدد للاستفادة بها فى هذا الميدان !!

* * *

البيرونى : (٩٧٣ ــ ١٠٤٨ م) ، أحد أعلام الكيمياء والرياضة والفلسفة ، ورغم انحداره من أصل فارسى ، الا أنه بحياته وثقافته وانتاجه وموقفه ، يقوم دليلا على انصهار الجماعة العربية على أساس مفهوم متقدم وعلمى للعروبة ، أخذ فى النضج والسيادة منذ ذلك الحين، فهو القائل : « ديننا والدولة عربيان ، وتوأمان ... وكم احتشدت طوائف من التوابع فى الباس الدولة جلابيب العجم ، فلم ينفق لهم فى المراد سوق » .

ورغم أنه خدم الدولة « الغزنوية » ، وهى من أصل غير عربى ، الا أن موقفه من العروبة لم يتغير ، وهو يتجلى فى مثل قوله : « انه لأحب الى أن أهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية »(١) .

وهو من أوائل الذين حكموا العقل فى التاريخ ، ووصلوا الى أن للطبيعة قوانين ثابتة لا تتغير .

* * *

ابن حزم الأندلسى : (٩٩٤ ــ ١٠٦٤ م) ، من الفلاسفة الذين ارتادوا ميادين كثيرة فى الثقافة ، ولقد ألف فى الحب كتابا أسماه (طوق

* * *

---

(١) ومثل ذلك فى الدلالة قول « ابن جنى » فى « الخصائص » جـ ١ ص ٢٥٢ عن اعتزاز علماء اللغة العربية من الأصل الفارسى بالعربية وتقديها على الفارسية ، فيقول « انا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى ، وقد تدرب بلغته قبل استعرابه ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك لبعده فى نفسه ، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه » . وهو حديث يلقى ضوءا على دور الدراسات العربية فى بلورة الشخصية الجديدة للجماعة الجديدة والمجتمع الجديد ، والتاريخ الذى ظهر فيه كل ذلك للوجود .

الحمامة) ، لعله أول كتاب حفظه لنا التراث العربى ، ان لم يكن الانسانى، عن الحب كعاطفة ومشاعر سامية ، وفن يدرس ، له قواعد وأصول .

* * *

أبو حامد الغزالى : (١٠٥٩ - ١١١٢ م) هو الفيلسوف المتصوف الذى أعطى التصوف الاسلامى ملامحه المتكاملة ، كفكر وسلوك لا يتصادم مع حقائق الشرع وأحكام القرآن الكريم ، والذى رغم تصوفه نجده قد حدد لنا بوضوح أن الدراسات العلمية والثقافية انما تنشأ وتنتهى فى ارتباط مع مصالح الناس وحاجاتهم ، وأنه لا انفصام بين وضعها هذا وبين كونها انما تطلب لذات الحق ووجه الله ، وذلك عندما يعبر عن هذه الوحدة بقوله : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى الا أن يكون لله » ؟!

كما أنه هو الذى أعطى الانسانية بكتابه (المنقذ من الضلال) نموذجا لصدق المفكر مع نفسه ، وتعبيره بأمانة عن شكله وقلقه وتطوره ، ووجوب انسجام سلوك المفكر مع ما فى ذهنه من أفكار .

* * *

ابن باجه : (المتوفى سنة ١١٣٨ م) ، أحد الفلاسفة الذين سبقوا الى كشف بعض جوانب « المادية الجدلية » ، وتحديد بعض قوانينها ، ولقد كان ميلاده « بسرقسطة » بالأندلس ، ووفاته « بفاس » بالمغرب فرصة للتجربة والخبرة العربية ، لا الاقليمية ، وهو الذى قال عنه «الفتح ابن خاقان» فى مؤلفه (قلائد العقيان) ، انه « كان يقول بأن الدهر فى تغير مستمر ، وأن لا شىء يدوم على حال ، وأن الانسان كبعض النبات والحيوان ، وأن الموت نهاية كل شىء » .

***

ابن طفيل : (المتوفى سنة ١١٨٥ م) ، فيلسوف عربى أراد تصوير مذهبه فى « الخلق الطبيعى » ونشوء الحياة « ذاتيا » فى قصته التى حازت شهرة عالمية ، وكانت موضع دراسة وترجمة من جانب الفلاسفة الأوربيين : (حى بن يقظان) ، وهو من مواليد الأندلس ، كما كانت وفاته بمراكش ، ولقد كان من المؤمنين بامكانية اكتشاف الانسان لأسرار العالم المادى عن طريق التجربة ، أما مذهبه فى الأخلاق فهو دعوة الفرد للعمل فى سبيل مصلحة المجموع .

* * *

أبو الوليد بن رشد : (١١٢٦ - ١١٩٨ م) ، فيلسوف غنى عن التعريف ، وهو من مواليد « قرطبه » بالأندلس ، أما وفاته فكانت بمراكش .. وهو قمة الفلسفة العربية الاسلامية فى ايمانها بالعقل واعتمادها على

ثمار العلم ، وأكبر شراح أرسطو والحجة فى نقد مذاهب علماء الكلام • وآراؤه فى « الحرية » و « خلق العالم » و « تحرير الرقيق » و « العدل الاجتماعى » صفحات مشرقة من العمق والتقدم والتحرر تستحق التقدير والاعجاب والتطوير •

***

الخازن : (النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى) ، وهو من نوابغ علماء الميكانيكا والفلك والطبيعة ، ظهر بمدينة « مرو » •

***

ابن البيطار : (توفى سنة ١٢٤٨ م) أحد علماء الصيدلة والأعشاب والنباتات ، وحياته ودراساته وآثاره تمثل خير رباط بين أنحاء العالم العربى ، فلقد ولد « بمالقه » وتوفى « بدمشق » ، وخدم الدولة الأيوبية فى عهد الملك الكامل ، ولقد زار أيضا « رودس » فى اليونان ، واسبانيا والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى •

***

نصير الدين الطوسى : (١٢٠١ ـ ١٢٧٣ م) ، أحد علماء الفلك والرياضة ، من مواليد « طوس » وان يكن قد مات ببغداد ، ولقد استطاع أن يكسب ود « هولاكو » فعينه أمين أوقاف الممالك المفتوحة ، واستطاع فى ظل هذه السلطة أن ينشىء مكتبة عربية قوامها ٤٠٠ر٠٠٠ مجلد (أربعمائة ألف مجلد) ، وأن ينشىء مرصدا فى « المراغة » جعل منه مجمعا علميا يضم مجموعة من العلماء ، منهم « المؤيد العرضى » من دمشق ، و « الفخر المراغى » من الموصل ، و « الفخر الخلاطى » من تفليس ، و « النجم دبيران » من قزوين ، و « محى الدين المغربى » من حلب •

***

عبد الرحمن بن خلدون : (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) صاحب المقدمة الشهيرة ، ومؤسس « علم » التاريخ وفلسفته ، وواضع أسس علم الاجتماع ، وأول من ربط الاقتصاد بالتطور واعتبره أهم عوامل التطور ، ولقد كان موسوعة كبرى فى كثير من العلوم والفنون ، فضلا عن اشتغاله بالسياسة • ولقد ولد بتونس وتوفى بالقاهرة(١) •

***

---

(١) وكان ابن خلدون من أنصار حرية التجارة والنشاط الاقتصادى وهو القائل فى مقدمته : « اعلم أن السلطان لا ينمى ماله ولا يدر موجوده الا بالجباية ، وادرارها انما يكون بالعدل فى أهل الأموال والنظر لهم بذلك •• وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فانما هو مضرة عاجلة للرعايا ، ومساءة للجباية ، ونقص للعمارة » وهو بذلك يعكس أفكار القوى الاجتماعية الجديدة غير الاقطاعية النامية فى أحشاء المجتمع الاقطاعى العربى فى ذلك الحين •

أبو العلاء المعرى : (٩٧٣ ـ ١٠٥٨ م) وهو الفيلسوف المشهور والشاعر الأشهر ، صاحب (رسالة الغفران) التى كانت من أهم مصادر (الكوميديا الالهية) للشاعر الايطالى « دانتى » ، والتى أدخل فيها مجيدى الشعر من شعراء الجاهلية الجنة ، تعبيرا عن اعتزازه واعتزاز جيله بالعرب والعروبة ، ودافع عن المومس التائبة المتطهرة التى تزوجها كسرى ، ضاربا عرض الحائط بانتقاد حاشيته الرجعية .

ولقد كان المعرى غير مستقر الاعتقاد فى الأديان عموما ، فهو الذى يقول :

هـذا بنـاقوس يدق — وذا بمئـذنة يصـيح
كـل يحبـذ دينـه — ياليتشعرى ما الصحيح؟!

والقائل فى (لزوم ما لا يلزم) :

الناس صنفان ذو عقـل بلا — دين ، وآخر دين لا عقل له ..

ولذلك نراه يهاجم فى رسـالة الغفران كلا من « الصوفيـة » و « الحلوليـة » و « الشـيعة » و « المعتزلة » و « الأشـاعرة » والمنجمين والتناسخ و « القرامطة » .. كما يهاجم التنسك ، ويتحدث عن المتنبى الفيلسوف صاحب النظر العقلى باعجاب واكبار . بل يشتط فيفضله على بعض « الأنبياء » .. ويثبت له كثير من الباحثين عضوية فى جمعية اخوان الصفاء ، السياسية الفلسفية .

بشار بن برد : (٧١٦ ـ ٧٨٤ م) ، أحد نوابغ الشعراء المجيدين ، دافع عن المساواة بين الأجناس التى كانت تضمها الامبراطورية العربية وهجا السادة الذين كانوا يستعبدون ويستذلون الموالى ، وحسبه البعض ـ خطأ ـ لذلك شعوبيا .. يقول عنه الدكتور طه حسين وعن زندقتـه : « كانت زندقة بشار علمية ، ان صح التعبير ، أو قل كان لزندقته وجهان: أحدهما علمى نظرى ، فيه ذكر لمذهبه ودفع عنه ، وحوار دونه . والآخر عملى أدبى ... »(١) .

كما يقول : « ان رجلا من أشراف العرب بالبصرة أقبل عليه يعاتبه لأنه يفسد الموالى على العرب ، فهجـاه ، واضطر الرجل الى أن يسكت عنه . »(٢) .

---

(١) د. طه حسين « حديث الاربعاء » جـ ٢ ص ١٦٢ .
(٢) المرجع السابق . جـ ٢ . ص ١٦٣ .

أبو نواس : (٧٥٨ ـ ٨١٤ م) ، علم من أعلام التجديد فى الشعر ، شكلا ومضمونا ، زعم بعض الباحثين أنه كان شعوبيا ، لأنهم رأوا فى كل الذين تحدثوا عن ماضى الفرس وتراثهم ، هذا الرأى • ولـــكن موقف أبى نواس الى جوار « الأمين » ضد « المأمون » ، ومدحه « الأمين » ووزيره « الفضل بن الربيع » وأولاده ، ومنادمتهم ، دليل على موقفه الى جانب العرب والعروبة • ولقد بلغ من دلالة هذا الموقف أن أنصار المأمون فى « خراسان » ، كانوا ينشدون ، فى المساجد ، أشعار أبى نواس ليصرفوا النـــاس عن سيده الأمين ، ولينفروهم من حزبه الذى يضم أبا نواس • (ومعروف أن ميول الفرس كانت مع « المأمون » ، على العكس من ميول العرب التى كانت الى جانب « الأمين » •

أبو الطيب المتنبى : (٩١٥ ـ ٩٦٥ م) ، قمة الشعر العربى المعبر عن العصر الاقطاعى ، والنظام الاقطاعى ، ونموذج الشاعـــر الذى دخل التاريخ من باب البلاط • وهو أيضا فيلسوف وصاحب نظر عقلى فى كثير من أمور الـكون والحيـاة • وفى جوانب من شعره ملامح واضحة للعروبة وحديث عن المجد العربى ، وهجوم على غير العرب من المتسلطين على بعض الامارات والولايات العربية :

وانما الناس بالملوك وهل تصلح عرب ملوكها عجم ؟!!•

ان هـذه الأسماء مجرد أمثلة ، مجرد نماذج منتقاة من أجيـال من العلماء والنوابغ والمثقفين ، العرب باللغة والحضارة والتـكوين النفسى ، الذين جاسوا خلال العالم العربى ، وزخرت بهم أنحاء الامبراطورية العربية طوال عصرها الاقطاعى ، والذين كانوا ، وكانت ثقافتهم ورحلاتهم ، وما أحدثوا من آثار وتطورات ، خيوطا توحيـدية بين الامارات والولايات ، وفعلا معاكسا لفعل قـــوانين المجتمع الاقطاعى ، التى تصنع التجـــزئة والتفتت وتقيم الحواجز والحدود •

ولقد كانت الحركة الثقافية العربية تيارا توحيديا ، وقسمة من نوع قسمة الحركات الثورية العربية التى تحدثنا عنها ، كلاهما اتخذ من كل أرض الامبراطورية العربية الكبيرة مسرحا لنشاطه ومجالا حيويا لما أحدث من آثار ، وبمقدار عمق الحركة الثقافية العربية وعظمها ، وهى حـركة ليس لها مثيل فى العصور الوسطى ، فان آثارها التوحيدية لم يكن لها مثيل عند شعب من الشعوب فى تلك العصور •

وكما امتاز العرب بكل هذه الثقافة والحضارة فى ذلك التاريخ ، فلقد

امتازت الامبراطورية الاقطاعية العربية بهذه الدرجة من درجات التوحيد التى حدثت للجماعة العربية فى تلك الأيام ٠

واذا كانت عملية توحيد الجماعة العربية ، فى عمقها وأبعادها ، لم تحظ بحديث الكثير من الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخنا وملاحظاتهم فان عمق الحركة الثقافية العربية وأبعادها قد حظيت بحديث الكثير من الدارسين ، ومنهم المؤرخ « جورج سارتون » صاحب (تاريخ العلم) ، والذى يقول : « يكفى أن أشير هنا الى بضعة أسماء عربية لامعة ، دون أن يقابلها معاصرون فى الغرب ، : جابر بن حيان ٠ الكندى ٠ الخوارزمى ٠ الفرغانى ٠ الرازى ٠ ثابت بن قرة ٠ البتانى ٠ حنين بن اسحق ٠ الفارابى ٠ ابرهيم بن سنان ٠ المسعودى ٠ الطبرى ٠ أبو الوفا ٠ على بن عباس ٠ أبو القاسم ٠ ابن الجزار ٠ البيرونى ٠ ابن يونس ٠ الكرخى ٠ ابن الهيثم ٠ على بن عيسى ٠ الغزالى ٠ الزركلى ٠ عمر الخيام ٠٠٠ انها مجموعة رائعة من الأسماء التى لا يصعب على المرء أن يضيف اليها آخرين ٠ ولو أن أحدا أشار الى جدب القرون الوسطى من الناحية العلمية ، فما عليك الا أن تجابهه بتلك القائمة من الأسماء ، الذين ظهروا فى فترة صغيرة نسبيا ، أى ما بين عامى سنة ٧٥٠ و سنة ١١٠٠م» ٠

وعلى نفس الدرب يسير الفيلسوف الأمريكى « درابر » فيقول : « تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب ، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى دراساتهم ، وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم علما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن ٠٠٠ والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها ٠٠ » ٠

و « جورج سارتون » و « درابر » ، وغيرهما من الذين أرخوا للعلم العربى ، وتحدثوا عن العلماء والمفكرين والمثقفين العرب ، الذين أنبتتهم الامبراطورية العربية الاقطاعية ، لم يكونوا مغالين فى هذه الاشادة وتلك

التقديرات(١) لأنهم انما كانوا يتحدثون عن علماء بلغ من قدسية العلم والثقافة لديهم مبلغ العقيدة الدينية ومستواها ، التى كانت ولا تزال فى المستوى الأرفع من الاعتقادات ، وهذا « أبو الدرداء » يتحدث عن علم الفلك فيقول : « ان شئتم لأقسمن لكم : ان أحب عباد الله الى الله ، الذين يرعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة ، لذكر الله » ٠

هكذا كان العلم والعلماء ، والثقافة والمثقفون فى الامبراطورية العربية ، وهكذا ولدت ونمت وعاشت احدى القسمات التى ميزت هذه الامبراطورية عن غيرها ، يوم لم تكن لغيرها من الامبراطوريات الاقطاعية مثل هذه القسمات أو شبهها أو ما يدانيها فى ذلك بحال من الأحوال ٠

---

(١) كتب « أناتول فرانس » بأسلوبه المعهود : « سأل السيد « دوبوا » مرة السيدة « نوزيير » : ماهو أكثر أيام التاريخ شؤما ؟؟!! فلم تستطع السيدة « نوزيير » الاجابة على هذا السؤال ٠ وحينئذ قال السيد « دوبوا » : ان أكثر أيام التاريخ شؤما هو اليوم الذى جرت فيه معركة « بواتييه » فى سنة ٧٣٢ ، حين تراجع العلم والفن العربيان والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية » « أى معركة بلاط الشهدا » التى ردت فيها جيوش الغال بقيادة « شارل مارتل » الجيوش العربية الزاحفة على فرنسا من أسبانيا بقيادة « عبد الرحمن الغافقى » « روجيه جارودى ٠ الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ ٠ ص ٩ » ٠

٩ -

وقديما قال الشاعر العربى :

ليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم فى واحد

وهذا البيت وان يكن قد جاء على نحو من الركاكة ، يجعله أقرب الى النظم منه الى الشعر ، الا أن ذلك لا يخرجه عن كونه تلخيصا لحقيقة من الحقائق الموضوعية التى شهدتها الانسانيـــة فى كل العصــور ، وفى ظل أى نظـام ، وفى أى مكان .

ففى ظل اى مجتمع من المجتمعات ، وفى ظروف كل حضـارة ، يوجد تطور الحياة ، وتخلق قاعدتها المادية ، بناء روحيا ومعنويا وادبيا وسياسيا ، نسميه « البناء الفوقى » للمجتمع ، ويتقدم لصياغة هذا البناء الفوقى وخلقه وابداعه والاشادة به قادة الفكر والثقافة من مشرعين وأدباء وفلاسفة وعلماء وفنانين وسياسيين واقتصاديين .

والمجتمع العربى الاقطاعى ، ككل المجتمعات الانســانية قد حدث فيه ذلك ، وحدث فيه نشوء التيار الثقافى الذى أشرنا اليه ، والذى كان تعبيرا عن القوى الأكثر تقدما فى أحشاء المجتمع ، ومن ثم تعبيرا عن النسيج التوحيـدى الذى تغزله وتنسجه المصـالح المادية والمعنـوية لهذه القوى .

وحدث فيه أيضا ما يحدث فى غيره من المجتمعات ، من مجىء مفكر او اكثر ، تقدم حياته وآثاره وسيرته وما أحدث من تفسيرات ، كتجسيد بارع لملامح العصر ، ومرآة لقيمه ومعاييره ، ونموذج مصاغ بدقة وعنـاية للدلالة على ما فى هذا البنـاء من حقائق ، سـواء منها الـكليات أو الجزئيات .

ومن هنا قال شاعرنا العربى ما قال ، فأصاب كبد الحقيقة ، وان لم يصب روعة الصياغة والتعبير .

ونموذج مجتمعنا العربى الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وعلامة تحولاته ، والتجسيد الحى لما زخرت به الامبراطورية العربية من قيم وأفكار وآفاق ، هو العالم والأديب والمفكر « أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » (٧٧٥ - ٨٦٨ م) .

وعندما يقول الأستاذ أحمد أمين ، ان الجاحظ قد « جمع فى عقله كل ثقافة عصره ، وقل أن يكون له فى ذلك نظير . » (١) ، وعندما يذهب نفس مذهبه هذا الدكتور طه حسين ، وغيرهما من المفكرين ، فانهم يقررون حقيقة عاشها المجتمع العربى ، وتنفسها ، وجنى ثمارها ، عندما استظل بظل هذا المفكر العملاق .

والمفكر الذى يستحق أن يقال عنه بجدارة ، انه مرآة عصره ، هو الذى يستطيع أكثر من غيره أن يكتشف خط سير حركة التاريخ ، ويسهم أكثر من غيره فى دفعها الى الأمام ، ويحقق فى هذا الدفع أكبر نصيب .

ولقد كانت أبرز علامات التحول التاريخى التى تشهدها البيئة العربية فى عصر الجاحظ ، هى تلك العملية الكبيرة من عمليات الصهر والتقارب والامتزاج ، التى تتم بين جماعات بشرية جاءت الى الامبراطورية العربية من أصول عرقية مختلفة ، وثقافات وعقليات متباينة ، ثم أصبحت جميعا ترفع علم الدولة العربية الكبرى ثم غدت تحث الخطا للسير فى طريق الوصول الى أن تصبح جماعة بشرية واحدة بعد أن كانت جماعات .

لقد كان الجاحظ عبقريا عندما لمس هذه الحقيقة ، فعبر عنها ، وأعطاها من المفاهيم التقدمية التى تساعد على اكتمال نموها مالم يعطه غيره من كبار المثقفين فى ذلك الحين(٢) .

وفى مقابل الذين أغلقوا على انفسهم سبل اكتشاف الحقيقة ، ولم يبصروا لغير العرب - بالمعنى العرقى - فضلا فى الحاضر ، أو فى التاريخ . وفى مقابل الذين أداروا ظهرهم لكل الامجاد والفضائل العربية . فى مقابل هؤلاء وهؤلاء ، قدم الجاحظ مفاهيم انسانية

---

(١) أحمد أمين « ظهر الاسلام » جـ٣ ص١٢٨ .

(٢) راجع فى ذلك ، علاوة على أعمال الجاحظ ، كتاب « الجاحظ . حياته وآثاره » للدكتور طه الحاجرى . القاهرة . طبعة دار المعارف .

وتقدمية عن الروابط الجديدة التى تؤلف بين العرب أنفسهم ـ بمعناهم الضيق القديم ، رغم انحدارهم من قبائل مختلفة ، واصول متعـــددة .. كنموذج للروابط التي تسلكها الجماعات الانسانية ، غير المتعصبة ، سبيلا للامتزاج والانصهـــار .

واذا كان الجاحظ قد أجهد نفسه احيانا ، واجهد الحقيقة معــه، فى الدفاع عن العرب ، واضافة فضائل لهم ومعارف لم يكن لهم منها حظ ولا نصيب ، فانما حدث ذلك كرد فعل لمغالاة « القطب الرجعى » فى الحركة «الشعوبية» ، التى أسقطت العرب من حساب الجماعات التى عرفت الفضائل والمكارم ، والخير من الصفات .

وهو لم يدافع فقط عن العرب الذين ينحدرون من أصلاب عربية، ولا عنالفرس المستعربين ، ولا عن الذين جاءوا الى حياة الحضـــارة العربية عبر آباء وأمهات أتراك ، وان يكن قد فعل ذلك ضمناوبالتبعية، وانما هو ـ وذلك هو الأروع ـ قـــد قدم مفهـــوما جديدا وان يكون ذا صلة بما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من مفـاهيم ـ للعروبة ، وللعـــرب .

فهو يتحدث فى الرسالة التى كتبها الى « الفتح بن خاقان » عن عرب « قحطان » (العاربه) ، و«عدنان» (المستعربه) ، فيقول : « .. فان قلت : كيف كان أولادهما جميعا عربا على اختلاف الابوة ؟؟ .. قلنا : ان العرب كانت واحدة ، **فاستووا فى التربية والحمية ، وفى الاخلاق والسجية .. فسبكوا سبكا واحدا ، وافرغوا افراغا واحدا، وكان القالب واحدا ... تشابهت الاجزاء ، وصارت هذه الاسبـــاب ولادة أخرى .. وان هذه المعانى قامت عندهم مقام الولادة والارحام الماسة .. وان المشاكلة من جهة الاتفاق فى الطبيعة والعادة ، ربمـا كانت ابلغ واوغل من المشاكلة من جهة الرحم »**

أفبعد هذه الصياغة العبقرية لاسس تبلور الجماعة ، أية جمـاعة من الناس ، ولعوامل الصهر والامتزاج القومى ، دليل على أن الجاحظ يمكن أن يعد فى طليعة المفـــكرين القوميين الذين عرفهم تاريخنا العربى ، ان لم يكن أسبق من أمسك هذا الخيط القومى فى التفكير من كبـــار المثقفين والعلماء ؟؟ ..

ونحن اذا أضــــفنا الى ذلك أن الجاحظ لم يضــــع الدين عاملا من عوامل تكوين الجماعة البشرية الواحدة ، وانما أشـــــار الى عوامل: التربية ، واللغة ، والسجية الواحدة ، والقيم والعادات ، والاخـلاق الواحدة . ورفع هذه الصفات والسمات المشتركة فوقسمة الاشتراك

فى الاصل العرقى ، اذا علمنا ذلك استطعنا ان نقول ، **ان مفكرنا العملاق هذا قد اقترب اقترابا شديدا ومدهشا من تحديد سمات القومية العربية** ، وهو الأمر الذى له دلالات هامة ، سيأتى الحديث عنها بعد حين .

والجاحظ لم يكن فقط نتاج قوى اجتماعية جديدة ، اخذت تتبلور فى أحشاء المجتمع الاقطاعى العربى ، بل ان فى انتاجه الأدبى لوثائق هامة على وجود هذه القوى ، وحديثا كثيرا وممتعا عن قيمها ومصالحها الطبقية ، بل الصراع الطبقى الذى كانت تخوضه هذه القوى الجديده ، سواء ضد الأمراء والنظام الاقطاعى ، أو ضد الفقراء من الناس .

والذين يقرؤون كتابه (البخلاء) ، ويرون كيف قدم الجاحظ طبقة التجار ، فى رحلاتها واسفارها ، وفى صفقاتها وبيعها وشرائها ، وفى حيلها وتقاليدها ، وفى بحثها الدائب والدائم عن الأرباح .. يرون مفكرا اجتماعيا يقدم طبقة اجتماعية ذات مصالح على شىء كبير من الخطورة فى المجتمع .

وطبقة ملاك المساكن واصحاب المحلات العامة والخانات (الفنادق) وكيف وصل الجاحظ الى أعماق النفس البشرية لهؤلاء الناس ، وابرز على السنتهم ، من خلال محاوراتهم مع المستأجرين ، حديثا صريحا عن المصالح المادية لهم كطبقة ، وشكواهم من عدم حماية هذه المصالح ، وقصور القانون عن تحقيق مايلزمهم من ضمانات .. الخ .. الخ ..

انه وثيقة اجتماعيةلايمكن لباحث أنيدرس المجتمعالاقطاعى العربى، ولا ان يكتشف ماتولد فى احشائه من قوى اجتماعية جديدة ، ومن افكار وقيم جديدة ، الا اذا وضعه فى مقدمة الوثائق التى تنير له الطريق .

والجاحظ الذى قضى عمرا طويلا فى الدراسات المتقدمة على النهج الاعتزالى ، قد كان يستشرف الأفاق البعيده ، والفنية ، من فوق أرضية علمية ، تعتز بالعقل وترى فيه مفتاح كل شىء فى عالم التفكير ، بل لقد بلغ من اعزاز الجاحظ للعقل وتحرره ، أن أعتبر أن الانسان « الآثم » ، دينيا ، هو الذى بلغته دعوة الاسلام ، وقام لديه الدليل العقلى القاطع على صحتها ، اى اقتنع عقليا بها ، ثم عاند بعد ذلك ، ولم يسلك سبيل المؤمنين . أما الذين لم تستسغ عقولهم أصول

العقيدة الدينية واسسها ، فلا اثم عليهم ولا تثريب في اختيار دين آخر ، أو في رفض أي دين لا يقتنعون به (١) .

افبعد هذا ضرب متقدم في ميدان حرية الضمير ؟؟

ولم تكن هذه الأرضية العلمية لتقف بالجاحظ بعيدا عن اكتشاف الكثير من الحقائق التي صيغت وبلورت في العصر الحديث كنظريات علمية لها تكاملها واكتمال بنيانها ، فهو الذي قرر منذ أكثر من الف عام ان « الأعراض تتبدل ، أما الجـــوهر فلا يمكن أن يفنى » ، وهو ما نعبر عنه اليوم باستحالة فناء المادة (٢) .

كما أنه كان نموذجا يجسد ذلك الشبق العربي لمعـرفة ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتها ، بصرف النظر عن السجايا والأمزجة والمعتقدات ، يتضح ذلك من قوله في كتاب (الحيـــوان) : « وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس . فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا .. وقد نقلت هذه الـــكتب من أمة الى أمة ، ومن قرية الى قرية ، ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

وهكذا كان أبو عثمان عمرو الجاحظ ، حياة غنية بالدرس والتحسيل، وطاقة انسانية أمدت الفكر العربي والحضارة العربية بانتاج أدبي وعلمي وفلسفي ، يقف تحت عنوان الفكر الموسوعي بشموخ واعتزاز .

بل ان الصورة التي انتهت بها حياة هذا المفكر ــ كما تقول بعض الروايات ــ قد جاءت تعبيرا عن نهم هذا المجتمع للمعرفة بشكل لم يعرفه هذا العصر ، ولا ذلك النوع من المجتمعات . فلقد سقطت مئات الكتب في دكان أحد « الوراقين » (باعة الورق) فوق مفكرنا العظيم ، بينما هو يبيت في الدكان ليقرأ طوال الليل .. فمات ..

ولكنه خلف لنا ثروة لا تقدر ، وغنى تكبر بمثله المجتمعات ، وأكثر من هذا ، خلف لنا ذكرى انسان مفكر ، هو علامة طريق ، وتجســـيد عصر ، ومرآة مجتمع من المجتمعات .

---

(١) ومن أجل ذلك ، وغيره ، تعرض الجاحظ لهجوم الفكر المحافظ ، وركز البعض الهجوم عليه ، حتى قالوا فيه شعرا مقذعا يهجونه به ، مثل :

لو مســـخ الخنـــزير مسخا ثانيا ماكان الادون قبـــح الجـــاحظ
رجل ينـــوب عن الجحيم بنفســـه وهو القـــذى في كـل طـرف لاحظ .

(٢) كما سبق « ديكارت » في أهمية الشك وضرورته كطريق للمعرفة ، وذلك عندما قال : « وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن لذلك الا تعرف التوقف ، ثم التثبت، كان ذلك مما يحتاج اليه » .

١٠ - واذا كانت الظروف والملابسات التى تحيط بظاهرة من الظواهر ، تأثيرات ــ وهى بالتأكيد لها ــ تدفع الظاهرة الى الأمام ، أو تعوق هذا التطور ، فلقد كان ذلك شأن الحروب الصليبية بالنسبة لظاهرة الجماعة العربية فى العصور الوسطى ، بل ان هذه الحروب ، وان تكن قد بدت ، يوم كانت مجرد خطر غير مباشر ، فى صورة ظروف وملابسات تحيط بظاهرة العروبة ، وتمثل بالنسبة لها عوامل خارجية ، فانها تحولت منذ بدء عملياتها العسكرية ، واقامة الدويلات الصليبية فى المشرق العربى ، الى مؤثرات لها فعل العوامل الداخلية وقوتها ، التى تلعب الأدوار الحاسمة فى عملية التطور ، دفعا أو اعاقة .

على هذه الصورة بدأ الاحتكاك بين العالم العربى وبين الصليبيين،ومن هذه الزاوية كان علينا أن ننظر ، حين نتعرض لهذه الأحداث ، أحداث الحملات الصليبية ، والحرب التى دارت تحت أعلام زائفة ، وفى ظل الوية ، الدين منها براء ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

فمنذ سنة ١٠٩٧ م بدأ ضد العالم العربى أغرب عدوان ، واطول عدوان شهده العصر الوسيط . أما أنه أطول عدوان ، فلأنه قد استغرق اقرنين من الزمان . اذ أن الحملات الصليبية الستة قد استمرت حتى استطاع العرب اجلاء آخر معاقل الصليبيين عن « عكا » سنة ١٢٩١ م ، وفى خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة ، اتخذ هذا العدوان الأجنبى على الأرض العربية العديدة من الأشكال : حملات مسلحة ، دسائس ومؤامرات لقلب الحكم الوطنى ، دول صليبية اقيمت على الأرض العربية ، زحف تجارى على المنطقة وضرب للمصالح العربية فيها .

واما أن العدوان الصليبى كان أغرب عدوان ، فلأن الجيوش التى تحركت للقيام به ، والملوك الذين قادوا هذه الجيوش ، والنبلاء الذين لعبوا دورا رئيسيا فى الحملات ، قد ادعو يومها أن حربهم انما هى حرب دينية ، وأنها انما قامت باسم الدين ، وأن هدف هذه الحرب انما هو « استعادة » الأرض التى شهدت مولد المسيح وصلبه ، والمدينة التى يكن لها قلب كل مسيحى أعز الذكريات ، والتى استحقت أن تدعى بحق « أم الأنبياء » .. وأن هذه الحملات الحربية ، والأحداث التى لا بستها ، انما جرت فى جو دينى ، لعبت فيه الدعاية الدينية ، والنشاط الكنسى ، والحملات المحمومة التى قادها القساوسة والكرادلة والبابوات ورجال الدين دورا كبيرا .

غير ان هذا الطلاء الكاذب ، وتلك الاعلام الزائفة ، لم تجز الا بالنسبة للمواطنين العاديين والبسطاء والسذج فى دول غربى أوروبا .

والحقيقة التى لم يعد ينكرها أحد اليوم ، أن هذه الحرب كانت عملية من اجرأ عمليات النهب الاستعمارى التى شهدتها القرون الوسطى واوقحها ، كانت حربا عدوانية من جانب الغرب ، ودفاعية من جانب العرب . كانت استعمارا أوربيا قبل أن تحدث الثورة الصناعية ، وتنمو الراسمالية ، وتعرف الامبريالية طريقها الى المستعمرات . وهى مع ذلك لم تكن نوعا من الاستعمار الذى شهدته بلاد مثل جنوب افريقيا ، حيث حلت جماعات من السكان البيض الغزاه محل السود سكان البلاد الاصليين الذين اجبروا على الجلاء عن بلادهم ، أو أبيدوا من هذه البلاد .

لقد كانت الحروب الصليبية تحمل من هذه العمليات بعض ملامحها وان كانت تختلف عنها فى التفاصيل ، والأهم من ذلك فى الأهداف .

فالعالم العربى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهو الذى شهدت نهايته بداية العدوان الصليبى ، كانت قد نمت فيه ، بشكل ملحوظ ، تلك القوى الاجتماعية غير الاقطاعية التى أشرنا اليها اشارات سريعة فيما تقدم من حديث ، وكان الموقع الجغرافى الذى يحتله العالم العربى ، وتحكمه فى اهم طرق التجارة التى عرفها العالم فى ذلك الحين ، قد جعل من الحركة التجارية العربية ، حركة تجارية عملاقة ، لا تدانيها حركة تجارية أخرى فى بلد من البلدان أو منطقة من المناطق .

والنتيجة الحسابية لمثل هذه الحقيقة لا يمكن أن تكون مجرد معرفة المبالغ التى تدخل خزائن التجار العرب من هذه التجارة ، وخزائن الحكومات العربية من الضرائب والمكوس .. لأن ذلك لم يكن اخطر

ما يخشاه الذين يحاربون العرب بذكاء ودهاء ، وانما النتيجة الحسابية الأدق والأعمق ، لمثل هذه الحقيقة ، هى بقاء العالم العربى مالكا لمثل هذه الشبكة التجارية ، ومسيطرا على مثل هذا الحجم من العمليات التجارية ، والذى سيدفع — مع نمو احتياجات أوربا السلعية — نمو طبقة التجار العرب ، ويزيد من فاعليتها ، ويعجل بالتالى اليوم الذى تستطيع فيه هذه القوى الحديثة أن تبنى المجتمع العربى الحديث ، ويومها ستكون الفرصة قد أفلتت من العدو المتربص بالعالم العربى ، ولم يعد أمامه الا أن يواجه المصير الذى انقذه منه يوما « شارل مارتل » يوم صد جيوش الفتح العربى الزاحفة على فرنسا من بلاد الاندلس ، فى موقعة « بواتييه » (بلاط الشهداء) ، حيث انسحب القائد العربى « عبد الرحمن الغافقى » سنة ٧٣٢ م (١) .

ولم يكن باستطاعة الغرب يومها أن يسلب العالم العربى امكانيات التطور والنمو فى هذا الاتجاه بتحويل التجارة مثلا ، كما حدث عند اكتشاف طريق « رأس الرجاء الصالح » ، بعد ذلك بأربعة قرون ، ولا ان يمتنع عن التعامل التجارى مع العرب ليوقف نموهم الذاتى ، لأن ذلك سيعود على الغرب بالخسارة والقصور .

ووجدت هذه القوى المعادية انفسها أمام هذه الحقائق التى يزخر بها الواقع العربى ، فشنت هذا اللون من العدوان السافر المكشوف ، لاقامة دويلات صليبية على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط ، وحصون وقلاع على الطرق التجارية فى بلاد الشام .

واخذ فرسانها ونبلاؤها يعملون بجد ونشاط لاحراز السيطرة على شبكة الطرق التجارية ، لسلب العرب ما هو أهم من الثروة التى تحققها لهم التجارة ، لسلبهم امكانيات التطور الواسعة المفتوحة أمام القوى الاجتماعية الجديدة التى تنمو بسرعة فى أحشاء المجتمع الاقطاعى ، وتبشر بامكانيات بناء دولة عربية حديثة قبل أن تستطيع أوربا بلوغ مثل هذا التطور بأكثر من خمسمائة عام .

والذين لا يدركون ولا يبصرون هذا « المقتل » الذى رمت فيه الحروب الصليبية ، واتجاه الضربة التى سددها لنا الأعداء ، لن يستطيعوا أن يحددوا خطورة هذا المسلك ، ولن يستطيعوا تقديم تفسير علمى لذلك التحالف الذى قام يومها بين قوتين متناقضتى المصالح والأهداف : البرجوازية التجارية الأوربية ، فى مدن أوربا التجارية ،

---

(١) كما رأت الرجعية الكنسية فى الحروب الصليبية فرصة للقضاء على مراكز الفكر العربى الاسلامى المتقدم ، الذى أخذ يقض مضاجعها فى ذلك الحين .

من جانب ، والقوى الاقطاعية والكنسية ، من جانب آخر . وذلك السعي الحثيث الذي قامت به قوى أوربا التجارية في ذلك الاتجاه .

لقد كانت دول المدن التجارية الأوربية : مثل : « البندقية » و « برشلونه » و « بيزا » و « جنوا » و « فلورنسا » و « فينيسيا » ، ترى في الحروب الصليبية فرصة ذهبية للقضاء على القوى البحرية التجارية النشطة للعرب ، الى جانب تحقيق الأرباح الهائلة نتيجة للانفاق والاقراض اللازمين للعمليات الحربية والتسليح وتجييش الجيوش .

ولقد دخلت بعض هذه المدن التجارية في اتفاقيات صريحة ، مع معظم جيوش الحملات الصليبية ، فكانت هذه المدن تسلح وتمون الجيش الغازي ، وفي حالة انتصاره يكون لتجار هذه الدولة احتكار التجارة في سلع بعينها ، ومتاجر بعينها ، وأحياء بعينها ، في المدن العربية المفتوحة والمحتلة .

كما رأت هذه المدن التجارية في الحروب الصليبية ، من جانب آخر ، فرصة لمزيد من البيع والشراء في السلع التي تلزم العرب بسبب قيام هذه الحرب ، أي أن هؤلاء التجار كانوا يرون في هذه الحرب فرصة للاثراء على حساب كل من العرب وأمراء أوربا الاقطاعيين !! .

وفي الوقت الذي كانت تسيل فيه الدماء على الأرض العربية ، دماء العرب ، ودماء «حملة الصليب» ، كان التجار الأوربيون يبيعون للعرب ، حتى المواد الاستراتيجية والأسلحة التي يوجهها العرب الى صدور الصليبيين ، مما اضطر الكنيسة الى أن تصدر قرارا بأن « كل من يجرؤ على أن يبيع للعرب حديدا أو اسلحة أو خشبا لبناء السفن ، أو بيعهم قوارب جاهزة ، أو يدخل في خدمتهم كربان سفينة أو قائد ، فان جزاءه سيكون الحرمان من الغفران ، فضلا عن مصادرة أمواله وحريته الشخصية »(١) .

ورغم قسوة هذا القرار ، ورغم تهديده ، لا بالحرمان من الجنة فقط ، وانما بالمصادرة والاعتقال ، الا أن تجار أوروبا لم ينفذوا هذا القرار ، فاضطرت الكنيسة الى التراجع ، والى أن تجعل هذا القرار منصبا فقط على التجارة في المواد الاستراتيجية وحدها .

والى جانب هذا الدور الذي قامت به القوى التجارية الأوروبية في تمويل هذه الحرب ، فرضت السلطة الاقطاعية على شعوبها الضرائب

---

(١) راجع : محمد على الغتيت « الغرب والشرق من الحروب الصليبية حتى حرب السويس » .

والمغارم للقيام بعمليات التمويل . وفى انجلترا وافقت الكنيسة سنة ١١٨٧ م على أن يفرض الملك « هنرى » ضريبة مقدارها « العشر » ، للانفاق على الحروب الصليبية ضد جيوش صلاح الدين الأيوبى ، عرفت بـ « عشر صلاح الدين » !! .

وهكذا كانت الحروب الصليبية حربا عدوانية ، وحملة استعمارية لاعاقة تطور المجتمع العربى ، ووقف نمو القوى الاجتماعية المتقدمة والجديدة فيه ، حربا ارتكزت على اعمدة ثلاث :

* البرجوازية الأوروبية المتخلقة بأخلاق القراصنة واللصوص .
* والقوى الاقطاعية الأوربية العاتية .

* والرجعية الكنسية المتحصنة بالكنيسة الكاثوليكية ، وغيرها من الكنائس ، تحت قيادة البابا .

ولو كان لهذه الحرب حظ ولو ضئيل من القيم والأفكار والأهداف الدينية ، لما صدق عليها ذلك التعبير الذى قاله عنها « غليوم دى‌تيرن » « ان الصليبى كان يرى فى الشرقى — فحسب — عدوه اللدود ، مسلما كان الشرقى أو مسيحيا » . بل ولما وقف مسيحيو الكنيسة الشرقية وسكان بيزنطة المسيحيون موقف العداء من الجيوش الصليبية الزاحفة على الشرق ، ولما عامل الصليبيون هؤلاء المسيحيين كما يعامل الأعداء ، فنهبوا ديارهم ، بل وتركوا عديدا من مدنهم مسرحا للدمار والخراب .

على أن هذا لم يكن غير جانب واحد من جوانب الأحداث التى نطلق عليها اسم « الحروب الصليبية » ، أما الجانب الآخر لهذه الحرب ، فذلك المد الثورى الذى اتخذ شكل رد فعل لهذا العدوان ، والذى رفع روح الجماعة العربية الى مستوى عال من الحيوية والنشاط ، فلقد أخذت أجزاء العالم العربى تضع أيديها فى يد بعضها البعض ، وتطرح جانبا مابينها من خلافات وتناقضات ، ويلتئم شملها خلف قائد عبقرى هو صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ — ١١٩٣ م) ، ذلك العبقرى الذى تحدث عنه وعن دوره المؤرخ الأوربى «شامبدور» فقال : « كما تمكنت فرنسا ، بفضل البابوات ، من زعامة الغرب والمسيحيين ، فقد تمكنت مصر أيضا ، بفضل صلاح الدين من الزعامة على الاسلام والعرب قاطبة » .

ونحن اذا شئنا أن ندرك بحق عمق ذلك المد الثورى الذى أحدثته فى العالم العربى اعتداءات الصليبيين ، وأبعاد الانتفاضة التى شهدتها الجماعة العربية فى مواجهة هذا العدوان ، فان علينا أن ندرك كيف أن

القوى العارمة لحركة المقاومة هذه ، ولعملية الصهر والتــلاحم التى حدثت ، قــد كانت كفيلة بجعل رجل كردى الأصل كصــلاح الدين الأيوبى يستحيل الى بطل عربى ، وقائد قومى ، واســطورة تعشقها قلوب ملايين العرب ، وتهفو لذكرها وذكراها نفوسهم حتى الآن .

ان هذا النموذج من التلاحم بين القيادة والقاعدة ، انما يحتاج الى طاقة ثورية هائلة تحيط بالظاهرة ، ظاهرة القاعدة والقيادة ، وهى أكثر احتياجا لطاقة أكبر عندما تكون هناك حوائل تحول دون الالتحام والامتزاج ، كأن يكون القائد من جنس آخر غير جنس القاعدة ، وهــو ماحدث بالفعل فى هذا المثال .

لقد صهرت حرارة المعركة ضد العدوان الصليبى صلاح الدين فى المعركة ، ووحد الخطر الماثل أمانى هذا القائد بأمانى الجماعة العربية الكبيرة ،فتحول الى «كنز بشرى» ، وذخيرة اسطورية، عاشتوتعيش فى نفوس الملايين .

على أنه قد كانت لأحداث العدوان هذه ، آثار سلبيــة على تطور القوى الاجتماعية الجديدة فى الوطن العربى الـكبير .. آثار حققت للقوى الواقفة خلف العدوان الكثير مما هدفت الى تحقيقه ، ومما رامت الوصول اليه .

فعنـدما دهم الخطــر الصليبى الأرض العربيــة لم تـكن القــوى الاجتماعية الجديدة ، اى التجــارية بوجــه خاص ، وبتعبــير آخر : « البورجوازية العربية » فى طور من النمو والقدرة والصلاحيات تجعلها قادرة على قيادة المجتمع ، ومن ثم قيادة عمليات النضال ضد هـــذا العدوان ، فكان لابد وان تتحمل القوى الاقطاعية العربية هذا العبء ، وان يسير كل المجتمع خلفها فى هذا الســبيل ، ولقــد كان الخطر الصليبى فرصة لا لضم شمل الأمارات والولايات العربية خلف صلاح الدين الأيوبى ، كقائد اقطاعى بارز وعظيم ، فحسب ، بل ولتوحيد كل الطبقات فى المجتمع العربى خلف هذا القائد العظيم ، ومن ثم فلقد كانت الحروب الصليبية مرحلة من الأحداث الـكبرى اتاحت للاقطاع العربى فترة من استرداد الحيوية والنشاط(١) .

(١) انظر خريطة دولة صلاح الدين فى آخر هذا الكتاب .

كما اعطت هذه القيادة الاقطاعية الشابة التى تمثلت فى صلاح الدين وغيره من السلاطين الأيوبيين للدولة الاقطاعية العربية دفعة قوية مدت عمرها ، وسمعة طيبة للنظام الاقطاعي العربي على حساب القوى الاجتماعية الجديدة فى ذلك المجتمع . وكان ذلك قسط من النجاح ، غير المباشر ، حققته اهداف القوى العدوانية التى أذكت نار الحروب الصليبية ، ومولتها ودفعت اليها بالدعاة والمحرضين .

كما أن المدن والدويلات الصليبية التى أقامتها القوى المعتدية فى أجزاء هامة وحساسة من المشرق العربى ، قد وجهت ضربات غير يسيرة للحركة التجارية العربية ، اما فى الشكل اعاقة لطريق القوافل ، أو استيلاء على عدد من الموانىء الهامة ، أو عن طريق الاستيلاء على جزء من حجم التجارة التى كانت تستأثر بها القوى التجارية العربية .

كما أن الاحتكاك الذى حدث بين الصليبيين وبين العرب قد جعل بعض السلاطين الأيوبيين ، فى لحظات من الضعف ، سميت خطأ فى التاريخ تسامحا ، يعقد مع الدول التى قادت الحروب الصليبية من المعاهدات والاتفاقات التجارية ، ما كان يومئذ ، واصبح بعد ذلك ، سلما لامتيازات تجارية واقتصادية أضرت بحركتنا التجارية ، ومن ثم بالقوى الاجتماعية الجديدة النامية فى أحشاء عالمنا العربى ودوله الاقطاعية فى ذلك الحين .

وهكذا ... فاننا نجد أن الحروب الصليبية ، حتى بعد انحسار موجتها عن العالم العربى ، وبعد أن أجلى العرب آخر قواتها عن «عكا» آخر معاقلها سنة ١٢٩١ م قد سببت لحركة التطور العربى واستمرت تسبب لقوى المجتمع العربى الحديث ، الكثير من الأضرار ، كما حققت ، واستمرت تحقق للقوى المعادية للعروبة ، الكثير من الأهداف مدة قرنين ، بل وأكثر من قرنين من الزمان .

١١ -

على أن هذه الصورة التي عرضنا ملامحها للخطـــر الصليبي الذى أحاق بالعالم العربى ، لم تكن الا صـــورة المرحلة الأولى من مراحل هذا الخطر الكبير . اما المرحلـــة الثانيـة من مراحل هـذا الخطر ، فهى التى اتخذت شـــكل التحالف بين الخطر الصليبى وبين الزحف المغولى المدمر ، على العالم العربى . ذلك الزحف الذى أصبح يضرب به المثل فى الابادة والتخريب والافناء .

واذا كانت الحملات الصليبية على العالم العربى قد اتخذت شكل حملات عسكرية كبرى ، فلقـــد شن المغول المتوحشون ثلاث حمـــلات رئيسية ضد هذه المنطقة من العالم ، وشاءت ظروف التطـور الداخلى للعالم العربى ، وتوزيع قواه وقواته ، أن تتحمـــل مصر ، قلب الوطن العربى ، عبء قيادة النضال لهزيمة المغول ، كما تحملت العبء فى هزيمة الصليبيين . فقاد الظاهر بيبرس البندقدارى المعارك التى هزمت فيهـا الحملة المغولية الأولى فى شمال فلسطين سنة ١٢٦٠ م ،وكان الصليبيون يومها لا يزالون يحتلون أجزاء من المشرق العربى .

اما الحملة المغولية الثانية ، فلقد قاد معارك دحرها وهزيمتها ،خلف الظاهر بيبرس ، السلطان « قلاوون » على أرض سوريا . كما قام المماليك بالاجهاز على الحملة المغولية الثالثة فى سوريا كذلك سنة ١٣٠٠ م ،ولم يكن للصليبيين يومها اية مواقع فى أى جزء من أجزاء عالمنا العربى .

وبحكم وحدة المصالح التى تجمع قوى العدوان الصـــليبى وقوى العدوان المغولى ، كانت المحاولات المتعددة التى بذلها الصـــليبيون لاقامة حلف غير مقدس يجمع القوتين المعتديتين على العالم العربى .

* ففي سنة ١٢٤٥ م ارسل البابا « اينوسنت الرابع » منــدوبه « جون ده بيانى كابرينى » الى منغوليا للتمهيد لعقد هذا الحلف .

* وفي سنة ١٢٤٨ م أرسل القديس لويس مندوبا خاصا يجــدد المسعى فى هذا السبيل ، وذلك عقب مخادثات دارت بين رســــــل « خاقان » التتار « جغطاى » ورسل القديس لويس فى (قبرص) أثناء مرور الجيوش الصليبية الفرنسية بها ، وهى فى الطريق لغــــزو مصر (١٢٤٨-١٢٤٩م) .

* وفي سنة ١٢٥٢ م أرسل القديس لويس بعثة أخرى يقودها رجل الدين « جيوم ردبروك » الى بلاط السلطان المغولى « منكوقا آن » فى مدينة « قراقورم » لنفس الغرض . كما وصلها فى نفس العام «هيتوم» أحد ملوك الأمارات الصليبيـــة (قيليقية) « أرمينية الصغرى » والذى أقنع السلطان المغولى بحملة مشتركة (مغولية ــ صليبية) على العــالم العربى ، وعندها كلف السلطان أخاه «هولاكو» بقيادة الزحف المغـــولى الشهير . واستثنى هولاكو من مذبحة بغداد سكانها المسيحيين ســـنة ١٢٥٨ م . وانضم «هيتوم» بجيش صليبى الى الحملة المغولية ، وتقدم البطريق الأرمنى المسيحى ليمنح البركة القدسية للمغول الوثنيين فى الحرب ضد العرب والمسلمين !!

ولقد استطاع الصليبيون أن يستفيدوا فى هذا الصدد من نفــوذ عدد من رجالات الدولة المغولية الذين كانوا يعتنقون المسيحية علىمذهب النساطرة ، والذين كان من بينهم قائد الجيش «كتبغا» ، بل واحـــدى زوجات الســـــلطان الأثيرات لديه « دوقوزخاتون » .. هؤلاء الرجال والنساء الذين جعلوا الحملة المغولية تتجه الى الجنوب الغـــربى ، أى العالم العربى ، بدلا من الشمال الغربى ، أى أوربا ، كما كان مقدرا لها فى البداية . (١)

وأمام هذا الحلف غير المقدس ، والخطر المحدق بالعــرب من الشرق والغرب والشمال ، دفعت الحضارة العربية بموجة حيوية جديدة ،كتلك التى دفعت بها لتحمل صلاح الدين الايوبى ، وكان الفارس الذى ركب المد الثورى والقومى هذه المرة هو الظاهر بيبرس البندقــدارى . ذلك

---

(١) راجع فى ذلك الفصل الذى كتبناه عن هذا الحلف فى كتابنا « اسرائيل .. هل هى سامية ؟؟ » و د. فؤاد عبد المعطى الصياد « المغول فى التاريخ » ص ١٣١ ــ ١٣٣ ، ١٩٣ ــ ١٩٤ ، وكذلك د. فيليب حتى « تاريخ العــرب « مطول » ج ٣ . ص ٧٧٦ ، والأستاذ أمين الخولى « صلات بين النيل والفولجا » ص ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ .

القائد الذى حولته الأحداث من مملوك نشأ غريبا عن المجتمع العربى ،الى أسطورة عربية مصرية يغنيها الشعراء الشعبيون ، ويرددها الفلاحون ويعيش فى أمجادها وانتصاراتها كل الناس ، وتؤلف قطاعا هاما من قطاعات التكوين النفسى المشترك لدى الجماعة العربية فى كل مكان.

وكرد فعل لهذا الحلف « المغولى ــ الصليبى » ، هاجم بيبرس الامارات الصليبية ، وانتزع منهم فى أعوام ١٢٦٥ ــ ١٢٦٨ م مدن « يافا » و « قيصرية » و « الناصرة » و « أنطاكيه » ، ومهد بذلك الأرض لخلفائه من المماليك الذين انتزعوا من الصليبيين آخر حصونهم « عكا » سنة ١٢٩١ م .

على أن الظاهر بيبرس لم يحقق فقط كل هذا المجد وتلك الانتصارات، ولم ينل هذه الشعبية وذلك التقديس فحسب ، بل لقد صنع مالم يصنعه حاكم اقطاعى فى مثل ظروفه فى ذلك الحين . ففى معركة « المنصورة » التى لعب فيها الظاهر دورا بطوليافى هزيمة الحملة الصليبية ، وأسر قائدها وملكها القديس لويس التاسع ، فى هذه المعركة قام الظاهر باشراك العنصر الوطنى المحلى فى القتال ، بشكل منظم وخطة مدروسة، ولم يعتمد ، فقط ، كسابقيه من القواد والسلاطين على الجيش المرتزق وفرسان المماليك .

وهذه الحادثة البسيطة ، فى مثل هذا الجو ، وذلك التاريخ ،ومن قائد مملوك ، لابد وأن تسترعى الانتباه ، ولعل فى تكوين الظاهر بيبرس وتفكيره ، الذى جعل منه قائدا ينحو هذا المنحى وأمثاله ، ما أهله لأن يحتل فى ميادين النضال المكانة التى احتلها ، وفى سلسلة التاريخ والتراث العربيين أرفع مكان . وكيف لا ... وهو الذى ارتبطت باسمه ومواقعه ونضالاته حماية مصر ، قلب العالم العربى، وانقاذ مقومات العروبة القومية من الهلاك والدمار .

وتحت قيادته ، وقيادة صلاح الدين الأيوبى ، من قبله ، عاشت الحضارة العربية لحظات انتصار ، وتحولت المخاطر التى أحاقت بها الى مناصر ايقاظ وتنبيه ، بعد أن اراد لها العدو أن تكون مقبرة يدفن فيها العرب وحضارتهم القومية ، ويبيدهم كما اباد شعوبا أخرى كثيرة كانت تعيش فى آسيا وافريقيا وأمريكا ، وورث أوطانها ، وسلب ونهب مافيها من ثروات وامكانيات .

١٢ـ وككل مجتمع اقطاعى ، كان التفكك السياسى ،والانقسام الى امارات ودويلات صغيرة وكبيرة ومتوسطة ، متحالفة ، ومتنافسة ، ومتعادية ... سمة اتسم بها المجتمع الاقطاعى العربى ، ومرحلة مرت بها الامبراطورية العربية ، ومصيرا انتهت اليه السلطة المركزية للاقطاع التى حكمت من دمشق ثم بعد بغداد .

ففى القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ، وعلى سبيل المثال فى سنة ٣٢٤ هـ (سنة ٩٣٥ م) نجد خريطة العالم العربى على هذه الصورة :

أحد عشر بلاطا تقتسم حكم الجماعة العربية فى المنطقة الواقعة ما بين المحيط الاطلسى والخليج العربى ، وذلك عدا العروش الكثيرة التى بدات تزخر بها أسبانيا (الأندلس) فى ذلك الحين :

* ففى « **البصرة** » ، دولة على رأسها «ابن رائق» .

* وفى « **فارس** » ، دولة « بنى بويه » .

* وفى « **اصبهان والرى والجبل** » ، يحكم « أبو على الحسن ابن بويه » .

* وفى « **الموصل وديار بكر وربيعة** » ، يحكم سلطان « بنى حمدان » .

* وفى « **مصر والشام** » يحكم « الأخشيديون » .

* و « **افريقية (تونس) والمغرب** » تمثل قاعدة الدولة « الفاطمية » النامية .

* أما « **خراسان وبلاد ما وراء النهر** » ، فكانت في يد «السامانيين» •

* و « **طبرستان وجرجان** » ، في يد « الديلم » •

* و « **خوزستان** » ، في يد « البريدي » •

* أما القرامطـــة ، فان دولتهم كانت تشمل « **هجـــر واليمامة والبحرين** » •

* وبعد ذلك يأتي حظ البلاط « المركزي » ، بلاط بني العباس ، الذي يحكم « **بغداد وما حولها** » ، حكما أقصى ما يمكن أن يقال فيه ، انه على سبيل المجاز ؟!!(١)

ولم تكن العلاقة بين هذه الدول والدويلات ، والممالك والامارات ، بخالية من كافة أشكال الدس والتآمر والخيانات والمحاولات الانقلابية ، وليس غير الحروب والأخطار الخارجية التي تعرضت لها هذه المنطقة من قبل الصليبيين تارة ، والمغول أخرى بل ومن قبلهما متحالفين مرة ثالثة، هي التي قللت هذا التفكك والتحلل ، وما يصاحبه من مظاهر وأعراض•

هذه الحقيقة عاشها العالم العربي ، وشهدها مجتمعنا الاقطاعي ، كما عاشتها وشهدتها كل المجتمعات الاقطاعية في العصور الوسطى •

وبعض الكتاب يقفون في دراسة هذه الظاهرة عند هذا الحـــد ، ثم يستخدمون ذلك في استخلاص ما يريدون استخلاصـــه من نتائج ، وما يريدون ترتيبه على ذلك من آثار •

والبعض الآخر يخطو الى الأمام خطوة ، فيؤكد أن هذه التجزئة لم تحل دون ازدهار علمي وفني وأدبي شهده القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، لأنه في ظل التجزئة كثيرا ما تزدهر الفنـــون والآداب ، لأن الدويلات والامارات المتعددة ، تجد في الميدان العلمي والفكري أحـــد ميادين تنافسها ومباراتها ، وما بينها من سباق(٢) •

---

(١) ويلاحظ أننا قد ذكرنا في هذه الخريطة السياسية للعالم العربي أسماء « دول » وامارات ليست قائمة ما بين المحيط والخليج ، وذلك لأن هذه « الدول » والامارات كثيرا ما كانت تمد حدودها ، أو نفوذها ، الى مناطق عربية مما يدخل في صميم الوطن العربي ، فكيانها لم يكن معزولا عن التجزئة العربية •

(٢) ووصفا لذلك يقول أحد مؤرخي الحضارة العربيـــة : « ان ولاة الأقاليم الوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليـد في الانفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء في طلبه ، وكانمن أثر ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من « سمرقند » و « بخارى » الى « فاس » و «قرطبة»

وفي هذا الصدد نجد عديدا من النماذج التى شهدتها حركة التاريخ، تقدم لنا أكثر من سند وأكثر من برهان • ففى أيام الاغريق ، وفى الفترة ما بين سنة ٤٣١ و سنة ٤٠٤ ق٠م حـــدثت حروب شهيرة عـــرفت فى التـــاريخ بحرب « البيلو بونيز » بين « أثينا » و « اسبرطة » ودويلات اغريقية أخرىَ ، ورغم هذا التفكك الذى كانت تعكسه هذه الحروب ، وآثار التفكك التى أضافتها ، فلقد بلغ الفكر والفن والحضارة الاغريقية ، والتى كانت رباطا مشتركا بين هذه الجماعات ، ونسيجا يجمع هؤلاء النـــاس ويشد بعضهم الى بعض ، بلغت فى هذا العصر قمة الخلق والابداع •

وفى ايطاليا عصر النهضة والبعث والاحياء ، كانت هذه الأمة مقسمة الى دويلات عدة وامارات متعددة ، بعضها ملكى وبعضها جمهورى، ومنها الجمهوريات التجارية ، والامارات التى يسيطر عليها الاقطاع ، بل يجمع السلطة الزمنية فى بعضها الى السلطة الروحية رجال الدين • ولم يمنع ذلك الوضع المتسم بالتفكك والتجزئة اللذين سادا ايطاليا أن تشهد هذه الرقعة من الأرض الأوربية ذلك العصر المجيد ، عصر الاحياء ، وأن تقدم للانسانية أشياء رائعة ، وكنوزا ذات أثر حتى الآن فى فـــكر الانسان وعقله •

والأندلس ، على عهـد ملوك الطوائف ، هذا العهـد وهؤلاء المـلوك الذين ضربوا مثلا لا يجارى فى التفكك والتجزئة وانقسام شبه الجزيرة الى عشرات الامارات والولايات ، حتى أن شاعرا عربيا قد استثارته هذه الصورة ، فقال :

مـمـــا يزهـــدنى فى أرض أنـدلس
ما بين « معتصم » فيها و «معتضد»
ألقـــاب مملـــكة فى غـير موضعها
كالهر يحكى، انتفاخا،صورة الأسد!!

ان هذا العهد الذى قدم هذا النموذج من التجزئة والتفـــكك ، هو الذى قدم تلك الحضارة العربية المتكاملة ، والتى لم يستفد بها العـرب وحدهم ، بل وكانت الشعلة التى سارت على ضوئها طلائع عصر النهضة الأوربية ، والمنارة التى أبصرت أوربا على هديها أسس ما تعيشه اليوم من فكر وفن وتقدم • لقد كانت الأندلس يومها جامعة تعلمت فيها أوربا، وخطت فيها أولى خطواتهـا نحو التقدم ، ومن يومها غادرت أوربا محيط التخلف والظلام والاقطاع •

وكل هذا حق •• وجميع ذلك صدق •• ولكن الوقوف عند هـــذه الخطوة التى خطاها بعض الباحثـين والدارسين ، ونحن بصدد دراســة

ظاهرة التجزئة التى أصابت المجتمع العربى الاقطاعى ، أمر لا يكفى ، وموقف لا يرضاه المنهج العلمى فى الدراسة ، اذ أن دراسة هذه الظاهرة من ظواهر المجتمع العربى الاقطاعى لا بد وأن تتم فى ارتباطه بطبيعة هذا المجتمع ، تلك الطبيعـــة المختلفة ، الى حد كبير ، عن طبيعـــة المجتمعات الاقطاعية الأخرى ٠

ومن هنا كانت الطبيعة المختلفة لظاهرة التجزئة فى المجتمع الاقطاعى العربى عن مثيلاتها فى غيره من المجتمعات ٠ ففى الوقت الذى تسير فيه الأمور فى المجتمع الاقطـــاعى نحو مزيد من التجزئة والتفـــكك ، بحكم انقسامه الى مجموعة من الامارات والولايات يسيطر عليها أمراء الاقطاع ، نجد أن هذا الطريق لم يكن مفتوحا أمام المجتمع العربى ، بنفس الاتساع الذى انفتح به أمام غيره من المجتمعات ، بل اننا نجد أن الأسس المادية لهذا المجتمع ، والقاعدة الاقتصادية التى تحمل بناءه الفوقى ، انما كانت تشد هذا المجتمع الى التوحيد ، والترابط ، والالتقاء ٠

حدث ذلك بفعل السمات الخاصة للاقطاع العربى ، وأيضـــا بفعل العوامل والظروف الموضوعية التى نمت فى أحشاء هذا المجتمع ، والتى كانت جنينا لمجتمع أكثر منه تقدما ، وهذا التبكير فى النمو ، كان خاصية ثانية لهذا المجتمع لم تشهدها كثير من المجتمعات ٠

ولهذين السببين اللذين سنتحدث عنهما فيما بعد ، لم تكن التجزئة الاقطاعيـــة للامبراطورية العربية ، قطيعـــة وادارة ظهر ، ولا هى كانت بالتدابر والانفصام ٠

فنحن نستطيع أن نقول ان هذه الفترة الزمنية التى تحولت فيهـــا الامبراطورية العربيـــة من عهد الحكم المركزى الى عهد الدول والممـالك والامارات ، كانت هى الفترة التى أخذت فيها الحضارة العربية ، بمفهومها الحديث ، تتحول الى واقع يعيشه الناس ، وحياة يتنفسها العرب فى كل مكان ٠ وأن هذه التجزئة **انما كانت صورة لتحول الامبراطورية الواحدة الى حالة جـــديدة ، هى الحضـارة الواحدة ، التى تعيش فى عـــديد من الولايات** ٠ وأن هذه الفترة الزمنية انما كانت بداية العهد الذى أخذ فيه سكان العالم العربى يتحدثون عن أنفسهم كعرب ، وعن ثقافتهم كثقافـة عربية ، وعن قيمهم وحضارتهم كقيم وحضارة عربية ، بل وهى الفـترة التى بدأت فيها هذه الملايين التى تعيش على الرقعة العربية تتكلم وتفخر، ككل ، ولأول مرة ، باللغة العربية ، وتهجر ، وتسقط من حقلها الفكرى

والثقافى والدينى ، بل ومن مجال حياتها المعيشية اليومية ، ما كان لها قديما من لغات(١) ٠

ان عصر التجزئة هذا كان العهـــد الذى أخذت تنمو فيـــه الأسس والمقومات العربية الجديدة ، لتعطى ثمرتها الجـديدة ، ولم يكن غير هـذا المجتمع العربى قد وصل الى مثل هذا المستوى فى ذلك التاريخ ٠

نعم ٠٠٠ لقد حدث ذلك ، **لأن هذه الحدود التى اقيمت على خريطـة العالم العربى ، وتلك الحواجز التى شاء لها الحكام فى عصر التجزئة أن تفصل بين أقاليم الامبراطورية الكبيرة ، لم تكن سوى حواجز وفواصل بين نفوذ هؤلاء الأمراء والسلاطين والولاة والحـــكام ، وسلطانهم ٠ فهم وحدهم الذين كانوا لا يستطيعون تخطى هذه الحـــدود ٠ أما غير هؤلاء الحـــكام ، من القوى الحقيقيـة التى كانت تصنع مصير الجماعة العربيـة ومستقبلها ، فانها لم تعرف هذه الحدود ، أو هى استفادت أحيانا من قيام هذه الحدود ٠**

فالاشعاعات الفكرية العربية ، لم تعرف الفواصل بين الجماعة التى تتكلم العربية فى يوم من الأيام ، ولم يكن ذلك قاصرا على تبادل الكتب والأفكار ، ولا هو فقط فى نطاق الرحلات العلمية التى كانت تموج بهـا أنحاء المنطقة ، سالكة ذلك الدرب الذى خطا عليه الامام « البخارى » الى معظم آفاق البلاد ، والتى جعلت عالما مصريا كأبى جعفر النحاس يرحل لدراسة النحو فى بغداد ، و « ابن بابشاذ » المصرى يذهب الى العراق فى شأن من شئون التجارة فى الجواهر ، فيأخذ علم النحو عن أهلها ، والتى جعلت من أبى الطيب المتنبى مرآة عصر العرب الاقطاعى ، سواء فى حلب أو مصر أو العراق ، ومن « ابن بطـــلان » الطبيب البغدادى مناظرا فى القاهرة للعلامة « ابن رضوان » ، والتى جعلت من بلاط « سيف الدولة الحمـــدانى » (مجمعا) علميا وثقافيا وأدبيا ، فيـه الى جانب المتنبى ، الخوارزمى ، وأبو على الفارسى ، وابن جنى الموصلى ، وغيرهم كثيرون ، والتى جعلت من ابن خـــلدون ، ابن الشمال الافريقى ، وعالم تونس ، ومكة ، نزيل القاهرة ، وأحد قادة الفكر فيها ، أخريات حياته الغنيـــة بالفكر والابداع ٠

---

(١) يقول « الدميلى » فى كتابه « العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى » يقول عن (العربى) : « انه كل من كان خاضعا للتأثير المباشر أو غير المباشر للمحيط الذى أوجده الفتـــح الاسلامى ، وما حققه الخلفاء فى الدولة العربيـــة ٠٠ وحققته الدول التى بقيت اسلامية بعد استقلالها ٠ »

بل ان الكثير من الأعمال الفكرية التى حفل بها التراث العربى فى تلك المرحلة ، انما جاءت وليدة دراسات مشتركة ، ساهم فيها العالم العربى والعلماء العرب ، والمدارس الفكرية العربية ، والحلقات الدراسية الجمعية ٠

وهذه الجمعيات الفكرية والعلمية والثورية ، والحركة الثقافية ، اللذين تحدثنا عنهما ، وما كان لهما من سمات قومية ، هى رصيد يضاف الى حديثنا هذا الذى نريد به تأكيد الجوهر التوحيدى لعصر التجزئة الذى شهدته الامبراطورية العربية ٠

بل اننا نستطيع أن نلفت النظر الى موقف فكرى وسياسى قد استقطب الأغلبية الساحقة من مفكرى الاسلام ومجتهدى الحضارة العربية الاسلامية وبناتها ، وذلك هو الموقف من « الامامة » والشروط الواجب توافرها فى « الأمام » ، اذ جعلوا شرطه الأول أن يكون من أهل « الاجتهاد »(١) ٠ فاذا عرفنا أن تعريف « الاجتهاد : هو أن يعرف من القرآن والسنة ما يتعلق بالأحكام ، وخاصه وعامه ، ومجمله وبينه ، وناسخه ومنسوخه ، ومتواتر السنة وغيره ، والمتصل والمرسل ، وحال الرواة قوة ضعفا ، **ولسان العرب لغة ونحوا** ، وأقوال العلماء من الصحابة فمن بعدهم ، اجتماعا واختلافا ، والقياس بأنواعه »(٢) ٠

اذا علمنا ذلك أدركنا تلك العلاقة الوثيقة ، بل الوحدة التى لا تنفصم بين العروبة ولسانها وملامحها وثقافتها وحضارتها وبين منصب « الأمامة » والشروط الواجب توافرها فى « الامام » ، وهى ركن هام من أركان النظام الاسلامى ، اعتقادا وسياسة لدى جمهرة كبيرة من المجتهدين والباحثين ، ومن ثم مكان العروبة من الفكر التشريعى والبناء الحضارى الذى عرفته الحياة العربية فى ذلك التاريخ ٠

بل اننا لنجد ما هو أكثر من ذلك فى الدلالة على صلة العروبة بكثير من زوايا الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية حتى فى أخص زواياها الاعتقادية وجوانبها الروحية ، وهاهو ذا الامام المجتهد حجة الاسلام أبو حامد للغزالى ، والذى لم يمنعه أصله الفارسى ، ونظرته الانسانية الاسلامية الصوفية ، من أن يعتز بالعربية والعروبة ، ويبصر ارتباطها العضوى والشديد بالاسلام ، لا كنظام حكم وحضارة وثقافة فحسب ، بل وكعقيدة كذلك ، فيتحدث عن السمات التى تتميز بها « الأمة العربية »

---

(١) د٠ ضياء الدين الريس « فالنظريات السياسية الاسلامية » ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤ (نقلا من «المنهاج» للنووى جـ ٨ ص ٨٢) ٠

في فهم القرآن الكريم وتأويل المتشابه من آياته ، وصفات الذات الالهية التى وردت فيه(١) ٠

كما يطلب عـــدم ترجمة صفات الله سبحانه وتعالى الى أية لغة غـــير العربيـــة ، حتى الفارسية والتركيـــة « بل لا يجـوز النطق الا باللفظ الوارد ، لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد فارسية تطابقها ، ومنهـــا ما يوجد لها فارسية تطابقها ، لكن ما جرت عادة الفرس باســـتعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها منها ، ومنها ما يكون مشتركا فى العربية ولا يكون فى العجمية كذلك »(٢) ٠

فاذا كانت صفات الذات الالهية ، الواجب معرفتها اجمـــالا على كل مؤمن بالاسلام ، لا بد لمعرفتها من سلوك طريق العربية الى ذلك ، أدركنا ذلك الرباط الذى أقامه الغزالى وغيره من المجتهدين بين العروبة والاسلام٠

* * *

وحقيقة أخرى فى هـــذا الموضوع ، ان المنهج العلمى فى دراســـة أى مجتمع من المجتمعات انما يؤكد أن البنـــاء السياسى للمجتمع ، بما فيـــه جهاز « الدولة » ، انما هو تعبير عن طبيعة القاعدة المادية والاقتصـــادية لهذا المجتمع ٠

فانعكاسا لأشكال الملكية الاقطاعية توجد علاقات الانتاج الاقطاعيـــة ، وجهاز الدولة الاقطاعى ، الذى يحمى قيم هذا المجتمع ويشرع لبقـــائه وتدعيمه واستمراره ٠

وهكذا فى كل الأنظمة والمجتمعات ٠٠ ولكن هذا المنهج العلمى يقول أيضا ، ان هذه القـــاعدة قد تتخلف ، أحيـــانا ، وأنها ليست عـــلاقة ميكانيكية لما بين القاعدة المادية للمجتمع وما بين بنائه الفوقى من صلات وروابط ٠٠٠ وهى قد تخلفت فى عصر التجزئة هذا ، موضوع الحديث ٠

ففى قمة السلطة بذلك المجتمع ، الذى كانت تنمو فيه خيوط الأنسجة التوحيدية ، وتقوم فيه التجارة ، والحركة العلمية والثورية ، ورحلات العلماء والتجار ، المجتمع الذى كان بحرا واحدا يموج بهذه التيارات التى تقطعه شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وتوحده برباط حضارى متين ٠

---

(١) الغزالى « الجام العوام عن علم الكلام » ص ٢٨٦ ٠

(٢) المصدر السابق ٠ ص ٢٤٩ ٠

فى قمة السلطة فى هذا المجتمع ، لم توجد ، فى عصر التجزئة هذا ، السلطة التوحيدية ، بل عروش وحكام ومغامرون وفرسان وأنصار تجزئة ، وأصحاب مطامع لا تستقيم مع عمليات التوحيد .

وفوق قاعدة الحضارة العربية ، والأرض التى ينمو عليها يوما بعد يوم كل ما هو عربى ، كانت تقوم أحيانا ، بل وكثيرا ، سلطات سياسية غير عربية ، بل وتقف من العرب والعروبة موقف العداء .

فالأسر الفارسية التى كانت ، فى البداية ، تضمر شرا للعروبة والعرب والتعريب ، انما خدمت فى ظل الحكم العباسى ، الدولة العربية ، وعاشت فى المجتمع العربى ، بل واستحالت الى جزء من الكيان العربى فى معظم الأحايين .

و « البويهيون » و « السلاجقة » ، وبعض فرسان « الأكراد » ، رغم أصولهم غير العربية ، ورغم ما يحملون من ثقافة وتكوين نفسى وتراث ، ورغم بنائهم دولا واقامتهم حكومات ، الا أنهم قد حكموا وأقاموا هذه الدول وتلك الحكومات فوق قاعدة عربية ، ولحكم مجتمع عربى تتأكد عروبته بمرور الأيام ، مما جعلهم يتعربون فى نهاية المطاف ، وذلك عندما رأوا أن « من أهم حكمة الحكومات أن تتخلق بأخلاق الرعية .... فانهم ما لبثوا أن استعربوا وتخلقوا بأخلاق العرب ، وامتزجوا بهم وصاروا جزءا منهم ... »(١)

والدولة « الغزنوية » ، غير القومية ، هى نفس الدولة التى كان مفكرها الأول « البيرونى » يذيع فى الآفاق الثقافة والعلم العربيين ، ويقيم أعمدة للحضارة العربية ، ويصيح فى موكب الحركة الثقافية : « انه لأحب الى أن أهجا بالعربية من أن أمدح بالفارسية » ؟!.

وهو نفس المجتمع العربى الذى رفع الى قمة السلطة فيه بطلا كرديا كصلاح الدين الأيوبى ، وآخر مملوكا كالظاهر بيبرس البندقدارى ، ثم حولهما الى أبطال عرب ، وأساطير تعيش فى ضمير الشعب حتى الآن .

وهكذا نجد أن قاعدة تبعية كل أشكال البناء الفوقى للمجتمع وارتباطها بقاعدته المادية قد تخلفت كثيرا ، وبكل وضوح ، فى عصر التجزئة ، وحدث انفصام ملحوظ بين الحضارة العربية وما زخر به المجتمع العربى من عوامل توحيدية ، وبين أدوات السلطة السياسية الانفصالية التى شهدتها المنطقة العربية فى ذلك الحين .

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى « أم القرى » ص ١٦٨ ، ١٦٩ . طبعة « حلب » .

ولكننا قد وجدنا كذلك أن هذه الأدوات السياسية ، وأجهزة الحكم هذه ، لم تكن هي العامل الحاسم في الصراع الذى دار بين العوامل التوحيدية وعوامل التمزيق ، وانما ظل التقدم والنمو من نصيب العوامل التوحيدية باستمرار •

وظلت الحضارة العربية ، والبلورة التى تصيب شخصية الجماعة العربية ، والاكتمال الذى تحصله هذه الجماعة ، ظلت كل هذه العوامل التوحيدية تكتسب يوما بعد يوم قوة وتقدما ، رغم ما تقيمه السلطة السياسية فى هذا الطريق من عثرات وعقبات •

وهكذا كانت التجزئة احدى سمات الامبراطورية العربية الاقطاعية، وهى ، فى مظهرها ، تعبير عن نكسة فى طريق الجماعة العربية نحو الانصهار ، ولكنها فى الحقيقة كانت غلافا لجوهر غنى ومجيد من التفاعل والخلق والازدهار لكل ما هو عربى أصيل •

١٣ -

وهذه الحقيقة التى لمسناها لمسا خفيفا فيما سقناه من حديث ، والتى تؤكد اتسام المجتمع العربى الاقطاعى بسمات خاصة ، جعلت الغلبة فيه للعوامل التوحيدية ، واتجاه سهم التطور ، و « بوصلة » التقدم ، نحو المزيد من الانصهار ، هذه الحقيقة انما تعيش فيما قام عليه البناء العربى من أسس مادية ، وتكمن فى القاعدة التى قام عليها هذا البناء ٠

فالموقع الجغرافى الذى احتلته هذه المنطقة العربية قد لعب دورا هاما فى نشوء التجارة فى وقت مبكر فيها ، وفى النمو الذى أصاب هذه التجارة، وذلك الاتساع الذى حدث لطبقة التجار ، وفى الأثر الذى أحدثته فى مجريات الأمور والحياة ٠

واذا كانت الصورة البدائية التى نتصور عليها « المجتمع » العربى القديم ، هى صورة مجتمع الرعى ، الذى يتكون من قبائل عربية ترعى الأبل والأغنام ، وترحل مع المطر وما ينبته من مراع وأعشاب ، اذا كانت هذه هى الصورة التى نتخيل عليها « المجتمع » العربى القديم جدا ، فانها نفس الصورة البدائية جدا ، لمجتمع التجارة والتجار ٠

فحول العيون المائية ، وعلى ضفاف الأنهار ، كانت تقوم حياة مستقرة ، يمتهن أصحابها الزراعة ، ويضعون اللبنات الأولى فى البناء الحضارى لبنى الانسان ، بينما كانت القبائل والجماعات التى تحترف الرعى ، وتمتهن الترحال ، تجوب ما بين هذه المراكز الحضارية ، وتضرب خيامها الى جوار هذه حينا وتلك حينا آخر ، وتغير على بعضها ، وتسلب وتنهب من البعض الآخر ، وتقوم بعمليات البيع والشراء ٠

فأول تجار عرفهم التـــاريخ البشرى كانوا هم الرعاة ، الذين كانوا يتنقلون فى ترحالهم بين المراكز « الحضارية البدائية » ويبيعون ويشترون السلع ، المشتراة حينا ، والمسلوبة فى معظم الأحايين ٠

ومن هنا كانت الصلة بين « المجتمع » العربى ، منذ أطواره القديمة ، وبين التجارة ، صلة قوية ، وضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ ٠

غير أن صلة المجتمع العربى بالتجارة ليست صلة القدم فقط ، وحظه منها ليس العراقة فحسب ، ولـــكنها صلة كبرى ، وحظ يتسم بالعمق والطول والاتساع ٠

فالصورة التى أخذتها التجارة فى المجتمع العربى ، وبالذات فى عصر الاقطاع ، انما تجلت فى كون هذا المجتمع واسطة العقد بين أهم مركز للانتاج التجارى ، وهو الشرق ، وأهم مركز للاستهلاك ، وهو الغرب ٠ فلقد كانت المواد التجارية والسلع تأتى من الهند وجزرها ، ومن الصين ، ومن شرقى أفريقيـــا والمستعمرات العربية على ساحلهـــا ، تأتى عبر « المحيط الهندى » الذى سمى لنفوذ العرب التجارى فيه ، وسيطرتهم شبه المطلقة عليه ، ببحر العرب ، ثم تتخذ بعد ذلك أحد طرق ثلاث :

أولها : الخليج العربى ، فبلاد العراق ، فسوريا ، فالساحل الشرقى للبحر المتوسط ، ثم أوربا ومدنها التجارية عبر هذا البحر(١) ٠

وثانيها : بلاد اليمن ، فالطريق التجارى المتجه شمالا مارا بمكة الى بلاد الشام نحو موانىء شرقى البحر المتوسط ٠

وثالثها : عبر البحر الأحمر ، فصحراء مصر الشرقية ، فنهر النيل ، ثم البحر المتوسط ، فمدن أوربا التجارية وموانيها ٠

ولم يكن للعالم تجارة أخرى أهم من هذه التجارة ، بل ولا مدانيـــة لها أو مقاربة ، ولم يكن لتجارة العالم طرق أخرى غير هذه الطرق العربية الثلاث ٠

وأدب الرحلات التجارية الذى عرفه الغرب فى القصـــة التى صورت رحلة « ماركو بولو » ، والعمل الفنى العملاق (ألف ليلة وليلة) ، والتى تنتثر بين أجزائها وحكاياتها قصص التجارة والتجار ، والمدن التجارية العربية بخاناتها وتجارها وما فيها من طرائف وحكايات ومغامرات ، انما

---

(١) يقول ابن خلدون ، تعبيرا عن ســـيطرة العرب على البحـــر المتوسط : « ان المسيحيين لم يبق فى استطاعتهم أبدا أن ينزلوا الى هـــذا البحر حتى ولا لوحة خشبية واحدة » « روجيه جارودى ٠ الحضارة العربية والدور الذى مثلته فى التاريخ ٠ ص١٦ » ٠

تقدم الدليل على هذا المركز الممتاز الذى احتلته هذه المنطقة العربية ، تجاريا ، فى ذلك التاريخ ٠

وحول هذه المهمة ، مهمة التجارة العالمية ، التى ألقاها التـــاريخ ، وأيضا الجغرافيا ، على عاتق العرب منذ زمن قديم ، نشأت طبقة ، ولا نقول فئـــة ، من التجار وأشباه التجار ، طبقة ارتبطت بحكم عملهـــا ومصالحها المادية ، وبحكم اختلاطها بالغير وتعاملها معه ، وبحكم الآفاق التى تبصرها وتتطلع اليها ، ارتبطت بفكر أكثر تقدما من فكر المجتمـــع الاقطـــاعى ، وقيم أكثر تطورا من قيمه ، وأهداف لا يبصرها ولا يتطلع اليها أمراء الاقطاع أو مفكروه ٠

وكأى طبقة اجتماعية ، كان لهؤلاء التجار مفكروهم ، والآثار التى تصور حياتهم وقيمهم ، وما يبصرون ويتطلعون اليه من آفاق ٠

ولم تكن طبقة التجار العرب هذه قليلة العدد ، ولا قليـلة النفوذ ، لأنها لم تكن مجرد وسيط دولى يقوم بتوصيل التجـــارة من الشرق الى الغرب مقابل « عمولة » أو رسوم ، لأن هذه الوظيفة كانت من شـــأن « جهاز الدولة » العربية ، لا مهمة التجار كطبقة ، وانما كان التجار العرب جاليات كبيرة تحترف التجارة ، وتقيم المستعمرات وتسكنها وتعمرها على الشاطىء الشرقى لأفريقيا ، والشاطىء الغربى للهند ، وفى مختلف الجزر الهندية ، وفى المدن التجارية بالصين ، وأيضا فى قلب أفريقيا ٠ كما كانوا عماد تلك القوافل التى تتحرك وتجوب تلك المنطقـــة الكبيرة من الشرق الى الغرب ، وبالعكس ، ومن الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال ٠ وهم أيضا كانوا بيوت التأمين على هذه القوافل ، وأصحاب « الخانات » (الفنادق) والمحلات العامة والمتـــاجر ، وما يرتبط بها من أعمال ومهام ٠

وأيضا كانوا هم القابضين على التجارة الداخليـــة المنتشرة فى طول وعرض البلاد ، وهم الذين أقاموا المعارض والأسواق التجارية منذ ما قبل الاسلام ٠

وهذه الطبقـــة من التجار العرب لم تنشأ فى أحشاء المجتمع العربى الاقطاعى وتتسع بشكل كبير نتيجة لنمو التجارة مع الغرب فحسب ، وهى لم تظهر فى البلاد العربيـــة فى وقت مبكر عن ظهور مثيلاتها فى المجتمعات الاقطاعية الأخرى ، فقط ، وهى لم تحظ بكل هذا النفوذ الذى لم يعرفه تجار آخرون فى مثل ذلك التاريخ فحسب ، وأيضا فانها لم ترتبط فقط بأهداف وأفـكار وقيم أكثر تقـدما من قيم المجتمع الاقطاعى وأفـكاره وأهـــدافه ، وانما هى ــ وذلك هو الأهم ــ قـــد **خلقت وأقامت نسيجا**

توحيديا فى مجتمع المفروض فيه التجزئة والتفكك والانفصال ، وصنعت مع طرق القوافل التى غطت بها الأرض العربية طرقا أخرى عبرها الفكر العربى الواحد ، وجسورا عربية عبرتها قيم تتخطى قيم مجتمع الاقطاع ٠

ونحن هنا لا تعنينا التجارة كمهنة ، ولا التجار كاقتصاديين ، ولا ننظر لهذا الأمر من زاوية الاستغلال والكسب ورؤوس الأموال ، وانما الذى يعنينا ، هنا ، هو ذلك المولود الجديد الذى حمل به المجتمع الاقطاعى العربى فى وقت مبكر ، وما أحدثه فى هذا المجتمع من آثار ، من زاوية خلق ظروف موضوعية تبنى وتنمى عوامل التوحيد العربى ، والتقارب بين الجماعات التى تكون هذا المجتمع ، والصهر لهذه الجماعات فى جماعة عربية واحدة ، كل ذلك فى وقت مبكر جدا بالنسبة للمجتمعات الأخرى ، مما جعل للمجتمع الاقطاعى العربى سمات ليست لغيره من المجتمعات ٠

واذا كنا نشهد اليوم ذلك المد والجزر البشريين ، والموجات المتلاطمة من الناس ، والتى تحدث فى قلب القارة الافريقية ، والمتمثلة فى ملايين من العمال والفلاحين الافريقيين الذين يدفعهم الاضطهاد وضيق سبل العيش والمجاعات ، وألوان الاستغلال المتعددة الى القيام بهجرات جماعية من بلد أفريقى الى آخر ، ومن دولة الى أخرى ، ومن منطقة نفوذ استعمارية الى منطقة نفوذ أخرى ، ومن بلاد تتكلم لغة بعينها الى بلاد تتكلم لغة أخرى ، ومن مجتمع لم يعرف الصناعة الى آخر قد عرف طريقه اليها ، اذا كنا نشهد اليوم هذه الهجرات الافريقية الفذة فى التاريخ الحديث ، ونشهد ما تحدثه من آثار كبرى فى التقارب الافريقى ، والتلاحم بين شعوب القارة ، وتوحيد النضال والعادات والتقاليد واللغات واللهجات ، ورسم آفاق واحدة لكل أبناء القارة ، فاننا ، بنفس الروح ، ومن على نفس الأرضية ، وبنفس الحاسة ، ننظر الى ما أقامته طبقة التجار العرب، والحركة التجارية العربية فى قلب المجتمع الاقطاعى العربى ، من روابط وصلات ، كما نبصر النتائج الايجابية الكبرى التى أحدثتها هذه التجارة العربية فى الميدان التوحيدى للجماعة العربية ، ونضعها فى المكان الملائم عندما نتعرض لها بالبحث والتقويم ٠

١٤-

والصناعة .. لقد كانت احدى السمات التى اتسمت بها حياة الامبراطورية العربية الاقطاعية ، سواء فى عهد وحدتها وحكمها المركزى ، أم فى عهد التفكك والتجزئة السياسية التى لم تكن تعبيرا ولا انعكاسا لتفكك حضارى ، كما قدمنا الحديث .

ولكن هذه الصناعة لم تكن صناعة آلية ، كما نعهد اليوم ، ولا صناعة كبيرة تعرف ما تعرف صناعتنا الحالية من وسائل الادارة والتنظيم ، ولا هى بالصناعة التى تأخذ بأساليب النظام الرأسمالى الحديث .

كما أنها لم تكن فى المستوى البدائى الذى عرفته هذه المنطقة فى ظل المجتمع القبلى العبودى ، كتلك التى شهدتها مصر منذ قرون سحيقة ، أو « تدمر » يوم تكونت فيها « نقابة للصاغة الذين يصوغون الذهب والفضة » .

لم تكن صناعة كهذه ، وانما كانت صناعة حرفية كبرى ، تقوم على اساس نظام طوائف الحرف ، وتلعب دورا فى حياة المجتمع ؛ غير قليل .

ولقد سبق أن أشرنا ونحن نتحدث عن احدى الحركات العربية الثورية « القرامطة » الى صلة هذه الحركة الثورية بتنظيمات الحرف هذه . والى اتخاذها من هذه التنظيمات مجالا للتجنيد والعمل والنشاط ، ولقد كان الثقل الثورى لهذه الحركة ، والأثر الذى احدثته فى طول العالم العربى وعرضه ، خير دليل على قوة ما استندت اليه ومثلته من تنظيمات حرفية لها نصيب كبير فى مجريات أمور البلاد .

وليست الحركة « القرمطية » وحدها ، بل جماعات متعددة من الصوفية والمتصوفين ، قد اتخذت من التنظيمات الحرفية مجالا للتجنيد

والدعوة والنشاط . وفى ذلك ما يؤكد مدى الأهمية التى وصلت اليها هذه التنظيمات ، بل والمساهمة التى قامت بها هذه التنظيمات فى بعض الجمعيات الأخرى ، السرية والعلنية ، كلها أدلة وبراهين فى هذا السبيل .

وهذه القوة التى كانت للتنظيمات الحرفية ، انما كانت تتخذ أحد اشكالها فى التقاليد الصارمة ، والعميقة الغور والجذور ، فى نفوس أعضائها ، وفى حياة المنضمين اليها من الناس ، فلقد كانت تجمع مابين التنظيم الصارم ، والقواعد التى تتأكد بالارتباط المادى والمصلحى ، وبين التقاليد « الأبوية » فى العلاقة مابين الناس .

ولكل حرفة ، فى التنظيم ، مستويات ، ففى القمة يأتى « المعلم » ومن بعدة « العريف » ، ولكل « معلم » عدد محدود من « العرفاء » ، وبعد « العريف » يأتى « الصبى » ، ولكل « عريف » عدد محدود من « الصبيان » ، ولكل طائفة حرفة « شيخ » يختاره « معلموها » ، ويكون بمثابة الراعى والسيد والأب بالنسبة للجميع .

وللترقيات من مستوى الى آخر احتفالات خاصة ، وتقاليد ، وشروط ، وكثيرا ماكانت الفواصل والفوارق تذوب وتختفى مابين حياة الصناعة والحياة اليومية والخاصة لأعضاء الحرفة ، فى المعيشة والزواج والأفراح والأحزان ، فهى تنظيمات مهنية عائلية ، تلعب دورا فى الاقتصاد والسياسة على السواء .

كما أن هذه القوة فى التنظيم والتقاليد ، انما كانت تجسيد الأهمية ما تمثله هذه التنظيمات من صناعات .

وعلى سبيل المثال ، فلقد شهدت الامبراطورية العربية .. وعلى سبيل الاختيار ، شهدت مصر ، احدى امارات هذه الامبراطورية .. شهدت العديد من الصناعات التى كان من بينها :

＊ الصناعات الغذائية :

مثل طحن الغلال ، وضرب الأرز ، وصناعة السكر ، وتفريخ الدواجن واستخراج الخل ، وتقطير ماءالورد والعرقى ، والحلويات .

＊ والصناعات الكسائية :

مثل غزل القطن ونسجه ، والصوف ، والكتان ، وصناعة اللباد ، والتطريز ، والقيطان ، والشراريب .

* **وصــــناعة البنـاء :**

مثل الطوب ، والجير ، والجبس ، والمصيص ، والنجارة ،والحدادة والخراطة ، وصناعات السفن ، وقلوع المراكب .

* **وصــــناعات :**

الأســـلحة ، والبـارود .

* **وصناعة :**

النحـــاس وتبييضه .

* **وصناعة :**

الدباغة ، والأحذية ، والجلود .

* **وصناعة :**

البسط ، والحصر .

وعلى طول الامبراطورية العربية وعرضها ، كانت تتكرر هـــذه الصناعات ، وتقوم صناعات أخرى مرتبطة بالمواد الخام المحلية والاسواق المحلية ، وأيضا مرتبطة بالســوق الخارجى ، لأن منتجات هذه الحرف كانت تسد احتياجات عدد من الأسواق الأجنبية لا السوق المحلى فقط.

واذا كنا قد تحدثنا عن استهداف الحروب الصليبية ، بالدرجـــة الأولى ، تحطيم القوى النامية والجديدة والشابة فى المجتمع العربى ، وعن نجاحهم الى حد كبير فى هذا السبيل ، فاننا نجد أن هذه القــوى الجديدة النامية والشابة فى هذا المجتمع ، كانت هى ايضا احد الأهداف الأساسية للهجوم الغادر الوحشى الذى شنه الأتراك العثمانيون ضــــد المنطقة العربية ، وذلك الاحتلال التركى الذى دام أكثر من أربعة قرون .

فالسلطان سليم الأول ، عندما سلب مصر استقلالها ، فان صــــورة الاستقلال السليب ، التى عاد بها سليم الأول الى بلاده ، كانت نحـــوا من خمسمائة من أمهر الصناع وأرباب الحرف والحاذقين فى الفن والانتاج مع كل ماوصلت اليه يد الأتراك من التحف والنفائس ، وكل غال وثمين وغريب .. حتى بعض زينات القباب وحوائط المساجد والأضرحة !!

كل ذلك قد سلبه الأتراك من مصر . لقد انتزعوا من المجتمع العربى الروح التى كانت تقوده الى مجتمع أرقى من المجتمع الاقطاعى ، والتى لو

تركت لسبق هذا المجتمع فى التطور أكثر المجتمعات الصناعية تقـدما وتطورا فى هـذه الأيام .

وهذه الروح التى حاول الأتراك ازهاقها ، ومن قبلهم الصليبيـون، لم تكن روحا نزاعة الى الاقليمية العتيقة ، لأنها كانت تبصر آفاقا لا تبصرها القوى الأمينة والمنسجمة مع نظام الاقطاع وقيمه وتقاليده .

١٥- وإذا كانت التجارة والصناعة قد مثلتا واقعا ماديا ذا شأن كبير في المجتمع الاقطاعي العربي ، ومثلتا مع غيرهما من السمات هيكل القوى غير الاقطاعية في مجتمع اقطاعي ، وهبتا لهذا المجتمع امكانيات التطور المبكر نحو مجتمع عربي بورجوازي ، لو لم تعترض طريق هذا التطور تلك الاحداث التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد ، والتي حالت بين مجتمعنا العربي وبين الوصول الى هذه الغايات .

اذا كان هذا هو شأن الصناعة والتجارة ، فان الشأن الاكبر في هذا المجتمع كان من حظ « الأرض » والزراعة ، والأشكال التي اتخذتها الملكية الزراعية ، وما طبعته هذه السمة على صفحات المجتمع العربي من معالم وما خلفته في حياته من آثار .

فالمجتمعات الكبيرة ، والفنية ، وصاحبة الحضارة ، التي فتحها العرب ، والتي أصبحت درر تاج الامبراطورية العربية ، ثم اصبحت منسجمة مع الحضارة العربية ، ثم استعربت ، واتخذت من العروبة مجدا وفخرا ، هذه المجتمعات التي كانت مصر والشام والعراق اهمها ، انما كانت مجتمعات زراعية أساسا ، والعلاقات التي كانت تحكم نظام ملكية الأرض فيها ، والتي استمرت بعد الفتح العربي ، وغلبت وطوعت لها عرف التجربة الاسلامية الأولى وقانونها ، انما كانت العلاقات الاقطاعية في الانتاج الزراعي .

والاقطاع الذي شهدته الامبراطورية العربية ، سواء في وحدتها أو تفككها ، كان اقطاعا من نوع غير الذي قرأنا عنه في الأدب السياسي والاقتصادي لمجتمعات العصور الوسطى بالقارة الاوربية ، ولكنه كان

اقطاعا مع ذلك . لأن الاقطاع فى وطننا العربى ، بل وفى الشرق عموما ، قد اتخذ منذ نشاته ملامح خاصة ، وسمات غير التى عرفتها أوربا لهذا النظـام .

ففى سنة ١٨٥٣ ، وفى الرسائل المتبـادلة بين « كارل ماركس » و « فريدريك انجلز » يتحدثان عن الطابع الخاص الذى اتخذته ملكيـة الأرض فى بلاد الشرق ، وكيف أن ظروفا موضوعية وخاصة بهذه البـلاد، قد جعلت الملكية حقا للملك وحده ، ولم تجعلها ، كما هى الحال فى أوربا ملكية لأمراء الاقطاع ، وكيف أن المركزية ، لا التفكك ، كانت الطابع الذى امتازت به الاقطاعية فى هذه البلاد .

وهذه الملاحظات والشذرات ، هى التى كتبت ، ثم أضيف اليهـا صياغات نظرية اخرى وأبحاث جديدة ، تحت عنوان يسلكها جميعا هـو « الأسلوب الآسيوى للانتاج » وهو موضوع لايزال يشغل حيزا ملحوظا فى دراسات الاقتصاد السياسى لدى الاشتراكيين العلميين ، وتدور حوله صراعات وخلافات ومناقشـات (١) ..

ومصر ، التى هى أعرق المجتمعات الزراعية فى هذه المنطقة ، ومن ثم أعرق مجتمع عرف نظام الاقطاع ، قد كانت ملكية الأرض فيها حقـا للفرعون ، الذى كان ابنا ، وصورة ، ورمزا للاله ، ثم لاباطرة الرومان .

وعندما جاء الفتح العربى ، وتكونت الامبراطورية العربية ، أصبحت الأرض ملكا عاما لبيت المال ، اى للدولة ، ممثلة يومئذ فى الخليفـة أمير المؤمنين ، رمزها وصاحب السلطة الروحية والزمنية فيها .

ولقد رأينا فى سياق حديثنا السابق عن انتقال المجتمع العـربى من نطاق التجربة الاشتراكية الى نظام الإقطاع ، ذلك الخلاف والحـوار الذى حدث بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبين معارضيه بصـدد قسمة أرض العراق ، وكيف انتصر عمر ، وأصبحت الأرض المفتـوحة « قانونا » ملكا لبيت المال ، و « واقعا » مملوكة لأصحابها الأصليين من كبار الملاك والاقطاعيين ، وان تكن هذه الملكية فقط « ملكية انتفـاع » .

ثم جاء عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أول خليفة يقنن على نطـاق واسع ، ويرسى بشكل جلى ، قوانين التحولات الجديدة التى أخذت تحت خطاها لتغطى أرض المجتمع الجديد .. جاء ليقول : ان هذا المال ، وأهمه

(١) راجع « مكسيم رودينسون » « معركة نظرية بين الماركسيين حول أسلوب الانتاج الآسيوى » . مجلة الهلال . يوليو سنة ١٩٦٥ م « نقلا عن مجلة « الفكر » الفرنسية » .

يومئذ الأرض ، انما هو لله ، وانه من ثم له ، باعتباره خليفة الله على الناس .

ولكن تطور الأحداث ، قد خلق الى جوار هذا القطاع الواسع والأساسى والكبير من الأرض ، والذى كان ملكا للخليفة ، خلق شكلا من الملكية الخاصة التى يتصرف فيها صاحبها كما يشاء .

فلعديد من كبار رجالات الدولة اقطاعيات فى مختلف انحاء البلاد ، والخليفة يقطع من يشاء مايشاء ، حتى أن أحد كبار مشرعى الدولة العربية الاسلامية ، القاضى « أبو يوسف » يعقد فى كتابه « الخراج » بحثامستقلا بعنوان « نظام الاقطاع فى الاسلام » .

وتسمى هذه الأرض المملوكة ملكية خاصة ، والتى كانت من حظ المسلمين ، تسمى الأرض « العشرية » ، بينما تسمى الأرض الأخرى التى لغير المسلمين بالارض « الخراجية » ، وهى المملوكة اسما لبيت المال وفعلا لمن يدفعون عنها الخراج ويتصرفون فيها تصرف الملاك .

وليس الفرق بين الأرض « العشرية » و « الخراجية » فقط ، فى ان الأولى مملوكة للمسلمين ،والثانية لأهل الذمة ، ولا فى ان الأولى مملوكة ملكية خاصة « قانونا » بينما الثانية تعتبر « قانونا » مملوكة لأمير المؤمنين ، وانما كانت الأرض « العشرية » تدفع ضريبة قليلة هى «العشر» بينما الثانية تدفع ضريبة أكبر هى « الخراج » .

ولم تكن التفرقة بين الملاك نابعة من ان ملاك الأرض « العشرية » مسلمون بينما ملاك الأرض « الخراجية » غير مسلمين ، لأن ذلك كان فى البداية فقط ، أما بعد ذلك ، وبعد أن دخل كثير من «حائزى» الأرض الخراجية فى الاسلام ، فلقد ظلت أرضهم « خراجية » ، تدفع لبيت المال « الخراج » لا « العشر » ، لأن التشريع فى الدولة لم يكن مرجعه ، فى كل الأحوال ،الى الاسلام ، بل المصلحة المالية والاقتصادية للنظام .

« فالملكية » التى كان يمارسها أصحاب الأرض « الخراجية » ،كانت — كما ذكرنا — من نوع الملكية التى نسميها فى التعبير الحديث « ملكية المنفعة » ، ومركز هؤلاء « الملاك » بالنسبة للأرض نلمسة جيدا عندما نقرأ فى مقدمة كتاب « الخراج » لأبى يوسف : « ان أمير المؤمنين أيده الله تعالى ، سألنى أن أضع له كتابا جامعا يعمل به فى جباية الخراج ،

والعشور ، والصدقات ، والجوالى ، وغير ذلك مما يجب عليه النظــــر فيــه والعمـــل به » (١) .

ثم يتحدث أبو يوسف عن تخفيف الخراج الذى قدره وربطه على « المتفعين »» بالأرض عمر بن الخطاب ، فيقول : « فلما رأينا ما كـان جعله « أى عمر »على أرضهم من الخراج يصعب عليهم ، ورأينا أخـــذهم بذلك داعيا الى اجلائهم عن أرضهم وتركهم لها ، لم نحملهم مالا يطيقون، ولم نأخذهم من الخراج إلا بما تحتمله أرضهم » .

ولقد ظلت الأرض الخراجية هي الشكل الرئيسى والأساسى والعـام للأسلوب الذى أخذه الاستغلال الزراعى ، وللعلاقة بين الدولة العـربية و « المتفعين »

أما « الشكل » الذى كانت تتم بواسطته عملية الاستغلال الزراعى من قبل الدولة ، فلقد كان فى أحيان كثيرة ، وفى اماكن كثيرة ، وبالــذات فى ظروف ضعف جهاز الدولة ، وكثيرا ماكان هذا الجهاز ضعيفا ، هذا الشكل كان الأسلوب المعروف بنظام « الالتزام » .

ففى مصر مثلا ، وهى فى مقدمة الولايات الزراعية فى هذا المجتمع نجد أن مسجد عمرو بن العاص فى مدينة « الفسطاط » كان يشـــهد وجهـــاء مصر وأعيانها وقد توافدوا الى المسجد فى يوم محدد لحضـــور «المزايدة» على الالتزام ، فينادى على القرى ، وتتم « المزايدة » ، ثم يرسو « العطاء » على من يرفع « السعر » فيدفع ضريبة عام مقدما ، ثم يحصل على الالتزام ، لمدة عام ، ثم تطور الأمر فأصبح الحصول عليه لأكثر من عام ثم أصبح « الالتزام » حقا للملتزم القائم بواجباته مدى الحيــــاة ، بل ولورثته من بعده اذا هم طلبوا ذلك وقاموا بما يفرضه عليهم من واجبات .

ونحن اذا شئنا أن نحدد الشكل الأساسى والأعم والأكثر شمولا ، من بين الاشكال التى عرفتها أساليب الاستغلال الزراعى ، فاننا سنجد « الالتزام » هو هذا الشكل وذلك الأسلوب . واذا شئنا أن نختار النموذج الكامل للالتزام ، فاننا سنجده فى مصر ، وفى عهد الاحتلال العثمـانى ،

---

(١) والخــراج : ضريبة الأرض الخراجيــة ، والعشور : ضريبـة الأرض العشرية ، والصدقات : الزكاة ، والجوالى ، والجــزية .. كما نود أن ننبه هنا الى الفروق التى يجب التنبه لها بين مدلول الكلمات عند أبى يوسف وبين مدلولها فى الاقتصاد السياسى الحديث عندنا الآن ، فكلمة الاقطاع مثلا ، قد تعنى لديه ما تعنى لدينا الآن ، وقد لا يكون التطابق بين المدلولين متحققا ، والسياق ، والمثل الذى يعطى ، أى المسمى هو الحكم والمعيار فى مثل هذه الحـــالات .

وفى ظل سيطرة أمراء المماليك على مقدرات البلاد . كما سنجد فى هذا النظام صورة للمجتمع الاقطاعى الكلاسيكى الذى مرت به كثير من المجتمعات.

فالبلاد يومها كانت مقسمة الى أقاليم كبيرة ، وأخرى صغيرة ، والأمير الذى كان يحكم اقليما كبيرا كان يسمى « سنجق » ومن يحكم اقليما صغيرا يسمى « كاشف » .. « وقد بسط أمراء المماليك أيديهم على معظم القرى ، ففى بعض الأحيان كانت مئات القرى تستغل لحساب أمير واحد »(١) .

وكانت منطقة نفوذ الملتزم تسمى « دائرة الالتزام » ، ولم تكن تختلف الحياة شكلا أو مضمونا فى هذه الدائرة عن الحياة فى احدى امارات الاقطاع ، لافى أسلوب المعاملة ، ولا فى شكل الاستغلال ، ولا فى العلاقات بين الملتزم والفلاحين . هؤلاء الفلاحون الذين تحدث عنهم « المقريزى » فقال : « كان يسمى الفلاح المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، الا أنه لايرجو أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن مابقى ومن ولد له .. »

وهذا الذى كانت علاقته بالفلاحين علاقة « السيد » « بالاقنان » كان يحصل على « التزامه » لمدى الحياة ، كما كان من حقه اذا شاء ، أن يبيع حق التزامه لمن يشاء فى أى وقت يريد ، وذلك بشرط أن يبلغ نتيجة البيع لبيت المال ، ولكبير المماليك الملقب ب « شيخ البلد » . كما كان لورثة الملتزم حق وراثة دائرة التزامه ، بشرط أن يطلبوا تجديد عقد الالتزام « فما الفرق الجوهرى هنا بين صلاحيات الملتزم وبين صلاحيات الأمير الاقطاعى ؟؟ »

كما كان الملتزم يحل فى دائرة التزامه محل الحكومة ، فى حفظ الأمن ، واقرار النظام ، ورعاية كل الشئون الواقعة فى دائرة نفوذه ،بل لقد بلغ من عراقة هذا النظام وقوته ، ومن ثم عراقة هذا التقسيم الاقتصادى للبلاد ، ان أصبح التقسيم الادارى للبلاد صورة تابعة لهذا التقسيم الاقتصادى ، ومترتبة عليه ، وتحولت دوائر الالتزام الى وحدات ادارية يحكمها ، اداريا ، الملتزمون الذين تسموا « سناجق » أو «كشاف».

وفى هذه الحالة كان الملتزم يحصل على ثلثى الدخل المتحصل من الارض ، لان ثلث ماكانت تنتجه الارض كان يذهب الى بيت المال ،ويسمى « الميرى » ، والثلث الثانى الى الادارة المحلية ، ويسمى « الكشوفية »

(١) د. محمد فهمى لهيطة « تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة » ص٢٠ .

والثلث الثالث للملتزم ، ويسمى «الفائض» ، ولا شيء للفلاح « القـن » سوى مايحفظ على نفسه خيط الحياة لمواصلة الانتاج !!

بل وعلاوة على الأرض التى يستغلها الملتزم بهذه الصورة ، أويستغل بها الفلاحين على هذا النحو ، كانت هناك أرض « الوسية » ، وهى التى تمنح للملتزم خالصة من دون الضرائب لقاء مادفع من تأمين الالتزام ،وهى أرض يزرعها له الفـــلاحون بطريق السخرة .

وحتى يستكمل الملتزم مقومات الأمارة ، كان يقيم من حوله جهـازا اداريا واقتصاديا كبيرا ، يدعم النظر فيه ، وجهة نظرنا التى تقدم « دائرة الالتزام » امارة اقطاعية ، بكل مايعنى ذلك من دلالات . هذا الجهـــاز الذى كان يتكون من : (١)

* ١ ــ **شيخ البلد** : وهو نائب الملتزم ، والقائم مقامه فى غيبته ، واذا عين الملتزم أكثر من شيخ بلد ، فان كبيرهم يعتبر « شيخ مشايخ » .

* ٢ ــ **الشـاهد** : وهو المختص بحفظ السجلات الخاصة بدائرة الالتزام ، التى تحمل البيانات والاحصاءات والحسابات وأسماء الفـلاحين وما عليهم من التزامات .

* ٣ ــ **الصراف** : وهو ليس كصراف عهدنا هذا ، لأنه كان يقـــوم بجباية الأموال ويسلمها للملتزم ، لأنه أحد موظفيه واتباعه .

* ٤ ــ **الخولى** : وهو المشرف على الجهـاز التنفيـذى الزراعى بالدائرة ، والمباشر لأعمال الفلاحين ، والذى يقدم للملتزم ولشيخ البلد المعلومات عن سير العمل .

* ٥ ــ **المشد** : وهو جلاد دائرة الالتزام ، وسوط عذاب الملتزم ، والمنفذ لما يقرره « السيد » على الفلاحين من عقوبات .

* ٦ ــ **الكلاف** : ويختص برعاية شئون الحيوانات الخاصة بالملتزم .

* ٧ ــ **الخفراء** : ويقومون بحراسة الدائرة .

* ٨ ــ **الامام** : وهو رجل الدين المرتبط بالملتزم ، والمنفذ لتوجيهاته ، والمشرع لاستغلاله للفلاحين .

* ٩ ــ **النجار** : وهو يتبع الدائرة ويعمل لحسابها .

* ١٠ ــ **الحداد** : وهو يتبع الدائرة ويعمل لحسابها .

---

(١) المرجع السابق . ص ٢٥ .

* ١١ — **الحلاق** : وهو يتبع الدائرة ويعمل لحسابها .

فهل بعد هذه الصورة التى اتخذها استغلال الأرض ، شك فى أن النظام الذى عرفه المجتمع الاقطاعى العربى ، قد قارب ، حتى من حيث الشكل ، المجتمع الاقطاعى الكلاسيكى الذى عرفته كثير من المجتمعات ؟ .

وهل بعد سيادة أسلوب « الالتزام » فى طول الامبراطورية وعرضها ، وطوال تاريخ المجتمع الاقطاعى العربى ، شك فى أننا قد عشنا مجتمعا تسوده علاقات انتاج اقطاعية ، وقيم المجتمع الاقطاعى واخلاقياته ؟؟ (١)

بل وحتى الضرائب والجمارك ، فى ذلك الحين ، كانت ضربا من « ضروب الاقطاع » ، وها هو التاريخ الاقتصادى يسعفنا بمثل على ذلك ، سجله قبيل دخول الحملة الفرنسية الى مصر ، فلقد كان « جمرك » الاسكندرية اقطاعا وامتيازا للأمير المملوك « ابراهيم بك » ، الذى كان بمثابة « شيخ البلد » بالنسبة لبقية أمراء المماليك ، وكان موظفوه وخدمه هم الذين يستغلون « الجمرك » لحسابه ، فيقومون بتحصيل الضرائب والمكوس . أما باقى « الجمارك » فقد كانت تدار بنفس الأسلوب ، كما كانت اقطاعا لأمير آخر من المماليك هو « مراد بك » .

وهكذا لم تكن غلالة الملكية العامة ، وتبعية الأرض الزراعية للسلطان ، بحائلة دون أن يعيش المجتمع العربى وهو يشهد جوهر اشكال الاستغلال الاقطاعية فى مسألة الأرض ، وأن تلتف هذه القيود الاقطاعية حول عنق الفلاح وسواعده .

وكما قيل ، انه كان « من الثابت أن الأرض كانت تعتبر مملوكة ملكية اسمية للسلطان ، أما من الوجهة الفعلية ، فقد كان المماليك يتقاسمون البلاد بحيث كان كل منهم يختص ببضعة قرى ، يقسم الأرض فيما بين الفلاحين المقيمين عليها (أى الاقنان) ، ويلتزم بجمع الضريبة المستحقة عليهم ، ويمنح فى سبيل ذلك أراضى يستغلها ، مع اعفائه من الضريبة عليها ، **وكانت هذه الأرض تعتبر ملكه الخاص** ، أما الفلاح فلم يكن له الا حق الانتفاع بالأرض ، بشرط دفع الضريبة ، **وكان بذلك بمثابة المستاجر** ، وكانت ثمة أراض أخرى تمنح للعسكر وغيرهم ، تعفى

---

(١) فى ص ٩٤ من « التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث » يقول د. حسين خلاف : « ان المستأجر لمساحات كبيرة ، والذى يؤجرها للفلاحين يمارس معهم علاقات انتاج اقطاعية ، وهو هنا مثل مالك المنفعة والملتزم فى علاقاتهم الاقطاعية » .

من الضرائب ، وثالثة يوقفها أصحابها على خلفائهم وغيرهم ، وقفا أهليا أو خيريا ، حسب الأحوال » (١) .

فاذا كان الفلاح المقيم ، أى القن ، يفلح الأرض ، ثم يذهب الريع الى الملتزم ليسدد الضريبة ويأخذ « الفائض » ، أو يأخذ الريع دون دفع ضريبة على أرض «الوسية» الممنوحة لقاء تأمين الالتزام ، وما دام مركز الفلاح هنا هو مركز المستأجر ، فاننا نجد أنفسنا بازاء نظام اقطاعى ، ان اختلف فى شىء عن نظام الاقطاع الذى عرفته أوروبا ، فانه يتفق معه فى أشياء ، وان خالفه حينا فانه يحالفه فى أحيان كثيرة ، وهو يتفق معه فى الجوهر ، ويقترب منه فى نوعية علاقات الانتاج .

وبهذا الفهم العميق ، وغير السطحى ، تناول هذا الموضوع كاتب قومى عملاق ، نبع من أحشاء الشعب المصرى ، وعاش ، حتى التجارب التى لم يشهدها بنفسه ولم يرها رأى العين ، عن طريق آبائه وأقربائه الفلاحين ، وهو الأستاذ الامام محمد عبده ، الذى كتب يقول : **« ان العصبيات السائدة فى مصر عند الاحتلال الفرنسى ، تقابل نظام أمراء الاقطاعيات الأوروبية** ، وان الأمراء المصريين اضطروا الى أن يتخذوا من الأهلين أنصارا ، وان ذلك أحدث بطبعه فى النفوس شمما ، وفى العزائم قوة ، واكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية ، مهما احتقرت نوعها ، فكانت العناصر جميعها فى استعداد لأن يتكون منها **جسم حى واحد** ، يحفظ كونه ، ويعرف العالم بمكانة » .

***

وشكل آخر الى جانب شكل الالتزام السائد ، قد شهده حقل الاستغلال الاقطاعى فى المجتمع العربى ، هو نظام الأوقاف .

والذى جعل من الحديث عن هذا الشكل أمرا ضروريا ومسألة حيوية هو اتساع الرقعة الزراعية التى كانت تشملها أنظمة الوقف وقوانينه ، سواء منه الخيرى أو الأهلى ، وأيضا الدور المتعاظم الذى يلعبه فى الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية نظار الأوقاف . فلقد كان بعض هؤلاء النظار من المشايخ وعلماء الدين والمتصوفة ، وهو ما جعل فئة هامة من هؤلاء الرجال يأخذون مكانهم فى المجتمع الى جانب « الملتزمين » ، ويكونون جميعا طبقة اجتماعية واحدة ومتميزة ، كطبقة مستغلة تعيش على الريع ، وتحيا حياة الاقطاعيين .

بل ان هذا الدور الذى كان للأراضى الموقوفة ، والذى كان لنظام الأوقاف ، هو الذى سيجعلنا نبصر ــ فيما سيأتى ــ لماذا وقف « العلماء »

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٤

فى مصر ضد السلطة المدنية الحديثة التى شرعت توجه الضربات القاسية الى أسس النظـام الاقطاعى الذى كان متبلورا يومئـذ فى شـكل نظام « الالتزام » ، لأنه كثـيرا ما كانت هـذه الفئـة تجمع ما بين « الالتزام و « نظارة » الأوقاف فى آن واحد ٠

وان نظرة الى المركز المالى الممتاز الذى كان يتمتع به نظار الوقف ، والملتزمون ، ومقارنته بالموقف المـالى المتـدهور الذى كان عليه الفلاحون المصريون ، ليفسر لنا حقيقة ما كانت تعيشه مصر ، ومن ثم المجتمـع العربى ، من مأساة ٠

ففى السنين التى سبقت مجيء الحملة الفرنسية ، وكمـا صور ذلك كتاب (وصف مصر) الذى وضعه العلماء الذين صحبوا حملة نابليون ، كانت هذه هى أرقام واردات الخزينة المصرية فى احدى السنوات(١) :

البنـــد	القيمة بالجنيه المصرى	القيمة بالفرنك الفرنسى
الخراج « نقدا وعينا »	١ر٠٥٢ر٩٥١	٢٧ر٢٩٦ر١٩٢
الأوقاف	٦٠٢	١٥ر٠٩٧
ضريبة على المشحونات	١٤ر٧٩٢	٣٨٣ر٤٤٨
الجمارك	١٢٧ر١٦٨	٣ر٢٩٦ر٦٢٦
رسوم جمركية أخرى	٢٦٣	٦ر٧٢٤
رسوم متنوعة	٣ر٨٣٥	٩٩ر٤٢١
ضرائب الالتزام	٨٤٢	١٢ر٤٩٥
الجزية	٣ر٤١٤	٨٨ر٥٠٣
الجمـــلة الـــكلية	١ر٢٠٣ر٥٠٧	٣١ر١٩٩ر٦٠٦

فبينما نجد الفلاحين يدفعون من الخراج نقدا وعينا ، للخزانة ، أكثر من مليون جنيه ، وهو لا يمثل قيمة كل ما يدفعونه ، بل ثلثه فقط ، لأننا قد سبق وذكرنا أن « الميرى » الذى كان يدفعه الفلاح لبيت المال ، انمـا كان يذهب مثله الى السلطة الادارية المحلية باسم « الكشوفية » ، ومثله الى الملتزم باسم « الفائض » ، بينما لا يدفع الملتزمون الذين يأكلون ويشربون خيرات الوطن ، لا يدفعون سوى ٨٤٢ جنيها (ثمانمائة واثنان وأربعون جنيها) ، وأيضا لا يدفع نظار الأوقاف سوى ٦٥٢ جنيها (ستمائة واثنان وخمسون جنيها) فقط لا غير !!

(١) د٠ محمد فهمى لهيطة « تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة » ص ٤٨ ٠

انها مجرد صورة لاحدى السنوات ، وربما لو أمكننا الحصـول على أرقام أخرى لسنوات أخرى ، لوجدنا الصورة أكثر بشاعة وأكثر اظلاما.

واذا كانت أغلبية الوقائع التى قدمناها ونحن نتحدث عن « الالتزام »، كانشكل الأساسى لعلاقات الانتاج الاقطاعية ، ومعظم ملامح الصورة قد جاءت من مصر ، فلا يظنن أحد أن ذلك لم يكن حال غيرها من البلاد العربية طوال العصر الاقطاعى العربى ، لأن الظروف والعوامل التى أثرت فى مصر كانت هى نفس الظروف والعوامل التى أثرت فى غـــيرها من الامارات والولايات ، وخاصة العراق والشام كمجتمعات زراعية لها نفس الظروف. الى جانب أن مصر ، طوال عهود طويلة ، وفى فترات استقلالها ، لم تكن وحدها منفردة بنظام حكم خاص ، فسواء فى ظل الأمويين أو العباسيين كانت جزءا متفاعلا مع بقية أجزاء الامبراطورية المترامية الأطراف ، ولم يكن الاختلاف أو التمايز ليتعدى حدود الجزئيات وبعض التفاصيل .

وفى عهد الطولونيين والأخشـــيديين ، أو الفاطميين والأيوبيين ، أو المماليك ، بدولتيهم البحرية والبرجية ، طوال هذه العصور ، كانت مصر دائما وباستمرار تمتد حدودها الى الشام ، وفى أحيان أخرى الى ما هو أبعد من الشام فى اليمن والحجاز وغيرها من الأقاليم .

وفى العهد العثمانى ، كانت تكون مع العالم العربى ، الولايات العربية العثمانية . ومن هنا فان النظام الذى عرفت مصر قواعده وملامحه لا يمكن أن يرى فى غيرها من الامارات والولايات ما هو مختلف عنه فى الجـــوهر والأسس والأصول . وقصارى ما يمكن أن يقال هو أن يكون الاختلاف فى الجزئيات أو الملامح أو بعض التفصيلات . فلقد « كانت مصر والبـــلاد العربية الأخرى فى ذلك الوقت تكون ، من بعض الوجوه ، مجتمعا ترابطت أجزاؤه الى حد محسوس ، رغم سوء طرق النقل والمواصلات ، وبدائية وسائل المبادلة على وجه العموم ، وما ذلك الا بسبب تبعية هذه البلاد جميعا لتركيا فى ذلك الحين ، ولما كان يشدها بعضها الى بعض من علاقات اجتماعية متعددة الجوانب . وساعد فى تحقيق هذه الظاهرة **أن البـــلاد العربية ، ومن بينهـــا مصر ، كانت تمر فى ذلك الوقت فى دور تاريخى واحد ، كما ساعد فيه ايضا أن اقتصاد هذه البلاد جميعا تأثر ، ومايزال، بعوامل متشابهة** ، سواء بالنسبة لانتـــاج السلع ، أو عند تداولها ، أو استهلاكها .. »(١) .

وهكذا نجد أن السمات الأساسية الخاصة ، للنظام العربى الاقطاعى، لا يمكن أن تكون ستارا لأفكار تحاول اخراج هذا النظام من حظيرة النظم

(١) د. حسين خلاف « التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث » ص٨ .

الاقطاعية ، كما لا يمكن لها أن تجرده من أهم أسس الاقطاع وجوهرياته، كما لا يمكن لهـــذه الصورة التى عرضناها لهذا النظـــام أن تكون هى الصورة الدائمة الرتيبة التى لم تتخلف عن الوجود ، أو السيادة أو الغلبة، يوما من الأيام • فلقد حدثت على طول طريق العصر الاقطاعى العربى ، وفى ظل الدول والسلطات المتعاقبة ، تعديلات كثيرة وتغييرات هامة ، كمـــا أصاب هذا النظام الكثير من التطوير والمسايرة التى اقتضتها الظروف •

فالأوقاف تتسع حينا على حساب المناطق المكونة لدوائر الالتزام ، وقد يحدث العكس ، ومناطق « الوسايا » الممنوحة والمملوكة ملكا خاصا للملتزمين تتســع أو تضيق ، ونســبة الأراضى « العشرية » الى الأراضى « الخراجية » ترتفع حينا وتنخفض حينا آخر •

ودرجة الاستغلال وبشاعته تختلف باختلاف استنارة الحاكم وجهـاز دولته ، وبدرجة المعارضة وانتشار الحركات الثورية أو ضعفها أو انعدامها، وأيضا باختلاف جنسية الحاكم ومدى تفاعله مع قيم المحكومين ومصالحهم •

فصلاح الدين الأيوبى ، البطل الذى عاش ويعيش فى مكان ممتاز من قلب الجماعة العربيـــة وضميرها ، هو الذى أقطع أخاه « تورانشاه » : « قوص » و « عيذاب » و « أسوان » و « الاسكندرية » ، كما أقطع بقية المدن والأراضى الزراعية لجنـوده وقواده ، مقابل أعمال الحرب والخـدمة العسكرية •

وسيف الدولة الحمدانى ، ذلك الأمير الذى خلده المتنبى ، والذى كان بلاطه مجمعا علميا وثقافيـا وفنيا ، هو الذى ألهب ظهور الرعيـــة بسياط الظلم والمصادرة والاستبداد ، حتى قيل يومها ، تعبيرا عن مصادراته للتركات والأموال : « من هلك ، فلسيف الدولة ما ملك !! »

والملك الأيوبى ، الناصر محمد ، هو صاحب أشهر تعديل وتقنين أصاب النظام الاقطاعى العربى ، وهو المعروف فى تاريخ الملكية العقارية عندنا باسم « الروك الناصرى » ، وهو الذى قسم فيه الأرض الى اقطاعيات حربيـــة فجعلها أربعة وعشرين قيراطا ، للسلطان أربعة ، وللأجنـــاد (رؤوساء الجنـــد) عشرة ، وللدولة عشرة ، ولا شىء للفـــلاح ، سوى ما هو دون الكفاف •

* * *

ولكن ••• ورغم كل هذه الملامح ، والحقائق التى تؤكد أن النظـــام الذى شهدته الامبراطورية العربية الاقطاعية فى مسألة الأرض والزراعة ، كان نظاما اقطاعيا بكل ما يحمل المدلول العلمى لهذه الكلمة من معنى ••

الا أن هذا الاقطاع العربى قد امتاز بعدة أشياء عن ذلك النوع من الاقطاع الذى عرفته أوربا ، والذى قرأنا عنه كثيرا ، والذى أحسسنا باختلافه عما عرفته بلادنا ، والذى ، أيضا ، أوحى لبعض الناس وهم الاعتقاد بأن بلادنا العربية لم تعرف الاقطاع ، أو أن الاقطاع الذى عرفناه لا يمت لجوهريات النظام الاقطاعى بسبب وثيق ٠

ولعل أبرز ميزة امتاز بها الاقطاع العربى ، هو أن بلادنا فى ظله ، وطوال عصره ، لم تشهد تلك الأمارات الاقطاعيـــة ، وتلك التجزئة التى تجزأت ونشأت وتبلورت **على أساس الوحدات الاقتصادية الاقطاعية** ، والتى يقود كلا منها أمير من أمراء الاقطاع ٠

ورغم أن الامبراطورية العربية ، قد عرفت فى فترات تاريخية غـــير قصيرة السلطة المركزية ، الدينية والزمنية ، ممثلة فى أمير المؤمنين ،ومن تحته الأمراء والولاة ، الذين يســيطر كل منهم على امارة أو ولاية أو مقاطعة ، بمساعدة حاميـــة عسكرية ٠٠ رغم هذا الشكل من أشـــكال السلطة ، المشابه والمقارب لشكل السلطة الذى عرفتـــه بعض الممالك الاقطاعية فى أوربا ، الا أن هذه الامارات والولايات العربية لم تكن مقامة على أســـاس « وحدة انتاج اقطاعية » ، ولم تكن الوحدة الاقتصـــادية الاقطاعية هى التى رسمت لها الحدود السياسية والادارية ٠

وحتى فى الوقت الذى بلغت فيـــه سمات نظـــام « الالتزام » ذروة الكمال ، يوم أن أصبحت حدود « دائرة الالتزام » حدودا للتقسيم الادارى فى البلاد ، حتى فى هذه الفترات ظلت السلطة المركزية صاحبة اليـــد الطولى ، والمركز الأقوى ، وظلت اليد التى تمسك بالحكم المركزى ممثلة لمركز الثقل فى البلاد ٠

ولم يكن الداعى الى هذه المركزية التى لا تتفق وطبائع الأمور فى النظام الاقطاعى ، أمرا قد اختصت به العرب ، ولا هو راجع لطبيعتهم ، وانمـا كان مرجع ذلك ، سبب مادى ، وحقيقة موضوعية ، و « طبيعية » هى التى دعمت من الوحدة والمركزية فى الجوانب الروحيـة والمعنوية التى شـهدتها البلاد ٠

بل ان هذه المركزية لم تكن سمة حديثة فى العصر الاقطاعى العربى، بقدر ما هى خاصية موغلة فى القدم بهذه المجتمعات الزراعية التى تكونت منها الامبراطورية العربيـــة ، منذ أن عرفت هذه المجتمعات ذلك الطور المتقدم من أطوار الزراعة ، لأنها سمة مرتبطة بكون الزراعة قد نشـــأت فى هذه البلاد فى ارتباط بالأنهار ، وأن الحضـارات الزراعية هنا انمـا نشأت فى الأحواض التى كونتها هذه الأنهار ٠

وإذا كنا لا نتصور اليوم أن يبنى مشروع مثل « سد أسوان العالى » ، مثلا ، بواسطة أمير اقطاعى ، وعن طريق جهد امارة اقطاعية ، أو بواسطة « مجلس محافظة » مثلا ، لأنه ليس غير الحكومة المركزية تستطيع أن تقوم بمشروع أحد جوانبه تحويل مجرى نهر النيل ، فما كان ممكنا فى عهد الفرعون القديم مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى « مينا » أن يحول مجرى النيل ويبنى عاصمته « منف » بغير مستوى من الحكم المركزى يلغى من على خريطة وادى النيل تلك التجـزئة التى يعرفها ويقتضيها عادة النظـام الاقطاعى(١) .

فحتى المجتمعات العبودية فى أحواض هذه الأنهار ، قد شهدت هذه المركزية بدرجات متفاوتة ، ولكنها ملحوظة الى حد كبير .

بل ان التجزئة التى عرفناها سمة من سمات المجتمع الاقطـاعى لم تشهدها مجتمعاتنا القـديمة الا فترات عابرة ، كانت فـترات ضعف ، ولحظات مرض ، بينما هى دليل ازدهار فى المجتمعات الاقطاعية الكلاسيكية التى شهدها العالم فى كثير من البلاد .

فلم يكن متصورا اذن أن تنشأ فى مصر ، وفى حوض النيل ، امارات اقطاعية ، تمارس من الاستقلال درجة تساوى أو تقارب درجة الاستقلال التى يتمتع بها أحد أمراء الاقطاع ، لأن التحكم فى الرى والصرف فى مثل ظروفنا قد حتم منذ فجر التاريخ الزراعى فى بلادنا قيام الحكم المركزى ، وتدعيمه على مر العصـور ، وفى ظل مختلف أنواع الأنظمة الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية ، حتى ليبدو لكثير من المؤرخين والباحثـين أن حوض نهر النيـل ، ومصر بالذات ، من أولى البـلاد التى عرفت النظم المركزية فى الحكم والادارة .

بل ان نظام الرى والصرف فى مصر لم يستلزم المركزية العاليـة فقط ، بل لقد جعل من نظام « السخرة » نظاما عريق القـدم ، ضاربا بجذوره فى أعماق تاريخ المصريين ، لأن صيانة الجسور ، ورعاية المزروعات وحمايتها من الفيضانات ، وحراسة القرى المجاورة لمجرى النيل ، كل ذلك كان « واجبا قوميا » ، ينمى المشاعر والأحاسيس المركزية والقومية والعامة ، وكل ذلك قد نشأ فى وقت مبكر جدا ، فى عصر لم يكن يعرف شيئا عن نظم العدالة وقوانين الأجور ، « فأثمرت » هذه الاحتياجات ، فى هذه الظروف نظام « السخرة » الذى قرأنا عنه فى فجر تاريخ الانسـان المصرى ، المكتوب .

---

(١) كما لانستطيع اليوم كذلك أن نتصور الانتفـاع الامثل بمياه أنهـار كالاردن والفرات ، دون قيـام وحده عربية تجمع شتات البلاد العربية ، أو أغلبها .

ومثل ذلك كان شأن الحضارة والزراعة والحياة فى بلاد الرافدين حوص نهرى دجلة والفرات ٠

وأيضا ما كان الأمر ليختلف كثيرا فى حوض نهر الأردن ، الذى كان ولا يزال يتطلب استغلاله ، لا المركزية فقط ، بل والوحدة العربية أيضاء وذلك لمروره ، ومرور روافده فى كل من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين على السواء ٠

وكذلك أنهار العاص ، وبردى ، وكل ما يجرى فى المجتمعات الزراعية العربية من أنهار ، على تفاوت فى ضرورات المركزية والحاحهـا بالنسبة لهذه الأنهار ٠

انها شرايين ممتدة فى جسم الامبراطورية العربيـة ، تمد الأرض بأسباب الحياة ، وتمد الناس بوسائل النماء والتقدم ، وهى أيضا تشد هذه البلاد والمجتمعات بعضها الى بعض ، كما تشد الناس والجماعات الى مشاعر المركزية والتوحيد والائتلاف ٠

فهى أشبه بالشرايين والأوردة التى تجرى فيها ، جيئة وذهابا ،دورة دموية ، احدى سماتها الاقتصاد الزراعى الآخذ فى التكامل ، وسمة أخرى من سماتها المشاعر التوحيدية ، التى لعبت فى انمائها النظم المركزية التى عرفتها هذه الأحواض لهذه الأنهار ، دورا كبيرا ٠

تلك هى الحقيقة الموضوعية الهامة ، بل أهم حقيقة موضوعية تقف حلف هذه الظاهرة من التوحد والمركزية التى عرفها المجتمع العـربى ، وغياب التجزئة والتفتت اللتين شهدهما كل مجتمع انســانى مر بعصر الاقطاع ٠

وهى نفس الأسباب التى جعلت من الملكية للأرض « ملكية عامة » ، للاله ، أو للفرعون ، أو للامبراطور ، أو للسلطان ، ولم تجعلها من نصيب الأمير الاقطاعى الذى يسيطر على مقاطعة أو اقليم ٠ وان كانت لم تمنع هذا الأمير أو ذاك « الملتزم » أو « ناظر الوقف » من أن يباشر مع الفلاحين والأقنان علاقة اقطاعية فى الانتاج ، وشكلا استغلاليا ، هو جوهر الاستغلال الاقطاعى ، ونموذج من العلاقات التى عرفها هذا النظام ٠

وهكذا كان النظام الاقطاعى العربى عاملا من عوامل التوحيد العربى، والتقارب بين الجماعات التى تعيش على أرض هذه المنطقة ، ومناخا ملائما لنمو عوامل الانصهار والامتزاج بين الناس ، أى أن هذا النظام الاقطاعى العربى انما كان اطارا غير معاكس تماما لنمو القوى الاجتماعية الجديدة فى المجتمع الاقطاعى ، وبيئة لا ترفض القيم التوحيدية لهذه القوات ٠

* * *

وهكذا نجد أنفسنا بازاء مجتمع اقطـــاعي ، له كل سمات المجتمع الاقطاعي ومقوماته ، ولـكنه يحمل من انسمات الباعثـة على التوحيد ، والمذكية لمشاعر التقارب والتضامن ، والموقظة لقيم الانصهار ، والخالقـــة للمشاعر القومية المبكرة ، مالم يحمله مجتمع آخر ، أو تعرفه امبراطورية أخرى في عصر من عصور الاقطاع .

فجميع الحركات الثورية التي ماجت بها أنحاء العالم العربي ، وان لم تدع بلادنا الانفراد بها ، ويقطع تراثنا بامتيازه بها عن كل ما عدانا من البلاد ، ومن عدانا من الشعوب ، الا أننا نستطيع أن نقول ان امتداد هذه الحركات على النطاق العربي ، وتلك البصمات التي طبعتها هذه الحركات على مختلف صفحات الامبراطورية ، ومختلف أجزاء خريطتها ، ووجـود حركات مثل الخوارج وغيرها في العراق وشبه الجـــزيرة والشام ومصر وجبال الجزائر والمغرب العربي ، انما يحدث ، ويحمل معنى توحيديا .

والجمعيات السرية الأخرى ، والتي كانت احداها جماعة « اخـــوان الصفاء وخلان انوفاء » ، وما امتد لها من خيوط وحبال ، غطت حـواضر الامبراطورية .

ورحلات مختلف القوى والاتجاهات التي رفعت علم انثورة ، فـكرية أو عسكرية ، على سلطة التخلف والجمود والاقطاع ، جميع ذلك ، كانت عوامل توحيدية ، ومثيرات للشعور القومي ، ودوافع للسمات العربيـــة العامة ، أن تنمو وتزدهر على حساب السمات الجزئية والخاصة بكل اقليم من الأقاليم .

والأخطار الخارجية التي تعرض لها العـــرب ، سواء من الصليبيين وحدهم ، أو المغول وحدهم ، أو من قبلهما معا عندما تحالفا ، وان يكن قد شارك العرب في التعرض لمثلها كثير من الامبراطوريات ، الا أن جدية هذه الأخطار ، وقسوة نتائجها ، وطول الفترة الزمنية التي استمرت فيها هذه الأخطار شاهرة سيوفها فوق عنق الجماعة العربية ، كل ذلك قـــد جعل لهذا الظرف العصيب امكانيات أكثر دفعت العرب نحو جمع الشمل ، والارتفاع الى مستوى الموقف والمسئوليات .

والظروف المـــادية الجديدة التي نمت في المجتمع العربي الاقطـاعي بسرعة ، وبشكل مبكر ، وعلى مستوى من القوة والعظم والاتساع قد لا تعهد في غيره من المجتمعات ، وما نتج عن هذه الظروف من قوى اجتماعية تجد مصالحها في التقارب والتـــوحد والانصهار ، قوى تسير بأسرع مما يسير المجتمع الاقطاعي ، وتخطو نحو انهاء العصر الاقطاعي ، واحلال نظام أكثر منه تقدما .

ان هذه الحالة الموضوعية التى أتيح للمجتمع العربى أن يشهدها على صورة لم تتح مثلها لغيره من المجتمعات ، قد كانت عاملا داعيا للنمو المبكر والقوى للمشاعر القومية التى شهدها المجتمع العربى فى ذلك التاريخ ٠

وأخيرا ٠٠٠ فحتى ذلك الظرف الموضوعى الذى عرفته المجتمعات سبب تجزئة وعامل تفكك ، وهو الملكية الاقطاعية ، وعلاقات الانتاج الاقطاعية، وشكل استغلال الأرض الاقطاعى ، قد عرفه المجتمع العربى عاملا يقف فى صف المركزية ، ولا يعادى قيم التوحيـــد ، ومن ثم لا يدخل معركة ضد قيام مشاعر قومية موحدة على نطاق البلاد ٠

تلك هى ملامح المجتمع الاقطاعى العربى ، وحصيلة الوعاء الذى مثلته الامبراطورية العربية الاقطاعية ، والملامح الأساسية ، والمعالم البـــارزة والأهم فى الحصيلة التى استشرفها فكرنا فى هذه الدراسة لهـــذا المجتمع العربى القديم ٠

الباب الرابع

التَعْرِيبُ وَالقَوْمِيَّة العَرَبِيَّة

١

ونحن اذا سألنا أنفسنا عن الثمرة التى أثمرتها وانضجتها كل هذه العوامل التوحيدية التى زخرت بها حياة المجتمع العربى ، والتى دفعتها الى المقدمة ، وأذكت روحها ، قوة القوى الاجتماعية الجديدة التى أخذت تنمو فى أحشاء هذا المجتمع ، والظروف الملائمة لنموها وقوتها وتقدمها .

اذا سألنا أنفسنا هذا السؤال ، وبحثنا عن هذه الثمرة ، فاننا لا شك واجدوها فى هذه الحركة التى شهدتها **الجماعات العربية** لتصبح **جماعة** عربية ، وذلك الطور الجديد ، والحالة الكيفية الجديدة ، التى يمكن أن نطلق عليها كلمة واحدة هى : **التعريب** .

فهذا الحديث عن العروبة ، وعن الأسس التى تجعل من الناس عربا ، والتى تكسبهم الحق فى هذا الانتساب ، والمعارك التى خاضتها الحركات الثورية من أجل توسيع باب العروبة ، وازالة بقايا الفكر التعصبى الضيق الأفق من الطريق .

والقيم الانسانية ، والمقاييس العلمية التى وضعها علامة بارز مثل « الجاحظ » لفتح باب الجماعة العربية لكل من ارتضى ، أو ارتضت له الحياة أن يعتز بالعروبة ، ويفكر بها ، ويعتمد نفسه جزءا من الشمائل العربية ، والعادات والتقاليد التى أثمرتها المعارك المضنية التى قاساها رجال كبار النفس والهمم ، أمثال « المختار الثقفى » ضد أشراف العرب الاقطاعيين ، دفاعا عن حق الموالى فى أن يحاربوا فرسانا ، وأن ينالوا من العطاء ما يناله العربى « الصميم » .

والآفاق الجديدة ، والديمقراطية ، التى ارتادتها جماعات ثورية كالخوارج ، واخوان الصفاء ، فى سبيل المساواة بين كل الذين تظلهم الراية العربية وينطقون بالضاد .

كل هذه المعارك الباسلة ، والمحاولات الانسانيـة الجادة والشريفة ، والفتوحات الجريئة فى عالم الاخاء والفكر الواسع الأفق ، قـد أفضت الى سيادة **مفاهيم قومية ناضجة وان تكن أولية** ، بدلا من الأفكار العربيـة المتعصبة ، والضيقة الأفق ، وعلى أنقاض الأفكار الشعوبية بمفهومها الرجعى الذى بدأت به عملها وحياتها وما بذلته من نشاط ٠٠ لقد أنتجت وأنضجت ثمرة : التعريب ٠

ولقد كانت هذه الانتصارات وذلك التحول الكيفى ، ثمرة العديد من المجهودات الانسانية ، و « الطبيعية » ، والعديد من المعارك ، والأمانى ، والدعوات والرغبات والمحاولات ٠ كما أنها قد تمت عبر مرحلة غير قصيرة من التاريخ ٠

واذا نحن تجاوزنا عن تعداد الأسس الفكرية ، والمواقف العملية التى بذلتها فى هذا السبيل التجربة الثورية العربية الاسلامية الأولى ، وروادها الأوائل ، ـ لأننا قد طرقنا هذا الباب فى حينه ـ فاننا نجد أن المجتمـع العربى الاقطـاعى قد حفل ، وحفلت أحداثه بالعديد من هذه المعـارك والجهود والمحاولات ٠

ففى عهد الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) ، أنشىء للمرة الأولى فى الامبراطورية العربية نظام البريد ، والذى أثمـر ارتباط أجزاء هذه الامبراطورية بروابط دفعت التقارب بين أجزائهـا وجماعاتها خطوات الى الأمام ٠

وهذه « الدواوين » التى كانت تمثل أهم شىء فى جهاز الدولة يومئذ، والتى كان استمرارها فى استخدام لغات الجماعات القديمة ، الفارسية فى العراق ، والقبطية فى مصر ، والسريانية فى الشام ، عائقا ، لا دون القرب من العربية والعروبة فقط ، بل ووضعا يزهد الناس فى هذا السبيل ، فلقد كانت الكفة الراجحة ، ماديا وأدبيا ، فى ظل استمرار هذه اللغات ، لغات رسمية فى جهاز الدولة ، لغير العربية والعروبة ، ومن ثم العرب ، فى الأجزاء الأساسية من البلاد ٠

ولكن عام ٧٠٠ م قد شهد تحولا أساسيا فى اتجاه حركة التعريب ، فأمر عبد الملك ابن مروان « سليمان بن سـعد الخشنى » بتعريب ديوان دمشق ، ونهض سليمان بهذا العمل الذى استغرق منه عاما كاملا ٠

ووجد جيل من الشباب العربى أن الباب قد فتح أمامه لبلوغ المجد ، ووجد جيل من الذين دخلوا الاسلام ، أو استظلوا براية العرب ، أن لا بد لهم من سلوك الطريق الى المجد ، عبر طريق التعريب ٠

وفى سنة ٧٠١ م أمر الحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق « صالح بن عبد الرحمن » بتعريب ديوان العـراق ، وعندما شرع صـالح فى العمل ، وأحس رجالات الفرس بعجلة التاريخ تدور بما لا يشتهون ، بذلوا المحاولات الكثيرة ليعدل صالح بن عبد الرحمن عن تنفيذ ما أمره به الحجاج ، وجاءه « مروان شاه بن ذذان فروخ » ، والذى كان أبوه يتولى خراج العراق ، يعرض عليه مبلغا قدره مائة ألف درهم ، رشوة ، لقاء اظهـار العجز عن التعريب ، ولكن صالح أبى الاستجابة لهذا الاغراء ، وتم تعـريب ديوان العراق ٠

وفى أواخر عهد عبد الملك بن مروان ، أمر ابنه عبد الله بتعريب ديوان مصر ، ثم تبع ذلك تعريب سائر الدواوين ، وكان هذا أول عمل كبير يتم فى هذا الاتجاه فى المجتمع العربى الاقطـاعى ، والامبراطورية الواسعة الأرجاء ٠

ولم يكن تعريب الدواوين هو كل ما تم من العمليات الكبار فى عهـد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، بل لقد شهدت الامبراطورية فى عهده، ولأول مرة فى تاريخها ، النقود العربية ، واستبدلت بها تلك النقود التى كانت متداولة ، والتى كانت من صنع الرومان ٠

وقصة سك النقود العربية الأولى ، هى قصة من قصص « الوعى القومى » ، والعزة العربية التى أخذت تعرف طريقها الى الجماعة العربية والسلطة الاقطاعية العربية فى ذلك الحين .

فمصر ، كانت تنتج وتصنع الورق منذ ماقبل الفتـح العربى ، وكانت تزدان الاوراق المصنوعة بها بعلامة «الصليب» ، لانهـا كانت مسيحية ، ولأن سوق الرومان المسيحى كان أكبر سوق لهـذه البضاعة ، ولكن الدولة الجديدة قد غيرت شعار (ماركة)هذه الصناعة ، وبدلا من « الصليب » طبعت عليها آيات من القرآن الكريم ، رمز عزة العرب ومجدهم أجمعين .

وأرسل امبراطور الرومان تهديده الشهير الى عبد الملك بن مروان ، تهـديده الاقتصـادى والأدبى ، وطلب اعادة « الصليب » الى مكانه من صناعة الورق العربية ، والا امتهن الأوراق التى تحمل آيات القـرآن ، وأهم من ذلك ، فلقد هدد الامبراطور عبد الملك بمنع النقود الرومانية من أن تصل الى أيدى العرب ، وهى الوسيلة النقدية الوحيدة لديهم .

ولكن عبد الملك لم يرضخ لهذا التهديد ، وفى سنة ٦٩٣ م بدات اول دار لضرب النقود العربية عملها فى دمشق ، وأصدرت الدينار

الذهبى العربى ، وفى الكوفة ، انشئت ثانى دار للضرب ، وسكت الدرهم العربى من الفضة ، ولم يأت عام ٦٩٥ م الا وكانت دور الضرب العربية قد عمت جميع انحاء الامبراطورية (١) .

ولم تكن عملية تعريب النقد هذه تتم فى تحد للروم وحدهم ، بل وللفرس كذلك ، ويشهد على هذا تلك التسمية ذات الدلالة التى أطلقها الفرس على الدراهم التى سكت فى دار ضرب الكوفة ، اذ سموها : « الدراهم المكروهة !! » .

وهكذا شهدنا الامبراطورية العربية فى عهد عبد الملك بن مروان ، أوصالها تربط بنظام البريد ، ودواوينها تعرب ، ونقودها العربية تنزل الى السوق .. فيفتح على مصراعيه أمام الجماعات المتعددة الأصول والأجناس ، باب الانصهار والتعريب .

* * *

وطريق آخر سلكته عوامل التعريب لتصل الى مداها وغاياتها ، طريق كان اكثر فعالية ونجاحا من اللوائح والقوانين ، ذلك هو طريق الهجرات السلمية ، التى أخذت تقوم بها القبائل العربية الى انحاء مختلفة من الامبراطورية ، وبالذات الى الأماكن المفتوحة الزاخرة بوسائل أهنأ وأسهل للحياة .

فعندما أخذت ملامح المجتمع الاقطاعى فى السيادة على أجزاء الامبراطورية المختلفة ، وعندما أسقط الناس من حسابهم تلك الأوامر الصارمة التى أصدرها اليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالابتعاد عن العناصر الساكنة بالأرض المفتوحة ، والاستمرار ، والاستمساك بالحياة فى المعسكرات الحربية التى انشئت خصيصا لذلك ، وعندما اغرتهم بذلك تلك الفروق بين « العشور » التى يدفعونها عن أرضهم و « الخراج » الذى يدفعه غيرهم من الموالى وأهل الذمة .. لهذه الأسباب ، ــ ولغيرها ، أخذت الهجرات تتتابع وتتوالى الى هذه البلاد .

فالى مصر هاجرت قبائل كثيرة ، وأفخاذ ، وبطون (١) ، وامتهنت الزراعة ، وخالطت المصريين الأقباط ، ونشأ جيل جديد ، لا يعيش فقط

---

(١) راجع « النقود العربية . ماضيها وحاضرها » للدكتور . عبد الرحمن فهمى محمد . المكتبة الثقافية . و « عبد الملك بن مروان » للدكتور ضياء الدين الريس .. أعلام العرب .

(١) فى سنة ١٠٩ هـ « ٧٢٧ م » هاجر الى مصر ٣٫٠٠٠ « ثلاثة آلاف » من عرب قيس ، بناء على طلب عامل خراجها ، من هشام بن عبد الملك ، ثم تبعهم ٥٠٠ «خمسمائة» نبت من البادية ، ثم لحق بهم آخرون ، وامتهنوا الزراعة ، واتصهروا بالسكان الأصليين .

تحت راية الدولة العربية ، ولا يدين فقط بالاسلام ، وانما يتحدث العربية ، ويرتضى العروبة ركنا يركن اليه ، والحضارة الجديدة بديلا لحضارته التى كان يتمسك بعراها وهو يقاوم نفوذ الرومان .

واللغة القبطية التى ظلت لقرون عدة محل اعتزاز القبط ، ومظهرا من مظاهر مقاومتهم للفاتحين ، هذه اللغة اخذت شيئا فشيئا تفسح مكانها للغة العربية ، القوية ، الشابة « ولم يات القرن العاشر الميلادى حتى كان رجال الكنيسة القبطية يضطرون الى وضع كتاباتهم باللغة العربية ، لكى يفهمها أهل دينهم ، **وقد كان اكبر عامل فى انتشار الثقافة العربية فى مصر ، بتلك الدرجة الناجحة التى لم تبلغها سابقتها الهلينية هو نزوح العرب الرحل اليها ، نزوحا تدريجيا واسع النطاق ، واستقرارهم بها** » (١) .

واذا كان ذلك هو مستوى الموقف ، ودرجة التعريب فى مصر ، فى القرن العاشر الميلادى ، مستوى من التعريب يضطر رجال الكنيسة القبطية الذين هم آخر من تعرب ، لوضع كتاباتهم الدينية بالعربية ، ليفهمها رواد الكنيسة والمستمسكون بدينهم القديم ، وهم آخر من ينتظر منهم التعريب ، اذا كان ذلك كذلك ، ادركنا الى أى حد نجحت عملية التعريب ، تلك العملية التى لم يقم بها جيش ، لأنه لا يمكن أن يكتب نجاحها على يد جيش ، ولم يخطط لها حاكم ، وينفذها باللوائح والقوانين ، لأنها لا تتم بذلك ، وانما جاءت ثمرة عملية من الانصهار والامتزاج بين القبائل العربية التى استوطنت مصر ، وخالطت أهلها . واثمرت هذه العملية الانسانية الاجتماعية ثمرة جديدة ، وجماعة جديدة تحمل ما هو متقدم ومستقبلى من الجماعتين اللتين بدأتا عملية الصهر والاختلاط .

والى ارض العراق ، والى حوض نهرى دجلة والفرات ، هاجرت قبائل عربية اخرى واستوطنت ارض العراق المفتوحة ، وامتلكت الأرض ، وخالطت وصاهرت سكان البلاد الأصليين ، ولم تكن هذه الهجرة كتلك التى تمت من شبه الجزيرة الى أرض العراق قبل الميلاد بقرون عدة ، والتى كونت دولة من أصل عربى ، ولكنها غير عربية بالمعنى الذى نقصده الآن ، والتى انتجت فى « بابل » وعلى يد « حمورابى » حضارة وتشريعا ساميين ، وأن يكونا غير عربيين ، لانقطاع الصلة بين هؤلاء المهاجرين الأوائل وبين الوطن العربى الأصلى ، الوطن الأم فى شبه الجزيرة العربية ، لأن المهاجرين الجدد قد كانوا رسل حضارة

(١) جورج كيرك « موجز تاريخ الشرق الاوسط » ص ٣٧ .

عربية شابة ، وحملة مبادىء اجتماعية ودينية جديدة ، وجزءا من النواة الأولى للامبراطورية العربية ، يشدون رحالهم الى جزء آخر من نفس الامبراطورية ، لينشروا فيـــه حضارتها ، وليتمثلوا حضارة البـــلاد المفتوحة ،وليقدموا مع الأجناس المستعر به عصرا جديدا لحضارةجديدة ترث وتتمثل كل صالح من هذه الحضارات .

لقد كانت عملية انتشار كبرى ، ذات اهداف اقتصادية ومعيشية ، ولـكنها فى ذات الوقت قد حملت كل الجوانب الطيبـــة والانسانية والثقافية والحضارية ، مما يمكن أن تحمله بعثات تعليمية تعد قوتهـا بعشرات الألوف ومئاتها ، وتحط رحالها بأوطان ، دونما تفـــكير فى العودة ، وتفكر فى أفق من التعايش والامتزاج والانصهـــار ليس له حدود .

وسرعان ما اخلت اللغات المحلية مكانها للغة العربية الشـــابة ، واخذت تغتنى مرة اخرى ، كما اغتنت يوما من اللهجات القبلية فى طور انتقالها من لغة ذات طابع قرشى الى لغة لـكل العرب فى شبه الجزيرة ودور سيادتها على شبه الجزيرة قبل الاسلام .

وهكذا التقت بقايا الهجرات العربية القديمة الى بلاد دجلة والفرات بطلائع الهجرات الجديدة ، وتكونت منهم جماعة جديدة ، أو جزء من جماعة جديدة ، تتحدث العربية وتفكر بها ، وتعتز بالعروبة وترفض شيئا فشيئا مفاهيم العصبية القبلية والشعوبية بمفاهيمها الرجعية وتفتح صفحة جديدة من الانصهار والتعريب .

والى الشام شدت قبـــائل أخرى ، وأجزاء من قبائل ، الرحال ..
وجلب الأمويون الى هذه البلاد قبائل كثيرة تؤيدهم وتشد أزرهم فى صراعهم ضد التيارات الرافضة لمجتمع الاقطاع وقيمه ونفوذه .

والتقت على هذه الأرض تلك القبائل العربية الوافدة ، بالقبـــائل العربية التى عاشت فى الدولة «الغسانية» القـــديمة والتى ارتضت المسيحية دينا فى القرن الرابع الميلادى ، ثم حاربت ، وهى مسيحية ، مع العرب المسلمين ، ضد الروم المسيحيين .. التقت هـــذه القبائل جميعا تحت راية واحدة ، واخذت تنهل من منهل ثقافى واحد ، تصب فيه الثقافة التى عرفتها السريانية مع الثقافة التى جاء بهـــا الدين الجديد ، ليعطى للحضارة تلك الثروة الفكرية التى ساهم فى نقلها الى العربية «حنين بن اسحق» وغيره من الأعلام .

وكما سادت العربية فى مصر والعراق ، سادت أيضا فى بلاد الشام واستقر الأمر لهذا المزيج الجديد من الناس ، الذين ارتضوا العروبة نمط حياة ، والجماعة العربية الجديدة أما رؤوما يجدون فى احضانها كل مايعتزون به ويفخرون .

وجاء دور المغرب العربى فى التعريب ، وبعد حروب قاسية وضارية ، وذات خسائر باهظة ، دارت بين العرب الفاتحين وبين قبائل البربر فى الشمال الافريقى ، وهم السكان الأصليون ، استقر الأمر لسلطة الفتح العربى ، وأسلم كثير من البربر بعد أن ابصروا مبادىء الحرية والديمقراطية التى تكمن فى الدين الجديد ، وهم قبائل جبلية ، كالعرب الأوائل ، مطبوعون على الحرية والشمم والأباء .

ولكن الأمر ظل فى هذه البلاد مجتمعا اسلاميا فقط ، لأن التعريب ليس دينا ، وان يكن وثيق الصلة به ، حتى جاء العام الحاسم فى تاريخ الشمال الافريقى سنة ٤٤٤ هـ (سنة ١٠٥٢ م) ، وفى عهد الدولة « الصنهاجية » ذات الأصل البربرى ، والمسلمة ، فى تونس ، اذ شهدت هذه البلاد هجرة عربية واسعة ، وزحفا بشريا عريضا من قبائل عربية كانت تسكن صحراء مصر الشرقية ، مثل قبائل « بنى هلال » و « بنى سالم » و « رباح » .

وخلقت هذه الهجرة بعض الاضطرابات التى حدثت فى أيامها الأولى ، كما سجلت تلك الأسطورة الشعبية التى لا زالت تروى حتى اليوم ، والتى تحولت الى ملحمة تحتل مكانا بارزا فى تكويننا النفسى كجماعة عربية ، وهى ملحمة « بنى هلال » .

وامتزجت هذه القبائل بقبائل البربر ، وامتهنت الزراعة ، ودخلت مع البربر فى علاقات جوار ومصاهرة وامتزاج ، ولعب الدين الواحد دوره الكبير والمساعد فى ادارة عجلة الصهر والامتزاج بسرعة وقوة ، وتعرب البربر ، أوغا لبيتهم العظمى ، واصبحوا عربا من اصل بربرى بعد أن كانوا مجرد بربر مسلمين .

وهكذا لم ينته القرن الحادى عشر الميلادى ، الا وكانت الرقعة العربية الممتدة من المحيط الاطلسى الى الخليج العربى ، مغطاة بجماعة واحدة ، تتفاعل سويا كما لم تعرف الامبراطوريات المعاصرة حينئذ هذا المستوى من التفاعل والامتزاج ، وتتكلم لغة واحدة ، وتستقبل يومها وغدها بفكر واضح وأهداف شبه محددة ، رغم الاختلافات والتجزئة التى أصابت هذه الرقعة فى ميدان السلطة والحكم والحكام .

على أن عملية التعريب هذه ، لم تتم بسهولة ، ولم تعرف السرعة فى سيرها ، وان تكن قد تمت بأسرع مما تمت به حالات مشابهة لها فى غير الامبراطورية العربية من امبراطوريات .

فاذا كانت معظم عمليات الفتح العربى الاسلامى قد تمت فى القرن السابع الميلادى ، فان عملية التعريب لأغلب أجزاء عالمنا العربى لم تستكمل قبل مضى اربعة قرون ، وفى هذه القرون الأربعة تمت عمليات كثيرة من الالتقاء الحضارى ، والتفاعل ، والصراع ، بين الأفكار الشابة الجديدة التى يحملها العرب الى هذه البلاد ، وبين الحضارات التى لقيها العرب ضاربة بجذورها فى أعماق هذه البلاد ، ثم أنتجت هذه العمليات الكثيرة من اللقاء والتفاعل والصراع ، حضارة جديدة ، وواحدة ، هى الحضارة العربية الاسلامية ، وجماعة واحدة ، وجديدة ، هى الجماعة العربية .

كذلك شهدت هذه القرون معارك من الصراع الضارى بين اللغة العربية وبين لغات البلاد المفتوحة ، كتب النصر فيها للعربية على الكلدانية والسريانية والقبطية والبربرية . صراع أعان العربية فيه جهاز الدولة العربية ، والأفكار الثورية التى حملها العرب ، والروح المتوثبة التى واجهوا بها المستقبل والأحداث ، والقرآن الكريم الذى يقدم للناس زادا فكريا جديدا ، واسلوبا معجزا رائعا ، وبناء روحيا تخشع له القلوب . وهى أسلحة لم تكن تملكها هذه اللغات .

وككل معركة من المعارك ، تصيب المنتصر سهام وطعنات ، وككل المعارك العادلة ، تصبح هذه السهام والطعنات أوسمة يفتنى بها الانسان ، وتتسع بها دائرة ثروته الأدبية ، ومنطقة فخره واعتزازه ، خرجت العربية من هذه المعارك بكلمات كثيرة ، واصطلاحات وتعبيرات دخلت الى قاموسها من اللغات القديمة ، فأغنت اللغة المنتصرة ، وأصبحت ثروتها من الغنى والدسامة بحيث تسعف أكثر العقليات نضجا وتطورا فى العصور الوسطى ، وتستطيع تلبية حاجات انسان ذلك الزمان .

وليست هذه النتيجة ، لهذه المعركة ، بقاصرة على تلك الحدود ، فليس الأمر أمر اللغة العربية التى انتصرت فى صراعها ضد عدد من اللغات ، لأن خطر اللغة فى حياة الشعب يكاد يكون خطرا غير معروف الحدود ، لأن اللغة ليست وسيلة التخاطب فحسب ، ولا هى أداة يقضى بها الانسان حاجاته ، ويستعين بها على تحصيل أمور المعاش ، وانما هى وعاء انسانى تحتفظ فيه الجماعة من الناس بتراثها وذكرياتها ، وآمالها ، واحلامها ، وتلجأ اليه عندما تفكر وعندما تحلم ، وعندما

تستلهم الماضى ، أو تقدح زناد فـــكرها فى الحاضر ، أو تستشرف آفاق المستقبل ، ومن هنا **فان الاتفاق فى اللغة ، وخاصة عندما تكون لغة حية متطورة ، زاخرة بحركة من العلوم والأفكار لا تعرف الركود ، انما يعنى الاتفاق فى أشياء كثيرة ، الاتفـاق فى أهم ما يكون الجمـاعة البشرية الواحدة ، ويسـاعد على المزيد من انصـهارها واكتمـال خصـائصها وسماتها .**

والجماعة التى تملك الوحدة فى هذا الجانب من جوانب حياتها ، لا شك ، اذا توافرت لها ظروف أخرى ، ستفتح لها ابواب المستقبل ، مستقبل التوحيد القومى ، ثم التطور نحو امة واحدة ، بكل ما للقومية ، ثم للأمة ، من خصائص وسمات .

فامتلاك الجماعة العربية للغة واحدة ، حدث هام جدا ، ان لم يكن أهم حدث ، فى طريق تطور هـذه الجمـاعة . واليوم الذى قال فيه (أبو الريحان البيرونى) : « انه لأحب الى أن أهجأ بالعربية من أن أمدح بالفارسية » ، ليوم بالنسبة لنا نحن العرب يســتحق الخلود ، لأنه علامة ، بل منارة على طريق تطورنا القومى ، واحساسنا بالكيان العربى الواحد ، والمستقل عن الأصول العرقية والشــتات الحضـارى الذى انحدرنا منه قبل ذلك التاريخ .

وهكذا كانت اللغة العربية الواحدة ايذانا بتغير كيفى أحدثته عملية التعريب ، فأثمر الجمـاعة العربية الواحدة ، كما أثمرت كل هـذه السمات والخصائص التى تحدثنا عنها فى الباب السابق هذه العملية النضالية الواسعة التى اطلقنا عليها كلمة « **التعريب** » .

٢- وفى هذه الفترة التى وصلت فيها الجماعة العربية فى مسارها التاريخى الى هذا المستوى من مستويات التطور ، كانت قد بلغت فى مضمار المشاعر والأحاسيس القومية ، سن الرشد ، واكتملت لها من الخصائص والسمات ما يجعلنا نقول ونحن على ثقة من صحة ما نقول ، ان هذه المرحلة من العصر الاقطاعى العربى ، التى اكتملت فيها للجماعة العربية عملية « التعريب » هى المرحلة التى نؤرخ بها بدء نشوء القومية العربية .

واننا عندما نريد ان نكتب تاريخ حركة القومية العربية ، وعندما نرغب فى البحث عن المرحلة التاريخية التى أصبحت فيها للجماعة العربية مجموعة من السمات والخصائص المشتركة التى تكون ما نسميه بالقومية العربية ، فاننا لابد وان نقرر أن هذه المرحلة هى تلك الفترة الزمنية من العصر الاقطاعى التى وصلنا اليها الآن فى مسيرتنا مع الجماعة العربية عبر التاريخ ، فى هذا الحديث الذى قدمناه فيما سبق من صفحات .

ونحن نعلم أن هذا القول سيثير الكثير من الجدل ، كما سيثير بعض الاستنكار ، لأنه يثير قضية جديدة لم تطرح عندنا من قبل ، ويضع قاعدة لا تتفق والمألوف الذى ألفه الناس ، باحثون وقراء . ولخطورة هذا الأمر فاننا نريد أن نناقشه فى موضوعية وهدوء ، ونقدم كل ما لدينا من حقائق ومفاهيم نعتقد انها لازمة وضرورية لخدمة البحث فى هذا الموضوع .

* * *

ان نقطة البداية التى بدأنا منها دائما دراساتنا القومية ، على قلتها ، وخصوصا الجانب العلمى منها ، هى أن القومية ظاهرة موضوعية

حديثة النشوء ، وانها مرتبطة بظهور النظام الراسمالى ، وانها لم تعرف قبل مجيء الرأسمالية وانظام البورجوازى الى الوجودى .

وإذا كانت الدراسات القومية قد أخذت طريقها الى الحركة الفكرية العربية بعد أن عرفها المفكرون القوميون فى أوربا ، وبعد أن قدمت فيها الحركة الثقافية و « الحضارة الرأسمالية » فى أوربا العديد من الآثار الفكرية الهامة ، فان هذا المفهوم عن تاريخ نشوء القومية قد جاء الينا من هذه البلاد ، وانتقل الى حركتنا الفكرية العربية من الحركة الفكرية الأوربية ، ودخل ميدان دراساتنا القومية نقلا عن المفكرين القوميين الأوربيين .. هؤلاء المفكرون الذين اطلقوا على القرن التاسع عشر ، قرن الثورات البورجوازية ، وسيادة سلطتها ، و « عصر القوميات » .

وفى مقدمة الذين خدموا الفكر القومى العربى الحديث عندنا ، والذين نقلوا هذا المفهوم كذلك ، وهذا التحديد التاريخى لنشأة القومية العربية الأستاذ ساطع الحصرى فى انتاجه الغنى والدسم والمخلص فى هذا الميدان (١) .

ولكن .. هل هذه هى الحقيقة ؟؟ .. واذا كانت هذه هى حقيقة التشخيص الموضوعى لنشأة القوميات الأوربية ، فهل حتما وضرورة أن تكون هى نفسها حقيقة التشخيص الموضوعى لنشأة القومية العربية ؟؟ .. واذا كانت الخصائص المحلية ، والظروف الخاصة ، والسمات القومية لكثير من البلدان تطبع الثورات والتغيرات الأساسية لكل بلد ، ولكل أمة ، بما يجعل للثورة فيها طابعا خاصا ، و « نكهة » قومية ، وبما يجعل من المحتم والضرورى أن تكون لكل امة او بلد نظريتها الخاصة التى لا تنفى السمات العامة والقوانين الموضوعية العامة للثورات المتشابهة ، والتغييرات التى تنقل المجتمع لطور واحد من أطوار التقدم الانسانى والارتقاء البشرى .

اذا كان الأمر كذلك ، فهل هو بالأمر المستبعد أو الغريب أن نكون نحن العرب فى حاجة الى دراسة لتطورنا القومى أكثر عمقا ؟؟ .. وهل هو بالأمر المستبعد أن تكون لنا « نظرية عربية » فى القومية والأمة ، ونشأة كل منهما ؟؟ .. وأن يكون تطورنا الخاص ، والمسار الذى سلكته الجماعة العربية قد جعل لقوميتنا من الخصائص ، وربط بها من القضايا والحقائق مالا تشاركها فيه الكثير من القوميات ؟؟ ..

---

(١) راجع على الأخص كتابه « محاضرات فى نشوء الفكرة القومية » الطبعة الثالثة دار العلم للملايين ـ بيروت .

انّنا نعتقد بضرورة طرح مثل هذه الأسئلة ، لأننا نعتقد بضرورة تقديم مجموعة من الحقائق ستنتهى بنا الى تغيير بعض المفاهيم التى نقلت الينا عن الدراسات القومية فى أوربا ، كما ستنتهى بنا الى صياغة عدد من المفاهيم تجعلنا نلمس السمات الخاصة بنظريتنا القومية العربية ، التى ربما لا تشارك فيها غيرها من القوميات ، أو أغلبها على أقل تقدير .

وقبل أن نتحدث عن الفروق الجوهرية بين الظروف الموضوعية التى نشأت فيها قوميتنا العربية وبين ظروف غيرها من القوميات ، وقبل أن نقدم المفاهيم التى نعتقد صحتها فى هذا الموضوع ، ينبغى أن نشير الى السبب الأساسى لذلك المفهوم الخاطىء الذى شاع عندنا ، وخاصة بين المفكرين التقدميين ، عن ارتباط نشوء القومية العربية بنشأة البورجوازية ، أو البورجوازيات العربية ، وهو السبب الذى جاء الينا من عدد من المصادر ، أهمها :

أولا : ذلك الخلط الشائع والخاطىء بين كلمة « القومية » وكلمة « الأمة » ، واستعمالهما ككلمتين مترادفتين ، ومن ثم الحديث عن « نشأة الأمة » مع ظهور سيطرة البورجوازية ونمو سلطانها ، باعتبارها هى نفسها « نشأة القومية » .

ثانيا : عدم التفرقة فى الترجمة ، مما يجعل « الأمة » تترجم « قومية »و « القومية » تترجم « أمة » ، وهو مصدر للخطأ لاحق وتابع للمصدر الأول .

ثالثا : ذلك « التقليد » المبالغ فيه ، والمحاولات التى بذلت « للنقل الحرفى » والتطبيق غير الواعى لما كتبه « ستالين » عن (الماركسية والمسألة القومية) و (اللينينية والمسألة القومية) وما كتبه « لينين » عن (ملاحظات انتقادية حول المسألة الوطنية) و (حق الأمم فى تقرير مصيرها) ، محاولة تطبيق هذه الأطر والمفاهيم والصياغات على واقعنا العربى ، وذلك « التعميم القسرى » الذى أريد لهذه النظرية التى اشتمل عليها هذا الجهد الفكرى ، وعدم التفرقة بين المنهج العلمى المستخدم فى البحث بها ، والصالح للاستخدام ، وبين الثمار والمعطيات الخاصة بواقع معين ومحدد ، وغير القابلة للنقل والتقليد (١) .

---

(١) ولقد سبق أن أشرنا الى أن « ستالين » نفسه يعتبر الصياغات النظرية التى قدمها خاصة بالمجتمع الذى كتب له عندما قال : « .. ان للماركسيين الروس نظرية فى الأمة ، مقررة منذ أمد بعيد .. » كما نشير هنا الى قول « لينين » : « ... ان هناك عوامل أخرى تميز بين مختلف الأقطار ، كسرعة تطورها القومى ، وتركيب سكانها

رابعا : متابعة كثير من باحثينا ، دون شعور منهم ، لأصحاب الفكر الرجعى الذين يجردون الدين الاسلامى ، فى المحيط العربى ، من الملامح القومية والسمات المتميزة ، والذين ينكرون وجود الشخصية العربية ، ويزعمون وجود عداء بين العروبة والاسلام ، ومن ثم يرون أن الشخصية التى وجدت قبل ظهور البورجوازيات العربيـة وبعده انما كانت شخصية اسلامية لا عربية ، وهى لاتزال كذلك ، وهذا المصدر والمنطلق الفكرى الخاطىء ، قد تابعهم فيه ، واستقى معهم منه ، لا شعوريا ، باحثون متقدمون ، على الأقل فى تحديد نوعية الشخصية التى وجدت قبل ظهور البورجوازية العربية ، وتحديد هويتها • وهو مصدر فكرى خاطىء سبق أن تناولناه بالدحض والتفنيد •

***

ونحن عندما نقول ان لواقع تطور الجماعة العربية ظروفا خاصة ، تجعلنا نفرق أولا بين كلمـة « القومية » وكلمـة « الأمة » ، فان مبعث ذلك هو **أن الجماعة العربية قد وصلت فى ظل النظام الاقطـاعى العربى الى درجة من الانصهار والامتزاج والاندماج لم تتحقق لجماعات بشرية كثيرة أخرى الا فى ظل السلطة الرأسمالية وسوقها ودولتها البورجوازية الموحدة الحديثـة • واننا فى دراستنا لتطور هـذه الجماعة نجد انفسـنا ازاء مستويين من مستويات التبلور لهذه الجماعة ، احـدهما فى ظل السلطة الاقطاعية ، والنظام الاقطاعى ، والثانى بعد ظهور البورجوازيات العربية على أنقاض نظام الاقطاع •**

وعندما كانت الجماعة العربية تمر بالمستوى الأول ، كانت لها سمات مشتركة معينة ، وصفات عامة محددة • وعندما وصلت الى المستوى الثـانى تعمقت السمات الأولى وازدادت ثراء وغنى ، واكتسبت مضامين اضـافية جديدة ، ثم ازداد عـددها بانضمام سـمات جديدة اليها ، واكتساب الجماعة العربية صفات عامة اخرى الى جوارها •

وبهذا نجد أنفسنا ونحن نسير مع الجماعة العربية عبر مسيرتها الكبرى ، بازاء **ظاهرتين** بينهما عموم وخصوص ، كما يقول علماء المنطق ،

القومى ، وتوزيع هؤلاء السكان • الخ ، ولذا فـلا يمكن اطلاقا ، الشروع بوضع برنامج للماركسيين فى بلد من البـلدان ، دون النظر بعين الاعتبـار الى جميع هذه الأحـوال التاريخية العـامة ، وجميع الأوضاع الملموسة لهـذه الدولة » لينين حق الأمم فى تقـرير مصيرها • ص٦١ طبعة موسكو • ضمن مجموعة » •

لا ظاهرة واحدة نشأت مع نشأة البورجوازيات العربية - كما يريدنا أن نفهم أو ان نقلد ، الباحثون المتتلمذون على يد مفكرى الغرب القوميين .

ونحن قد نعذر الذين يدرسون تاريخهم القومى ، فلا يجدون التوحد والبلورة والسمات العامة ذات القيمة والغناء الا بعد أن ظهرت عندهم البورجوازية ، قد نعذرهم فى عدم التمييز والتفرقة بين « القومية » وبين « الأمة » ، ولكننا لا نعذر الذين ينقلون نفس الأفكار ويستعيرون نفس القالب ليطبقوه على تاريخنا القومى ، متجاهلين الفروق الموضوعية والحقائق الخاصة بنا ، والتى تحتم علينا البدء منها ، لا مما قرره الآخرون (١) .

والا فبما ذا نسمى تلك السمات العامة والمشتركة التى اتصفت بها الجماعة العربية فى العصر الاقطاعى ، والتى تكونت وتبلورت واكتملت لها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، والتى أشرنا اليها فيما مضى من هذا الكتاب ؟؟ ..

ماذا نسمى تلك الجماعة التى أخذت تعيش على هذه الأرض ، والتى وان تكن قد انحدرت من أصول عرقية مختلفة ، الا أنها قد انصهرت ، واصبحت تكون شيئا جديدا ، فلم تعد قبائل رحل ، ولا جماعات تلتقى لقاء عرضيا ، وانما أصبحت بالفعل **جماعة عربية واحدة** ، ساهم التاريخ فى تكوينها ، وصهرتها ومزجت بين أجزائها الأحداث .

وماذا نسمى تلك **اللغة المشتركة** ، التى أصبحت رباطا يربط هذه الجماعة ، وأداة من أهم أدوات حياتها ، ووعاء انسانيا تختزن فيه ذكرياتها وآمالها وآلامها ، وتصوغ بها الأمانى والأحلام . تلك اللغة التى اكتسبتها هذه الجماعة من خلال معارك كثيرة وقاسية دخلتها العربية ضد العديد من اللغات واللهجات .

وماذا نسمى تلك **الرقعة من الأرض** التى عاشت عليها هذه الجماعة ، والتى شهدت تاريخها ومعاركها ، واختلط ترابها بذكرياتها وتراثها

---

(١) وهذا الموقف الخاطىء الذى ننقده الآن ، ونرفض تبنيه ، هو الموقف الذى سبق ، وتبنيناه فى كتابنا « القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب » الصادر فى سنة ١٩٥٨ م راجع فيه الفصل الأول « معنى القومية » ص - ١١ وهو الموقف الذى عدنا الى نقده وأشرنا لذلك فى كتابنا « الأمة العربية وقضية التوحيد » الصادر فى مايو سنة ١٩٦٦ م ، ومما يدل على أهمية هذه الفكرة ، وضرورة طرحها للنقاش والأخذ والعطاء تلك الانتقادات والتعليقات التى أثيرت حول هذا الموضوع - شفويا وكتابة - بمناسبة صدور كتابنا سالف الذكر . راجع جريدة « الجمهورية » العدد ٤٥٨٠ فى ٧ يوليو سنة ١٩٦٦ ، مقال الأستاذ « عبد السلام مبارك » حول هذا الموضوع أثناء عرضه ونقده للكتاب .

وما بذلت من تضحيات ، وقدمت من دماء وشهداء ، والتى أصبحت محيطا تسبح فيه هذه الجماعة بفكرها الطليق ، وحركتها الثورية ، وفكرها العلمى والثقافى ، وأدبها وفنها ، وميدانا لما أبدعت من تجارة وصناعة وزراعة ، لا يحجزها محيط ، ولا يفصلها جبل ، ولا يعوق التفاعل عليها عائق « طبيعى » . والتى لم تحل الحواجز التى انتصبت فوقها فى عصر التجزئة دون انتفاح سبلها أمام كل العرب بما يملكون من قوى ابداعية ، وما يقدمون من خلق وابتكار وتجديد . تلك الأرض التى وان تكن قد عرفت المراكز الاقليمية والعواصم المتعددة ، التى تفاعلت حولها جماعات من الناس متعددة :

* فى مصر .. حول « الفسطاط » ثم « القطائع » ، ثم « القاهرة »
* وفى الشام .. حول « دمشق » .
* وفى العراق .. حول « بغداد » .

الا أنها قد تفاعلت جميعا ، حول دمشق ، ثم جميعا ، طويلا ، حول بغداد ، ثم جميعا ، طويلا ، حول القاهرة .. وفى كل الأحيان والظروف تفاعلت جميعا ، وباستمرار ، حول قيم واحدة ، ومثل متحدة ، وأهداف ان لم تتحد ، فلقد كان بينها تقارب شديد .

وماذا نسمى هذه الثقافة المشتركة التى تعكس وتجسد ذلك **التكوين النفسى المشترك** ، الذى عرفته وعاشته الجماعة العربية منذ ان تمت لها عملية التعريب والانصهار ، منذ أن أصبحت تنبعث من وجدانها نداءات الأحياء العربى ، والتغنى بالأمجاد العربية ، فتزخر كتبها بالأحاديث عن « أيام العرب » ومعاركهم ضد المعتدين ، وتقدم الملاحم والأساطير فى هذا الباب ، باب « المغازى » و « أيام العرب » .

ويقدم عملاق كأبى العلاء المعرى رجالا كأبى الطيب المتنبى فى المقدمة ، ويفضله على من عداه من الرواد ، ويفضل شعراء المجد العربى فى الجاهلية عن بعض الذين اسلموا ، فيدخلهم الجنة فى (رسالة الغفران) !!

ومنذ أن أصبحت اساطير مثل « عنترة » و « سيف بن ذى يزن » و « الهلالية » ، يحس كل الناس نحوها بالتعاطف ، ويعيشون فى احداثها ومبالغاتها وبطولاتها ، اسعد لحظات الحياة وأمجدها .

وعندما اخذت (الف ليلة وليلة) مكانها ككتاب العرب المصور لحياتهم اليومية ، وتكوينهم النفسى ، وعاداتهم وتقاليدهم ، فى كل الأقطار .

ومنذ ان اصبح الاسلام ، بما يحمل من تعاليم واخلاقيات وعادات وتقاليد فى الزواج والطلاق والأفراح والأحزان ، والمعاملات ، يمثل ميدانا كبيرا وهاما فى التكوين النفسى حتى للعرب الذين لا يعتنقون هذا الدين ، فلقد « كان يسود بين الجماعة التى انتظمها حكم الخليفة قدر كاف من التجانس ، يبرر اعتبارها وحده .. واهم من الاتحاد السياسى والدينى أن القوم الذين نطلق عليهم هنا لفظ العرب قد ساهموا بنصيب فى تاريخ ثقافى مشترك » (١) .

نعم .. ماذا نسمى تلك اللغة المشتركة التى تؤلف بين قلوب هذه الجماعة وعقولها .. وماذا نسمى تلك الرقعة الأرضية التى يدور عليها هذا اللون من الوان التفاعل ، الذى وان يكن قاصرا ، وغير موحد حول مركز واحد فى كل هذه الفترة الزمنية الاقطاعية ، الا انه حدث نام ، وظاهرة متطورة .. وماذا نسمى ذلك التكوين النفسى المشترك الذى اخذ ، رويدا رويدا ، يلف الجماعة العربية بخيوط من الفكر الواحد ، والنمط المتحد للعقلية العربية ، والثقافة المشتركة بين الجميع .

ماذا نسمى كل هذه السمات العامة والمشتركة ، ان لم نسمها قومية ، وخصائص قومية لجماعة بشرية ، تستحق أن نطلق عليها منذ اكتمال هذه السمات ، واتصافها بها ، انها قد بلغت مرحلة من التطور كفيلة بأن تجعلها تتقدم الى الناس ، والى الباحثين القوميين كقومية عربية مكتملة الخصائص والسمات ، أو قاب قوسين أو أدنى من هذا الاكتمال .

ونحن هنا لا نريد أن نطيل الحديث فى تفصيل كل سمة من هذه السمات ، وفى المستوى الذى وصلت اليه من النضج والعمق ، لأننا فى حديثنا الطويل عن الامبراطورية العربية الاقطاعية ، وسماتها ، قد تناولنا أطرافا كثيرة من الحديث المتصل بهذه السمات وفى حديثنا عن التعريف ، فى هذا الباب ، قد استهدفنا الحديث المتصل بهذا الموضوع وما حديثنا الآن عن سمات القومية العربية الا خروج بالنتائج من هذه المقدمات التى سقناها فى الباب السابق وفيما قدمنا عن التعريف فى هذا الباب (٢) .

---

(١) دى لاس أوليرى « علوم اليونان وسبل انتقالها للعرب ص٤ ترجمة د. وهيب كامل .

(٢) وراجع فى ذلك أيضا كتابنا « الأمة العربية وقضية التوحيد » الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من الباب الثانى ص ٦٧ ـ ١٧٣ .

انما نريد أن نقول :**ان الجماعة العربية قد كونت قومية فى ظل العصر الاقطاعى ، وأن الذى حدث لسمات هذه القومية بعد أن نشأت البورجوازيات العربيـة هو تعميق هذه السمات واثراؤها ، واضـافة سمات جديدة اليهـا ، وبذلك وصلت الى مشـارف « الأمة » وتعدت مرحلة ((القومية)) ، وهذا ما نسميه ــ على حد تعبير المناطقة ــ بعلاقة الخصوص والعموم بين ((القومية)) و ((الأمة)) ، فالأمة قومية وزيادة بينما القومية ليست أمة ، لأن القومية اعم ، والأمة اخص .**

على أن البعض قد يثير اعتراضا تبدو عليه ملامح الوجاهة بصدد هذا الموضوع ، اذ يقول : ومن الذى يقول ان سمات الأمة أو القومية هى وليدة العصر البورجوازى ، وانها لم تعرف طريقهـا الى الوجود فى عصر الاقطاع ؟؟ .. ان هذه السمات ، وبدقة ، بعضها ، قد وجد فى العصر الاقطاعى ، ولكنها كانت مجرد امكانيات ، أو عوامل مؤثرة تأثير « القوة » لا تأثير « انفعل » ، كما يعبر المناطقة ، وأن تحول هذه العوامل من الوجود « بالقوة » الى الوجود « بالفعل » انما حدث فى ظـل العصر البورجوازى والذين يعترضون هذا الاعتراض ، يسوقون عبارات «ستالين» فى رسالته عن (اللينينـة والمسألة القومية) التى تقول : « .. فى الواقع ان عناصر الأمة ، أعنى اللغة ، والأرض ، والثقافة ، لم تهبط من السماء وأنما تكونت بالتدريج ، منذ عهد ما قبل الراسمالية .. ولكن هذه العناصر كانت اذ ذاك فى حالة « رشيمية » ، وهى ، فى أفضل الحالات كانت بمثابة عوامل كامنة ، تساعد على تكوين الأمة فى المستقبل ، عندما تتوافر الظروف الملائمة لذلك .. وهذه الامكانيات الكامنة لم تتحول الى واقع الا فى عهد نهوض الراسمالية مع اسواقها القومية ومراكزهـا الاقتصادية والثقافية .. » .

ورغم وجاهة هذا الاعتراض عند سماعه للوهـلة الأولى ، الا انه لايثبت للحقائق ، وحقائق تطور الجماعة العربية ، والقومية العربيـة بالذات .

فهذه العوامل التى ظهرت عندنا منذ عهد ماقبل الراسمالية ، اى فى فترة العصر الاقطاعى ، اى السمات التى تحدثنا عنها ، لم تـكن مجرد «عوامل كامنة» ، وموجودة «بالقوة» لا «بالفعل» ، وانما كانت عوامل حية متفاعلة ، ذات اثر ملء السمع والبصر ، بل لقـد كانت عوامل متكاملة ، عندما تفاعلت وتبلورت ، نقلت الجماعة العربيـة الى طور جديد من اطوار التقدم ، وتقدمت بها الى حالة «كيفية» جديدة لم تعرفها من قبل .

فبدلا من الجماعات المتعددة ، والمتصارعة ، : قيسية ويمنية ، عربية وفارسية وقبطية وبربرية ، غدت هناك جماعة عربية واحدة .

وبدلا من اللغات المتصارعة فى الديوان ، وعلى النقود وفى الرسائل وفى الكنيسة ، بل وفى المسجد ، وفى الشوارع والحقول ، نجد العربية قد أصبحت لغة الجميع ، فهى لم تكن لغة العاصمة ، أو لغة احدى المقاطعات حتى جاءت الثورة البورجوازية فجعلت منها لغة الامبراطورية والعالم العربى ، كما كانت الفرنسية لغة باريس فقط ، والانجليزية لغة لندن فحسب ، حتى جاءت الثورة البورجوازية فى كل من فرنسا وانجلترا ، فجعلت من كل من الفرنسية والانجليزية لغة الأمة جمعاء .

ان مثل فرنسا وانجلترا هذا هو نموذج للاعتراض الذى يتحدث عن « العامل الكامن » الذى تأتى الرأسمالية والثورة البورجوازية فتعطيه قوة «الفعل» والتأثير ، وفعالية وصلاحية لم تكن له من قبل فى ظل عصر الاقطاع .

كما أنه لن يسعف أصحاب مثل هذا الاعتراض استشهادهم بعبارات «لينين» التى يتحدث فيها عن « أن أساس تلك الحركات القومية الاقتصادى يقوم على أن تفوق الانتاج البضاعى تفوقا تاما ، كان يتطلب استيلاء البورجوازية على السوق الداخلية وتوحيد جميع الأراضى التى يتكلم سكانها لغة واحدة فى دولة واحدة ، وازالة كل حاجز من شأنه ان يعوق تطور تلك اللغة ورسوخها ، فى الأدب .. ذلك أن اللغة وسيلة كبرى لاتصال الناس بعضهم ببعض ، كما أن وحدة اللغة وحرية التطور هما من أهم الشروط لقيام مبادلات تجارية شاملة تتوافق والرأسمالية الحديثة ، ولتكتل الناس تكتلا حرا واسعا داخل كل طبقة من طبقات المجتمع ، واخيرا لاقامة علاقة وثيقة بين السوق وبين كل رب عمل كبيرا أو صغيرا ، وبين كل بائع ومشتر » (١) .

فهذا الحديث ، وان يكن تأريخا دقيقا للحركات القومية التى كانت فى ذهن «لينين» وهو يصوغ هذا الحديث ، وتشخيصا عبقريا للظروف والملابسات التى مرت بهذه الحركات ، الا اننا ، صدورا من مسيرة جماعتنا العربية ، القومية ، نجد أن اغلب ملامح الصورة هذه ، قد شهدها عالمنا العربى منذ عصر الاقطاع ، وقبل أن تصبح السيادة فيه للرأسمالية والقوى السياسية المعبرة عن مصالحها .

---

(١) ف. أ. لينين « ملاحظات انتقادية حول المسالة الوطنية » ص ٥٣ . طبعة موسكو . ضمن مجموعة .

فموضوع اللغة العربية ، مثلا ، والتطور الذى شهدته : ان مثـل الانجليزية والفرنسية ، والصورة التى كانت فى ذهن لينين وستالين وهما يتحدثان عن هذا الجانب من جوانب سمات القومية ، يمـكن أن يقارن بالعربية يوم لم يكن قد جاء بعد زمن بعثة الرسول محمـــد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، ولا دين الاسلام ، يوم ان كانت لاتزال لغة قبيلة واحدة هى قريش ، وعاصمة واحدة هى مكة ، لقـد كانت «عاملا كامنا» ، ثم كانت الأحداث التى سبقت الاسلام ، مضافا اليهـا الثورة العربية الاسلامية ، والتى جعلت من اللغة القرشية لغة للعرب ، ثم حدث موقف آخر يمكن أن يصدق فيه هذا التشبيه ، وهو المرحلة التى نضجت فيها مقدمات التعريب وأسسه ، فبعد أن كانت العربيـة لغة الجماعة العربية المنحدرة فقط من الأصول العربية ، جاءت عوامل الصهر والبلورة فى العصر الاقطاعى فجعلت الغلبة للعربية فى معاركها ضد الكلدانية والسريانية والقبطية والبربرية ، وتحول العامل الـكامن فى نطاق الجماعة الضيقة الى عامل فعال على نطاق الجماعة الـكبيرة من المحيط الى الخليج .

ومن هنا فاننا نجد أن النقل الحرفى لهذه النصوص يوقعنـا فى اخطاء تتنافى مع المنهج العلمى الذى نحاول التزامه ، والذى ندعو الى سلوكه طريقا فى البحث حول هذا الموضوع .

ان الذى لم يحـدث فى كثـير من البـلدان الا نتيجة لقوة الثورة البورجوازية وحرارة أحداثها ، قد حدث عندنا فى العصر الاقطـاعى ، لأن مجتمعنا الاقطاعى ، كما قدمنا ، كان زاخرا بقوى اجتماعية غير اقطاعية ومؤثرات وعوامل ، وظروف وملابسات ، أكثر ثورية وتقدما من القوى التقليدية صاحبة المصلحة الحقيقية فى الاقطاع .

وهكذا نجد أن «العوامل» التى لم تتحول الى واقع قبل الراسمالية فى بلاد أخرى ، قد تحولت عندنا الى واقع فى عصر الاقطاع ، وانها لم تكن مجرد «عوامل» ، بل اكتملت وتفاعلت واثرت ، فأصبحت ظاهرة موضوعية ، هى القومية العربية التى وجدت منذ ذلك التاريخ .

ودليل آخر على صحة ما نقول : ذلك الوصف الذى ساقه«ستالين» للعصر الاقطاعى ، أثناء حديثه فى رسالته « اللينينية والمسألة القومية » عن استحالة قيام الأمة فى الوقت السابق على الراسمالية ، يقول : « ... فى عهد الاقطاعية ، عندما كانت البلاد مجزأة الى أمارات مستقلة لايرتبط بعضها ببعض بروابط قومية ، فضلا عن أنها كانت تنكر باصرار ضرورة أمثال تلك الروابط .. كما أنه ما كانت وجدت بعد المراكز القومية

الاقتصادية والثقافية ، وبالتالى ماكانت وجدت العوامل التى تقضى على التجزئة القومية لشعب ما ، وتجمع شتات الشعب المذكور لتكوين (كل قومى) ... »

فهل هـذا الحديث عن المسألة القوميـــة فى العصر الاقطاعى يمكن أن يكون حديثا عن قوميتنا فى العصر الاقطاعى العربى ؟ ؟

ان ذلك لايجوز .. لأن الأوصاف التى جاءت فى هذه العبارات للعصر الاقطاعى لاتنطبق ابدا على المرحلة التى مرت بها الجماعة العربية ولا تصلح وصفا للظروف التى عاشها المجتمع الاقطاعى الذى شهدناه .

فالأمارات المستقلة التى لاترتبط مع بعضها برباط قومى ، لم تكن قسمة ذات بال فى المجتمع العربى الاقطـــاعى ، وهذا الاستقلال الذى شهده العالم العربى لأمارات العصور الوسطى ، لم يوقف ، بل كثيرا مادعم الروابط العامة والسمات المشتركة ، اى القومية ، بين كل العرب ولقد افضنا فى الحديث عن ذلك عندما تحدثنا عن سمة التجزئة فى حديثنا عن الامبراطورية العربية الاقطاعية .

وهذه الامارات المســتقلة ، لم تكن « تنكر باصرار ضرورة امثـــال تلك الروابط » القومية ، كما هى الحالة فى الصورة التى عبرت عنهـــا هذه النصوص ، اذ انه فى الوقت الذى كانت فيه الحواجز الاقطاعية ، والحدود التى يرسمها الحـكام بين اجزاء العـــالم العربى ، عقبة أمام التفـــاعل العربى والتوحيد فى الســـمات والخصـــائص ، كانت هـــذه الحواجز تلقى مقاومة وحربا واكتساحا من القوى التوحيدية والثورية فى مختلف الامارات والولايات ، بل اننا لا نجد صدى يذكر لهذه الحدود والفواصل فى قاعدة التكوين النفس المشترك للجماعة العربية ، وهى الحركة الثقافية التى ازدهرت فى ذلك العصر .

« فعبد الله بن حبيب » الألبيرى ، عندما يضع أول كتاب عن تاريخ وطنه « الأندلس » نراه يعتمد فى معظم اخباره على «شيوخ المصريين» .

وهـــذه « المراكز القوميـــة الاقتصـــادية والثقـــافية » التى تقطع النصـــوص التى قدمناها بعدم وجودها فى العصر الاقطـــاعى ، كانت موجودة فى المجتمع الاقطاعى العربى ، وان تكن بصورة اولية ، ودون ما نعهدها عليه اليوم من قوة واكتمال ، فلقد جعلت التجارة العربيـــة التى تحدثنا عنها من قبل ، من المراكز الاقتصادية العربية الاقليمية ، مراكز قوميـــة فى معظم الأحيـــان ، كما أن المدارس الفـــكرية والمراكز الثقافية لم تكن ، فى الأغلب الأعم ، الا مراكز ثقافية قوميـــة ، يرتوى منها العرب فى كل مكان .

فمدرسة « البصرة » ومدرسة « الكوفة » لم تكن مدارس محلية ، لأن انتاجهما ، وخلافاتهما ، فى « النحو » و « الصرف » و « البلاغة » وغيرها ، قد أخذت طريقها الى مختلف الأمصار ، ودرست واستوعبت، لا من باب الدراسات المقارنة ، والفكر الذى يقف فيه الناس الى جانب هذا أو ذاك ، بل كفكرهم وموقفهم باعتبارهم جزءا من هذه المدرسة الفكرية أو تلك .

والشيعة .. لم تكن مدرسة فكرية اقليمية ، ولا حركة ثورية محلية ، ومثلها كل المدارس الفكرية والحركات الثورية التى عرفها العرب فى عصر الاقطاع .

ومن ثم فان الحديث عن عدم شهود عصر الاقطاع للعوامل « التى تقضى على التجزئة القومية لشعب ما ، وتجمع شتات الشعب المذكور لتكوين (كل قومى).. » ، ان الحديث عن هذا قد ينطبق على مجتمع اقطاعى غير المجتمع الاقطاعى العربى ، لأن مجتمعنا هذا قد شهد بالفعل من العوامل التوحيدية التى تحدثنا عنها ما قضى على التجزئة القومية للجماعة العربية ، وجمع شتات هذه الجماعة فى « كل قومى واحد » ، وبلور كيانها فى القومية العربية منذ عدة قرون .

وفى نفس الاطار يمكن ان نقدم الحديث الذى ساقه « لينين » عن اللغة ، وارتباط عمومها ونموها بالراسمالية ومجتمعها ، والذى يقول فيه : « .. فاللغة هى الأداة الأساسية للتعامل الانسانى ، ووحدة اللغة وتطورها غير المحدود هو أحد الظروف الاكثر اهمية من أجل تعامل تجارى حر بالفعل ، وواسع النطاق على المستوى الذى تتطلبه الراسمالية الحديثة ، ومن أجل التجميع الحر والعريض لكل السكان ، من مختلف الطبقات ، واخيرا من أجل اقامة ارتباط وثيق بين السوق وبين كل مالك كبيرا كان أم صغيرا ، بائعا أم مشتريا » .

ولكننا سنجد ، ايضا ، أن هذا المستوى من النمو اللغوى قد حققت العربية أعلى منه فى عصر الاقطاع .

وهكذا نجد من خلال المناقشة البسيطة التى قدمناها هنا ، اننا نحن العرب ، ازاء « ظاهرة عربية » خاصة ، عندما ندرس تطور حياتنا القومية ، وبصدد ظروف موضوعية خاصة ، جعلت من قوميتنا ظاهرة مبكرة النشأة ، ونبتا للعصر الاقطاعى ، وثمرة من ثمار عصور موغلة فى القدم بالنسبة لغيرها من القوميات .

وهذا مادعانا لأن نؤكد حاجتنا الى «نظرية عربية» فى المسألة القومية ، وما يدعونا لأن نفرق بين هذه الظاهرة التى تحدثنا عنها ،

والتى اطلقنا عليها وعلى سماتها وخصائصها اسم «القومية العربية» ، وبين الحالة التى سيأتى الحديث عنها وعن سماتها وخصائصها ، والتى تتبلور اليوم على الأرض العربية ، والتى تعيشها الجماعة العربية بعد ظهور البورجوازيات ، والتى آثرت ما يمكن أن نسميه : « الأمة العربية فى دور التكوين » (١) .

***

ونحن ، انطلاقا من هذا التشخيص الذى حددناه للعلاقة بين «القومية» و «الأمة» ، عندما قلنا ان العلاقة بينهما علاقة الخصوص والعموم .. **وأن الأمة هى القومية فى طور جديد ، اى أن الأمة هى** الظاهرة القومية فى العصر البورجوازى ، بتلك الاضافات التى يضيفها العصر البورجوازى فى شكل سمة جديدة هى « الحياة الاقتصادية المشتركة » للجماعة الواحدة ، وايضا بما يضيفه العصر البرجوازى من أبعاد جديدة ، ومضامين جديدة لتلك السمات التى ظهرت فى العصر الاقطاعى ، وكونت ظاهرة «القومية العربية» .. نرى انه اذا كانت سمات القومية العربية هى :

* الجماعة العربية التى تكونت تاريخيا .

* واللغة العربية المشتركة التى تتحدثها وتفكر بها هذه الجماعة .

* والأرض العربية التى تتفاعل عليها هذه الجماعة ، ويزداد تفاعلها عليها يوما بعد يوم .

* والتكوين النفسى المشترك الذى انعكس فى الثقافة المشتركة لهذه الجماعة ، هذه الثقافة التى نسميها اليوم : التراث العربى ، فى العلم والثقافة والآداب والفنون .

فان سمات « الأمة العربية » التى هى الآن فى دور التكوين هى :

« الى جانب سمات القومية ، السابقة ، وبمضامين أعمق واغنى لسمات القومية هذه » تضاف سمة :

* الحياة الاقتصادية المشتركة للجماعة العربية .

ولعله من الاهمية بمكان أن نقول الآن ، اننا لسنا أول من فرق فى الدراسات القومية بين ظاهرة «القومية» وظاهرة « الأمة » ، وانه

---

(١) وهو الموضوع الذى تناولناه فى كتابنا « الأمة العربية وقضية التوحيد » الصادر فى مايو سنة ١٩٦٦ م .

الى جانب ما نسمع الآن عن ابراز هذا التفريق والفصل والتمييز بينهما فى دائرة المعارف السوفيتية المطبوعة حـــديثا .. فان امانة البحث تدفعنا الى ذكر ان « كارل ماركس » قد ميز بين هاتين الظاهرتين منـذ قرن من الزمان ، ففى ٢٠ يونيو ســـــنة ١٨٦٦ م كتب ماركس عن «المناقشات القومية» التى دارت فى «مجلس الأممية» يقول : « امس ، جرت مناقشات فى مجلس الاممية حول الحرب القائمة . وقد تمركزت المناقشات ، كما كان ينبغى توقع ذلك ، حول مســـالة «القوميـات» وموقفنا منها ... ان ممثلى «فرنسا الفتية » (غير العمال) قـدموا وجهة النظر التالية ، وهى **أن كل قومية ، والأمة نفسها هما من الأوهام** البائدة . هذه شتيرنيرية برودونية .. ينبغى للعـالم بأسره أن ينتظر نضوج الفرنسيين ليقوموا بالثورة الاجتماعية .. لقد ضحك الانجليز كثيرا عندما قلت فىمستهل خطابى ان صديقنا لافارج والآخرين، اللذين الغوا القوميات يخاطبوننا بالفرنسية ، اى، بلغة لايفهمها تسعة اعشـار المجتمعين ، ثم ألمحت الى أن لافارج ، دون أن يدرك مايقول ، يفهم ، كما يبدو ، من انكار **القوميات ، امتصاصها من قبل الأمة المثالية ، الأمة الفرنسية** » (١) .

فالعبارتان اللتان وضعت تحتهما خطا (تأكيدا) ، من كلام ماركس ، تشهدان بأنه قد حدد أن ظاهرة القومية شىء ، وظاهرة الأمة شىء آخر ، وأن بينهما صلات .

***

ثم جاء المفكر والمؤرخ الفرنسى « هانرى بر » الذى اشرف على نشر «الـكليات التاريخية » تحت عنوان « تطور البشرية » ، فكتب مقدمة ضافية لـكل مجلد من المجلدات ، وفى المقدمة التى كتبها للمجلد المعنون «يقظة القوميات خلال القرن التاسع عشر» قال : « ... ان القوميـة جماعة بشرية تنزع اما الى تكوين أمة تحكم نفسها بنفسها .. أو الاندماج فى أمة موجودة قبلا ، بسبب بعض العلائق القائمة بينهما ، ولا ينقص القومية حتى تصبح أمة الا الدولة التى تكون خاصة بها ، أو تكون مقبولة منها ، بحرية ... »

ونحن نعتقد ان كلمات «هانرى بر » تكاد ان تكون التشـخيص الادق للتفرقة بين القومية والأمة ، وعلاقة كل منهما بالأخرى ، بشرط ان نعتبر أن اشتراطه للدولة ، كشرط لتصبح القومية أمة ، تعبيرا عن

---

(١) ف. ا. لينين « حق الأمم فى تقرير مصيرها » ص١١٢ ، ١١٣ .

ضرورة اضافة سمة « الحياة الاقتصادية المشتركة » لسمات القومية ، حتى تصبح سمات الأمة مكتملة ، لأن الاقتصاد المشترك لايمكن أن يتحقق لجماعة بشرية دون ان يكون لهذه الجماعة الدولة الخاصة بها ، أو التى تكون هذه الجماعة جزءا من رعاياها ، كما سنفصله فى مكان آخر .

* * *

على أنه فى مقابل الذين لمسوا الحقيقة الضرورية للتمييز بين «القومية» و «الأمة» ، وادراك حقيقة الروابط بينهما ، فان هناك مفكرين آخرين ، ودوائر معارف لم تلتزم هذا التفريق ، بل اننا نستطيع ان نقول ان الأغلبية الساحقة من مدارس الفكر القومى لم تلتزم هذا التمييز . ولم يكن ذلك الا انعكاسا للظروف التى كتب فيها مفكرو هذه المدارس دراساتهم ، والواقع الموضوعى الذى كان مادة لهذه الدراسات .

فنحن لم تكن نتوقع ، مثلا ، من دائرة المعارف البريطانية أن تفرق مابين «القومية» و «الأمة» ، ولا أن تتجنب الخلط بينهما ، والحديث عنهما كظاهرة واحدة ، لأن هؤلاء المفكرين الانجليز لم تكن لديهم ظاهرة «قومية» نشأت فى فترة زمنية ، ثم تطورت الى «أمة» فى فترة زمنية أخرى .

بل لقد ازداد الخلط لدى هؤلاء المفكرين فلم يلحظوا الفرق بين القومية ، والأمة ، والدولة ، فالدائرة تعرف القومية بقولها « القومية حالة عقلية تصير الولاء الأسمى للفرد عائدا للدولة القومية » .

ففى ظروف دولة حديثة كانجلترا ، قد اكتملت للجماعة الانجليزية فيها مقومات الأمة ، تأتى دائرة المعارف فتسوى بين القومية والأمة ، ثم هى تجعل القومية حالة عقلية تصير الولاء « للدولة » ، مع اننا نعلم أن «الدولة» شىء آخر غير القومية وغير الأمة .. واننى قد أكون عربيا ، أومن بالقومية العربية ، وأحارب «الدولة» العربية ، لأنها تمثل سلطة الاستغلال والرجعية ، مثلا ، فالدولة « جهاز » ، وليست الجماعة البشرية ، ولا هى بالمقومات والسمات التى تجعل الجماعة البشرية تكون قومية ، أو تكون أمة .

وما دفع المفكرين البريطانيين الى الخلط ، غير تجسد القومية الانجليزية فى الأمة الانجليزية ، ومحاولتهم تقديس «الدولة» الانجليزية ، فقادتهم هذه النظرة السطحية الى هذا الخلط الغريب .

* * *

ومدرسة الفكر القومي عند الألمان .. انها ايضا احدى المدارس التي لم تدرك الفرق بين القومية والأمة . وليس لهذه المدرسة عذر المفكرين الانجليز ، فلقد كانت ألمانيا عندما زخرت بالفكر القومي والمفـــكرين القوميين ، دولة غير موحدة ، ومجزأة الى عدة مئات من الممالك والامارات والاقطاعيات ، وكانت تشد كل هذه الأجزاء بعضها الى بعض ســمات القومية ومقوماتها ، وتنقصها في نفس الوقت بعض السمات الضرورية لكي تصبح أمة .

وكافحت ألمانيا بأساليب شتى ، وطرق مختلفة ، حتى اســتكملت خصائص الأمة وسماتها ، وتم لها ذلك عندما تمت عملية التوحيد ، أي أن كل الظروف الموضوعية كانت مهيأة ليدرك المفكرون القوميون الألمان الفرق بين القومية وبين الأمة ، ولكن المنهج غير العلمي في التفكير ، الذي ســاد هذه المدرسة ، لم يساعد على سلوك هذا السبيل ، كما أن ســببا هاما وأساسيا ، صاغ الألمان نظريتهم في القومية في ظل قيامه ، قــد منعهم وحال بينهم وبين سلوك هذا الطريق .. ذلك هو الاستغراق في الحديث عن القومية من خلال الفكر الطامع في الأرض والأقاليم ، وصياغة النظرية القومية بالشكل الذي يضمن لألمانيا انتزاع اقليم « الالزاس » من أيدي الفرنسيين . لقد كانت هذه المشكلة هي كل شيء لدى المفكرين القوميين الألمان .

ولقد كانت «الألزاس» يومها بيد الفرنسيين ، ولكنها كانت تتكلم اللغة الالمانية ، ووجد الالمان ان حبل اللغة هو الحبل الوحيـــد الذي يربطهم بالجماعة التي تسكن « الالزاس » ، فالاقتصاد ومرتبط بفرنسا ،والدولة جهازها الرئيسي في باريس ، وليس غير اللغة ، وما يتعلق بها من الفكر والثقافة والتراث ، روابط مشتركة بين الألمان و « الالزاس » .

ولذلك لم يكن غريبا الا يبصر المفكرون الألمان من مقومات القوميــة وسماتها غير سمة اللغة ، وأن يحدث لهم ما يمكن أن نسميه «الاستغراق اللغوي» ، فلا يبصرون سواها من سمات القومية ، فضـــلا عن ادراك التفرقة بين القومية والأمة .

فأبو المفكرين القوميين الألمان « جوهان هيردر » (١٧٤٤ - ١٨٠٣ م) والذي تتلمذ على يديه معظم مفكري الألمان يقول : « ان الطبيعــة فرقت الشعوب بعضها عن بعض ، ليس بواسطة الغابات والجبال والبحـــار والصحاري والأنهار ... فحسب ، بل فرقتها ايضا ، وبوجـــه اخص بواسطة اللغات والميول والسجايا . »

وليس في هذا الكلام كبير استغراق في عالم اللغة وحدها ، ولـكن لننظر كيف يعالج مفكر آخر هو « فيخته » (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) هذا

الموضوع ، انه يقول : « اللغة هي جهاز الاجتماع في الانسان ، اللغة والأمة امران متعادلان ... ان الحدود السياسية التي تستحق التسمية باسم « الطبيعية » هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات » .

ومن بعده يأتي « ماكس نودور » (١٨٤٨ - ١٩٢٣ م) فيقول : « ان الفرد مندمج في المجتمع باللغة ، وباللغة وحدها » كما يقول ايضا :«حقا ان اللغة لهي الانسان نفسه » !! (١)

ثم يطرق مفكرهم « مومشن » الموضوع بصراحة ووضوح فيقـــول : « ربما كان الالزاسيون قد فقدوا وعيهم القومي ... ولـكنهم لايزالون المانا باللغة » .

وهكذا لم تدع مشكلة«الالزاس» للمفكرين الالمان فرصة ليبصروا ابعد من ذلك الرباط اللغوي الذي يضمن لهم مواجهة الفرنسيين ، والنضال ضدهم ، لكسب معركة اعادة هذا الاقليم الى حظيرة الدولة الأم ، اذانهم قد افرغوا معظم طاقاتهم الفكرية والنظرية في هذا السبيل ، فلم يغفلوا، فقط التفرقة بين القومية والأمة ، وما بينهما من روابط وعلاقات عموم وخصوص ، وانما هم قد اغفلوا اعطاء باقي سمات القوميـــة ما تستحق من الدراسة والتمحيص .

* * *

وكما حصرت المدرسة الالمانية نفسها في اللغة ، ولم تبصر غير البعد اللغوي ، فاننا نجد المدرسة الفرنسية في التفكير القـــومي قد حصرت نفسها فيما يمكن ان نسميه فكرة « الارادة والمشيئة » لأنها كانت تحارب من فوق ارض مشابهة لما يحارب من فوقها الالمان ، ولأنهـــا كانت تقف قبالتهم ، وبينهما اقليم «الالزاس» .

فاذا كان الالمان يريدون «الالزاس» لأنها تتكلم اللغة الالمانيـــة ، فالفرنسيون يريدونها لأنها انضمت اليهم ، أو ضمت اليهم ، وهي «تريد وتشاء» الاستمرار جزءا من الدولة الفرنسية .

فاللغة عند الالمان هي كل شيء ، و « الارادة والمشيئة » عنـــد الفرنسيين هي كل شيء .. وكما ضاعت كل سمات القومية الأخرى -غير اللغة - ، وايضا التفرقة بينها وبين الأمة ، عند الالمان ، فلقد ضـاعت كل سمات القومية ، وايضا التفرقة بينها وبين الأمة ، عند اغلبية المفكرين القوميين الفرنسيين .

وكبير المفكرين القوميين الفرنسيين وفيلسوفهم « ارنست رينـان »

---

(١) ماكس نودور «روح القومية » ص ١٥ . ترجمة عادل جبر .

يقول : « ان وجود الأمة انما هو بمثابة **تصويت مستمر للحياة المشتركة** ، كما ان وجود الفرد تأكيد دائم للحياة » .

فالارادة (التصويت) لصالح الحياة المشتركة هو لب الوجود للأمة، وعندما يعرف الامة يقول : « .... الاشتراك فى تراث ثمين من الذكريات الماضية ، **والرغبة فى العيشة المشتركة** ، مع الاحتفاظ بذلك التراث المعنوى المشترك ، والسعى وراء زيادة قيمة ذلك التراث .... هذا هو اس الأساس فى تكوين الأمة . »

وعلى نفس الدرب يسير « اميل دور كهايم » فيقول : « القومية جماعة انسانية تريد لأسباب تتعلق بالأصل أو بالتاريخ فقط أن تحيا فى ظل قوانين معينة ، وان تشكل دولة ، سواء اكانت صغيرة أم كبيرة» .

وكما طرق « مومش » الألمانى الموضوع بصراحة ووضوح ، فان المفكر الفرنسى « فوستيل ديكولانج » يطرقه بنفس الصراحة ونفس الوضوح ، فيقول : « ان القومية لا تتبع اللغة .... قد يكون الالزاسيون المانا باللغة ، ولكنهم — على كل حال — افرنسيون **بالنزعة والمشيئة** » (١)

وهكذا .. فى طيات النزاع حول الالزاس ضاعت السمات الحقة للقومية ، والتفرقة بينها وبين الأمة ، عند مفكرى المدرستين الالمانية والفرنسية .

ورغم الفكر الفنى الذى ورثناه عن هاتين المدرستين ، الا انه كان وسيظل فكرا معيبا ، لأنه يسير خلف المصالح الاقتصادية لمجموعة من الرأسماليين تعيش فى المانيا او تسكن فى باريس .

بل ان هذه التبعية الرجعية لم تدفع مثل هؤلاء المفكرين لطعن الحقيقة فيما يتعلق « بالالزاس » فقط ، بل وفيما يتعلق بقطعة من وطننا العربى ايضا ، هى الشمال الافريقى الذى يقول عنه المفكر الالمانى «ماكس نودور» الذى أشرنا اليه سابقا : « ان شمال افريقيا سيكون مهجرا ومستوطنا للشعوب الأوربية ، وأما سكانه الحاليون ، فسيدفعون نحو الجنوب ، الى الصحراء الكبرى .... الى ان يفنوا هناك !! »

نعم ... ان الذين يضعون أنفسهم وفكرهم وطاقاتهم فى خدمة الرأسمالية ، سيان عندهم أن يبرروا لها القهر والاستغلال ، تمارسهما ضد شعبهم أو ضد غيره من الشعوب .

وكم كنا نود ان يعيش « ماكس نودور » حتى يشهد عاقبة اتباع فرنسا لنصيحته فى الشمال الافريقى ، وكيف كانت نهاية المطاف ، هزيمة

---

(١) راجع ساطع الحصرى « محاضرات فى نشوء الفكرة القومية » .

منكرة للمستعمرين الفرنسيين ، ثم دفعهم الى البحر ، ففرنسا ... ؛ ومجد واستبسال .. ثم استقلال لشعب الشمال الأفريقي ، في اطار حركة الأمة العربية ذات المحتوى التقدمي ، لا المفاهيم الرجعية ، كما فكر وصاغ المفكرون القوميون الألمان والفرنسيون .

* * *

وحول مثل هذه المفاهيم المتخلفة ، والقاصرة ، والمثالية ، في الفكر القومي ، قامت مدارس واتجاهات في كثير من الأمم والقوميات .

وحول مفاهيم المدرسة الألمانية ، قامت مدارس قومية عربية ، ذات اثر وخطر في التفكير القومي ، والعمل القومي في مجتمعنا الحديث . وحفلت المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات التي استلهم كاتبوها ما في هذه المدرسة من اسس وما خط روادها من قواعد واصول .

ونحن وان كنا ـ كما هو واضح ومفهوم ـ نقف موقف الرفض من المنهج غير العلمي الذي سلكته هذه المدارس ، وهؤلاء المفكرون العرب الذين تتلمذوا عليها وتأثروا بها تأثرا شديدا ، الا اننا لا نعتبر التناقض بين المفاهيم والصياغات التي نقدمها ونؤمن بها وبين صياغات هؤلاء ومفاهيمهم ، تناقضا عدائيا ، وغير قابل للحل بالحوار الفكري الموضوعي والهادىء ، والمستلهم المصلحة السامية لأمتنا العربية في ضوء الواقع الموضوعي للظرف القومي الذي تعيش فيه ... وانما التناقض الذي نعتبره عدائيا ، وحادا ، وغير قابل للحل بالوسائل الفكرية والسلمية بيننا وبين بعض الذين يزعمون لأنفسهم مكانا في الحقل القومي ، هو ذلك التناقض القائم بين القوى القومية الثورية العربية من جانب وبين « الحزب القومي السوري » من جانب آخر ... وهو الحزب الذي وان لم يتتلمذ على المدرسة الألمانية في موقفها من عامل « اللغة » الا انه قد استلهم ابشع ما في الفكر الألماني الرجعي اليميني من قيم تؤمن بالفاشية وتمجد العدوان ، وتخلق من الزيف مجدا كاذبا ، ثم ترتكب الجرائم لتربط المجتمع بأكثر القوى ميلا الى الرجعية واليمين والاستعمار .

واذا كانت اللغة لا تسعف هذا الحزب ، بل تقف ضده ، وضد ادعاءاته ، لأن الذين يتكلمون العربية هم أكثر من سكان « الأمة السورية الطبيعية » التي ينادي بها الحزب ، ويدعو لبعثها على أسس طبيعية وبيئية ، الأمة التي يتحدث عنها مفكر الحزب وفيلسوفه ، وعن مكوناتها فيقول : « ان تقسيم الأرض الى بيئات هو السبب المباشر لتوزع النوع البشري الى جماعات . فالبيئة كانت ولا تزال تحدد الجماعة ، لأن لكل بيئة جغرافيتها وخصائصها ... فالحدود الجغرافية تضمن وحدة

الجماعة ، لأنها تجمعها ضمنها ، وتكون العامل الاول فى المحافظـــــــة عليهـــا » (١)

واذا كانت اللغة لم تسعف هذا الحزب ، فلقد اسعفته الجـوانب الرجعية والأفكار اليمينية فى الفكر القومى الألمانى ، والفـرنسى كذلك .. تلك الجوانب التى جعلتـــه ينظر الى كل من « الجمهـــوريه العربية المتحدة » ، وقيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، والى الحركةالصهيونية نفس النظرة ، ويتهمها نفس الاتهام ، فالجمهورية العربية المتحدةتغتصب من «الأمة السورية» ، امة الحزب ، شبه جزيرة سيناء ، وقطاع غزه ، والحركة الصهيونية تغتصب من « الأمة السوريه » فلسطين المحتـــلة (أى اسرائيل) .. وهو وان كان ينظر اليهما هذه النظره المتساويه ،الا أنه فى نشاطه العملى قد وقف الى جانب الصهيونية ضد الجمهــــوريه العربية المتحدة وقيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م . وضد كل القوى الوطنية والتقدمية فى الحركة القومية العربية .

* * *

وبعد هذه الرحلة الفكرية مع المدارس الفكرية المختلفة والمتمـــايزه والمتعارضة ، « ماركسية » كانت أم « المانية » أم « فرنسية » ، وما فى كل منها من نقاط قـوة وعوامل ضعف ، وكذلك الاشارة الى آثار هـذه المدارس على فكرنا القومى العربى ، والاشارة كذلك الى هذا السرطـان الاستعمارى الذى يتشح كذبا وبهتانا بوشاح قومى تحت لافتة « الحزب القومى السورى » .. بعد هذه الرحلة ، نعود الى ما بدانا به هذاالباب ... لنقول مرة أخرى انه بالرغم من المدارس الفكرية القومية التى تنكر التمييز بين «القومية» و «الأمة» ، الا أننا لظروف موضوعية مرت بنا ، وقد لا تكون قد مرت بأوطان هؤلاء المفكرين ، أو لعدم اجادتهم دراســة ما مر بهم وبأوطانهم من ظروف وملابسات وتطورات .. رغم ذلك ، الا اننا قد شهدنا ، ومن خلال الدراسات الموضوعية لتطور الجماعة العربية عبر التاريخ، أن الجماعة العربية قد مرتبفترة زمنيةخلال العصر الاقطاعى، اكتسبت فيها من السمات ، واكتمل لها من الخصائص ، ما يجعلنـــا نقول ما قلناه فيما تقدم من صفحات ، من أن القومية العربية ، قـــد اكتملت كظاهرة موضوعية منذ القرن الحادى عشر والثانى عشرالميلاديين، وأن العصر الاقطاعى العربى قد اجتمعت له من السمات والظـــروف والملابسات مالم يجتمع لغيرة من عصور الاقطاع التى مرت بجمــــاعة

---

(١) أنطون سعاده « نشوء الأمم » . وجغرافية « الأمة السورية » هذه تشمل العراق والاردن وفلسطين وسوريا ولبنان وقبرص . هلال خصيب نجمته قبرص .

أخرى غير الجماعة العربيـــة ـ فى حدود علمنا وما فى ذهننـــا من نماذج نقيس عليها ـ وان ذلك قد عكس تأثيرات قومية خاصة على الجماعة العربية سبق تفصيلها ، جعلت منها قومية عربية ، عرفت العالم ، وعرفها العالم ، قبل العصر الراسمالى بوقت غير قصير .

ولا شك أن الأمور لو سارت سيرها الطبيعى فى العالم العربى ، ولو لم تعترض سير هذه الجماعة السدود والعقبات والمعوقات .. لدفعها سبقها القومى الذى أحرزته الى أن تسير بسرعة أكبر نحو التقـــدم ، وأن تكتمل لها خصائص الأمة فى وقت مبكر نسبيا ، وقبل غيرها من الجماعات .

وان القوى الاجتماعية غير الاقطاعية التى كانت تزخر بها الأرض العربية، وتضطرب بها أحشاء المجتمع الاقطاعى ، ان هذه القوى غير الاقطاعيـــة ، كانت تســـير ، وذلك منطقى جـــدا ، بخطى سريعـــة نحـــو اقامة المجتمع « البورجوازى العربى » ، نحو ازاحة القوى الاقطاعية العربية من السلطة، وبناء سلطة جديدة أكثر تقدما ، تنتصر لهذه لقوى الاجتماعية الجديدة ، ولقيمها الأكثر تقدما من قيم الاقطاع .

ولكن ذلك لم يحدث ..

فلقد تضافرت على العالم العربى ، بعد ان اكتملت لجماعتـــه عنـــاصر قوميتها ، من العقبـــات والمعوقات ، ما أخر نموه القومى ، وحال دون أن تتطور « قوميته » الى « أمة » .. وجعله يرســـف فى القيـــود والأغلال مئات السنين .

الباب الخامس

نكسة القومية العربية

١٣٠٠ - ١٨٠٥م

١ - وليست هنـاك غرابة فى اختيار سنة ١٣٠٠ م بداية لتاريخ النكسة التى اصابت العالم العربى ، وحركة القومية العربية ، والضربات القاسية والبشعة التى وجهت الى القوى الاجتماعية الجديدة التى كانت تنمو فى أحشاء المجتمع الاقطاعى ، وان يتحول منذ ذلك التاريخ « الحمل » بالحركة البورجوازية النامية ، الى « اجهاض » دام نحوا من خمسة قرون .

ليست هناك غرابة فى اختيار هذا العام ، رغم انه عام انتصـار عربى ، قضى فيه المماليك على الحملة المغولية الثالثة التى عاثت فسادا فى الأرض السورية ، ليست هناك غرابة فى أن يكون هذا التاريخ بداية لعصر النكسة التى اصابت حركة القومية العربية .

ذلك أنه ، كما قدمنا عند حديثنا عن الحروب الصليبية ، والمغولية ،ضد العرب ، ان هذه الحروب كما كانت فرصة من الخطر الذى ساعد على التئام العرب وتضامنهم ، فقد هيأ هذا الخطر الفرصة للقيادة الاقطاعية فى المجتمع العربى أن تحرز النصر وتحصل على المجد ، وتدعم من نفوذ الاقطاع وان ذلك كان عاملا سلبيا بالنسبة لظاهرة نمو القوى الاجتماعية العـربية الجديدة وتعاظم نفوذها .

وبهذا الانتصار الذى أحرزه المماليك على الحملة المغولية فى نهـاية القرن الثالث عشر الميلادى ، أخذت ، منذ ذلك اليوم ، تعيش على امجـاد هذا الانتصار ، والانتصارات المملوكية السابقة التى أحرزها الظاهر بيبرس البندقدارى وخلفاؤه ، اخذت تعيش على هذه الانتصارات وتلك الامجـاد قوى حاكمة غير عربية ، هى قوى المماليك ، الذين لم يكونوا كالظـاهر بيبرس ، ولم يعيشوا أحداثا عربية كبرى ، تحدث لهم تحولات فى الفكر والتكوين النفسى ، وتقربهم من العرب ، وتدمجهم فى المجتمع الذى يحكمونه كما حدث لأبطال مثل صلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس .

كما ان هذه القوى المملوكية ، غير العربية ، لم تكن فرصة حكمها قصيرة وطارئة كسحابة صيف ، بحيث لاتستطيع فيها ان تكبل الروح العربية ، وتنزل الهزيمة بالقيم العربية ، وتوجه الطعنات النجلاء لحضارة العرب وثقافتهم ، لم تكن فرصة حكمها قصيرة كالدولة « البويهية » أو «السلجوقية» أو « الموحدين » أو « المرابطين » ، مثلا .. تلك « الدول » التى حملها المد العربى الحضارى والثقافى على سطحه ، وسطحه فقط ، ثم شيعها الى مثواها الأخير دون أن يسمح لها بأن تعوق سيره كثيرا ، ولا بتحويل تياره ، بل لقد استفاد من امكانياتها فى بعض الأحايين .

ولكن فترة حكم المماليك لم تكن على هذا النحو ، فلقد استمرت أكثر من خمسة قرون ، منفردة بالسلطة حينا ، مشتركة فيها احيانا أخرى مع قوة لاتقل عنها جهلا بالعروبة ، أو عداء لها ، هى قوة الأتراك العثمانيين.

واذا كانت الطعنات التى توجهها القوى المعادية للروح الشابة لقومية من القوميات ، يستحيل عليها ان تحدث الأثر الفورى والمفاجىء ، وانما هى تفتح الجروح التى تنزف منها دماء هذه الروح ، فلقد كانت الآثار التى ترتبت على ضربات الصليبيين والمغول لروح القومية العربية ، ولقاعدة النسيج التوحيدى للعرب ، أكثر ماتكون بروزا واتضاحا ، عندما اخذ العهد يطول بالحكم المملوكى ، واخذت آثار المماليك ، الغرباء عن حضارة العرب ومجتمعهم ، والذين كانوا اشبه بجيش من الفرسان الاقطاعيين المرتزقة ، اغاروا على العالم العربى وحكموه بحد السيف وسنابك الخيل كل هذه القرون ، اخذت آثار حكمهم فى الظهور .

لقد اخذت جراح العالم العربى تنزف الدم القومى ، ولم يكن غريبا أن العهد المملوكى كان هو العهد الذى اقترب فيه العالم العربى ، اقتصاديا ، ومن ثم اجتماعيا ، من الشكل الكلاسيكى الذى عرفه الاقطاع عند الأوربيين .

واننا قد قرأنا وسمعنا من مظالم هذا العصر ، والقهر الذى تعرضت له الروح العربية ، اشياء تحكى اليوم كالخيالات والأساطير .

ولم تكن آثار الانتكاسة القومية ، والردة الرجعية ، التى أحدثها طول عهد المماليك بالحكم للعالم العربى ، قاصرة على شيوع التحلل والتفسخ وانكسار الشوكة العربية فى المشرق فقط ، وفى البلاد التى خضعت خضوعا مباشرا لهؤلاء المماليك ، لأن أفول نجم القاهرة ، وكانت قد عقدت لها الزعامة منذ الفاطميين وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس ، ومنذ ان حمت الحضارة العربية الاسلامية بهزيمة الصليبيين والمغول ، وبالأزهر الشريف .. ان افول هذا النجم العربى كان لابد أن ساعد انتشار الظلام

فى كل مكان من العالم العربى ، من المحيط الى الخليج ، بل ابعد من المحيط والخليج .

فلم يات عام ١٤٩٢م حتى كان النزيف الذى سببته جراح الاعداء أعداء الدويلات العربية فى الأندلس قد بلغ بهذه الدويلات نهاية المطاف . واحتضرت هذه الدويلات ، ثم اسلمت الروح .

ولم يكن النصر الذى أحرزه المسيحيون فى الاندلس ضد العرب ،حربا دينية تشنها المسيحية ضد الاسلام ، وتحرز فيها الانتصار ، ولا هو « تحرير قومى » يقوم به سكان البلاد الأصليون ضد العرب الوافدين الغرباء .

لأن الأندلس التى فتحها العرب سنة ٧١٠ م ، والذين دام حكمهم فيها نحواً من ثمانية قرون ، الأندلس هذه ، كانت قد اصبحت مهجراً لعديد من القبائل العربية ، وكانت قد شهدت حركة « تعريب » نموذجية وعملاقة ، وكانت قد تحولت الى مايشبه الجامعة الفكرية ، والمنارة العلمية التى تتلمذ عليها قوى أوربا الجديدة ، التى قادت نهضة عصر البعث والإحياء .

والحرب التى شنتها الكنيسة ضد هذه « الجامعة العلميه العربية» انما قادتها وغذتها تلك القوى التى ظهرت فى الميدان عندما لاحت بوادر هزيمة العرب الأندلسيين ، ظهرت لتجهز على كل ماله صلة بهذهالحضارة العربية ، والثقافة العربية ، قوى محاكم التفتيش .

لقد كانت حربا احد اطرافها أشد الأشكال الرجعية الكهنوتية سوادا وطرفها الآخر تلك القوى التى صنعت المجد الحضارى المتقدم علىالأرض الاندلسية ، ليتعلم منه الأوربيون ، ولتقدم لغلاة المحاربين الصليبين نموذج « القاعدة الثقافية » التى تصنع من التقارب الانسانى ، والألفة البشرية، مايداوى جراح حملاتهم الست التخريبية المشئومة .

أما الدليل على أن هذا الانتصار « المسيحى » انما تم لحساب غلاة الرجعيين فى الكنيسة المسيحية ، فهو ذلك البحر من الدم الذى دفعته اعاصير من الحقد الرجعى الأسود ، والذى أغرقت فيه محاكم التفتيش حضارة العرب الانسانية فى الأندلس ، واغرقت معها فى ذلك الندم كل العرب الأندلسيين .

والذين لم يسعدهم الحظ بالفرار والهروب من ديارهم ومزارعهم ومعاهدهم وما أقاموا من حلقات درس وما انشأوا من جامعات ، الذين لم تستطع قدماهم بلوغ الشاطىء الإفريقى العربى للبحر المتوسط : حلت

عليهم الليالى السوداء لعامى ١٥٢٠ و ١٥٢١ م ، حيث خيروا بين « استنكار » حضارتهم العربية ، ودينهم الاسلامى ، والدخول فى المسيحية ، وبين الذبح علنا فى الأسواق والشوارع والميادين .

وطوى الظلام الرجعى صفحة عربية مشرقة ، وساعده فى هذا العمل افول النجم العربى فى المشرق ، وضعف الروح القومية العربية فى ظل حكم المماليك الغرباء ، والأتراك الغزاة .



وبعد خمس سنوات من سقوط الحكم العربى فى الأندلس ، أصيب العالم العربى بضربة اخرى كانت اقسى بمراحل كثيرة من سقوط الأندلس اذ أن عام ١٤٩٨ م قد شهد اكتشاف الملاحين البرتغال لطريق « رأس الرجاء الصالح » فى جنوب افريقيا ، وتحولت التجارة « الآسيوية — الأوربية » عن طريقها العربى ودارت مع البرتغاليين حول أفريقيا الى « لشبونة » عاصمة البرتغال .

ونحن لانبصر فى تحول التجارة العالمية عن الطريق العربى الى هذا الطريق الجديد ، مجرد خسارة أدبية اصابت العالم العربى ، ولا مجرد روابط تجارية كانت تتبعها روابط حضارية بين العرب والمدن التجارية الأوربية ، مثل « البندقية ونابلى وجنوه » وغيرها من الجمهوريات ، روابط أصابها التمزق والانقطاع .

بل ولا نرى فى هذا الحدث مجرد ضياع اموال طائلة كانت تحصل عليها دولة المماليك ، وتساعد فى الانفاق على الأزهر ، وبناء المساجد ، والبيمارستانات ، وبعض المدارس فى القاهرة .. فلقد كانت دولة المماليك تحصل على ضريبة من هذه التجارة قيمتها ٥٪ من قيمة البضائع عند دخولها الأرض العربية ، و ١٠٪ من قيمتها عند مغادرتها الأرض العربية الى اوربا . ورغم عظم هذه المبالغ المتحصلة ، ودورها فى الرخاء العام ، الا أن ذلك لم يكن أهم خسارة فى الموضوع .

وانما نحن نرى أن اتجاه الضربة ، انما اصاب القوى التجارية العربية فى الصميم ، تلك القوى التى كانت تسيطر على عملية التجارة هذه ، وتقيم لها على الأرض العربية شبكات من الطرق ، وسلاسل متصلة من القوافل والرحلات ، وتصنع من خلال ذلك خيوطا توحيدية ، وعمليات التقاء واختلاط ، ومزج وصهر ، تدفع بعوامل التوحيد العربى ، وبلورة الكيان العربى الواحد للجماعة العربية خطوا تواسعة الى الأمام .

وضرب هذه القوى التجارية العربية ، باكتشاف طريق راس الرجاء الصالح ، وتحول التجارة العالمية اليه ، انما اصاب هذه الخيوط التوحيدية العربية بالذبول والتفكك والتمزيق ، كما جعل الجماعة العربية تنكمش داخل حدودها بعد أن كانت تعمر شواطىء الهند وتواصل المهام الثقافية النبيلة التى بدأها العلامة « البيرونى » منذ القرن العاشر الميلادى ، وتتصل بالمدن التجارية الأوربية ، وتفتح نوافذ الحضارة والثقافة العربية فى كل اتجاه.

ومن هذه الزاوية فى تناول الموضوع ، نجد أن اكتشاف طريق «راس الرجاء الصالح » ، وتحول التجارة اليه ، قد أصاب القوى الاجتمـــاعية الجديدة فى العالم العربى بالطعنة القاتلة التى فشلت الحروب الصليبيـــة فى أن تسددها بهــــذا الاحكام ، أو فشلت فى أن تحرز فى تسديدها هذا القدر الكبير من التصويب والنجــــاح .

ولو شئنا أن نلخص الموقف الذى نشأ عن ذلك فى عبارة واحدة ، لقلنا ان « فاسكو دى جاما » قدنجح فيما فشلت فيه الحملات الست من الحرب التى قادها الصليبيون (١) .

ولم تجد العرب ، الذين كانت تثقل ظهورهم يومئذ السلطة المملوكية الثقيلة الوطأة ، لم تجدهم رغباتهم فى مقاومة البرتغاليين ، ولم ينفعهم ذلك التحالف الذى قام بين المماليك وبين تجار « البندقية » لمحاربة البرتغاليين وذلك الأسطول الذى بنى بمساعدة مالية من البندقية ، والذى قادة المماليك فلقد هزم البرتغاليون على سواحل الهند ، فى معركة « ديو » البحــــرية هذا الأسطول فى سنة ١٥٠٩ م .

بل ولم يجدهم كذلك ذلك الحلف الذى عقده المماليك مع بعض امراء الهنود الوطنيين الذين كانوا يقاومون زحف البرتغال .

فلقــد كانت مقدمات النكسة تتجمع ، وتتوالى على العالم العــربى عناصر المأساة .

---

(١) وعن هذا الانتصار « الغربى » يتحدث « أرنولد توينبى » فى ص٢٤ من كتابه « العـــالم والغرب » فيقول : ان « الغرب فى الواقع قد ألقى الحبـــل حول عنق الاسلام بفضل [illegible] المحيط»

٣ - وبعد سبع سنوات فقط من معركة « ديو » البحرية وفى سنة ١٥١٦م بالتحديد ، كان يزحف على العالم العربى من ناحية الشمال طوفان من الدمار التركى ، وأرجال الجيش العثمانى ، والليل الذى لف العالم العربى بردائه الأسود أكثر من أربعة قرون .

واتضحت معالم الصورة تماما ، فلقد كانت السلطة المملوكية الشديدة الوطأة ، وسقوط العروبة تحت معاول الرجعية الكهنوتية فى الأندلس ، وتمزق النسيج التوحيدى بضعف القوى التجارية العربية بعد تحول التجارة الى طريق « رأس الرجاء الصالح » .. لقد كانت كل هذه الأحداث مقدمات لهذه النتيجة المحزنة التى شهدها العالم العربى فى شكل حكم لآل عثمان ليست لمظالمه حدود ، وسيطرة للاتراك جعلت كاتبنا العربى القومى عبد الرحمن الكواكبى يقول فيهم كلمته الشهيرة : « ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل ، والترك ، والجراد !! »

ففى موقعة « مرج دابق » بشمال سورية ، اكتسحت جيوش السلطان سليم الأول العثمانى ، جيش المماليك ، وسقط تحت سنابك الخيل سلطانهم الشجاع « الفورى » ومات بخيانة بعض رجاله من أمثال « الغزالى » و « خايربك » ، الذى لقبه الشعب فى مصر بـ « خاين بك » مات الفورى بالخيانة قبل أن يموت بضربات العثمانيين ، وكان ذلك سنة ١٥١٦ م .

وفى أوائل سنة ١٥١٧ دخلت جيوش السلطان التركى سليم الأول المتفوقة عددا وعدة ، القاهرة .

وكانت عين سليم الأول على الطبقة الرجعية التى مهدت الطريق لقدومه بقتلها الروح العربية ومقومات العرب القومية منذ قرون ، كانت

عينه على هذه الطبقة من المماليك ، لتكون أحد أعمدة حكمه لمصر والعرب، لأنه لم يأت الا ليواصل المهمة التى بدأتها منذ قرون تلك القوى المعادية لنمو العرب القومى والحضارى .. وان يكن يريد ان يواصلها لحساب الامبراطورية الواسعة التى بناها هو وأجداده ، والتى بدأت امارة صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى سنة ١٣٠٠م على يد الأمير «عثمان».

وعرض سليم الأول ، الخيانة ، على السلطان « طومان باى » ،ولكنه رفض ، وفضل الاستشهاد شنقا على باب زويلة بيد العثمانيين .

ورأى العثمانيون فى يوم شنق « طومان باى » مادة « لخيال الظل » يشهدونه فى القصور التى احتلوها على ضفاف النيل ، بينما رأى المصريون فى هذا اليوم عرضا جديدا لبطولة نادرة لم يشهدها الناس منذ أيام صلاح الدين الأيوبى ، والظاهر بيبرس ، من الرجال الذين أصبحوا أغنية فى فم الزمان العربى ، وأسطورة لم تنسها ذاكرة الشعب الصامد العنيد.

وعندما أدى سليم الأول مهمته فى مصر ، وشرع فى الرحيل عنها، كان قد صنع أمرين ، هما فى الحقيقة أمر واحد :

فهو ، أولا قد قام بعملية « تفريغ » لمصر من القوى النامية الجديدة المتبقية فيها ، والحاملة بذور التقدم فى قلب المجتمع ، فلم يحمل معه فقط ، فى عودته ، كما قال « ابن اياس » : « الف جمل مخملة بالذهب والفضة » ، ولم يسلب مصر كل زينة ازدانت بها مساجدها ومدارسها وقباب أوليائها ومقابر موسريها ، فقط ، بل سلبها أيضا كل مالديها من صناع مهرة ، وحرفيين مجيدين ، ومتخصصين فى الصناعة والتجارة والزراعة ، وكل مالدى هؤلاء من آلات وأدوات .

نفس مارمت الى تحقيقه الحروب الطيبية ، والرحلة البرتغالية، وما ساعد على تحقيقه حكم المماليك .. ونفس الاتجاه للطعنة التى تروم القضاء على القاعدة القومية لتقتلها ، أو على الأقل لتعوق نموها ، وتضع امامها الصعاب والعقبات ، والتى تجعل انتصارها أمرا أشبه بالمستحيل.

أما الأمر الثانى الذى صنعه سليم الأول قبل مغادرته مصر ، فهو ذلك الثالوث الذى أقامه لحكم البلاد ، أو ، اذا شئنا الدقة ، لحفظ الفوضى وتنظيمها ، ومنعها من أن تذبل ، أو تزداد فتضر بتبعية العرب للأتراك .. ثالوث :

* الوالى « الباشا » .

* والحامية العسكرية « المرتزقة » .

* وطبقة المماليك .

فلقد كانت مصر هي قلب العالم العربي ، وهي المنارة ، وقاعدة الانطلاق ، ولقد أدرك سليم الأول من وضعها وخطورتها مالا يزال يجهله حتى الآ مفكرون سياسيون من أبناء القرن العشرين . ومن هنا فلقد كان حرصه على اضعاف العالم العربي ، وضرب القومية العربية . يتجلى في النظام الذى وضعه لاضعاف هذا القلب النابض على شواطىء النيل وضربه .

ونحن لن نجد فى وصف أهداف السلطان سليم ، وتشخيص نوع السلطة التى أقامها فى مصر أدق من تلك الكلمات التى كتبها « نابليون بونابرت » في مذكراته عندما قال : « .. كان عند تركيا أكثر من سبب للخوف من مصر ، فمصر فى نظر العرب الأرض المقدسة ، والعاصمة الطبيعية للدولة العربية . وقد كان من المحتمل أن يقوم « باشا » طموح لانهاض الأمة العربية ، وعندئذ تتضاءل الى جانبها الدولة العثمانية .وخوفا من هذا الاحتمال لم يشأ السلطان سليم ، فاتح مصر ، أن يعهد بحكومة مصر الى « باشا » بمفرده ، كما أنه كان يخشى الا يكون ذلك ضمانا كافيا فقسم مصر الى عدةمقاطعات يحكم كلا منها أحد الباشوات ، ولم ير فى ذلك أيضا ضمانا كافيا يحول دون قيام زعيم يحقق لمصر الوحدة ،ويتولى قيادتها ، فأوفد بعثة من جانبه مكونة من ثلاثة وعشرين مملوكا ،واشترط ألا تتضمن حاشيتهم الا عبيدا ، كما اشترط أن يكون المماليك وعبيدهم جميعا من أصل شركسى ، وألا يكون أبدا من بينهم من كان ينتمى الى أصل عربى أو مصرى » (١) .

هذهھى كلمات «نابليون بونابرت» تصور بشكل جيد ورائع ،ادراك السلطان سليم لمركز مصر العربى ، وفهمه لمنطقة الخطر على توسعه واستعماره ، وأيضا تصف ذلك القيد المثلث الذى كبل به الأتراك مصر ، حتى لاتقود حركة البعث العربى ، و « انهاض الأمة العربية » حسب تعبير نابليون .

***

وهذه الفوضى التى أوقع الأتراك فيها العالم العربى ، والظلم الإجتماعى الصارخ ، فى الشكل والمضمون ، الذى عاشه العرب تحت حكمهم ، والمذلة والمهانة التى أحسها الناس وعاشوها ، وان يكن قدحاربها

---

(١) محمد على الفتيت «الغرب والشرق من الحروب الصليبية حتى حرب السويس»

الشعب بكل سلاح ، بالقوة ، وبالكلمة ، بالانتفاضة ، وبالنكت والنوادر والحكم والأمثال .

هذه الصنوف من المظالم والمهانات أشهر من أن نتحدث عنها ، ونعقد لها الفصول والأبواب ، وان تكن التذكرة ببعض الأمثلة مما لا يضر ، بل يفيـــد .

ففى عهد أول ولاة العثمانيين بمصر ، ولم يكن عهد هؤلاء الولاة يطول ، حدث أن سعر العملة ، نتيجة الفوضى ، قد أصابه اربعة وعشرون تعديلا؟!

وكانت هذه التعديلات تحدث لتســـاعد على زيادة حجم الضرائب وقيمتها، وزيادة الجزية التى تدفعها مصر للاستانة ، ولتزيد دخل المماليك والأتراك ، ولتحيل الفلاحين المصريين الى أشباح ، ولتجعل القرى المصرية تصل الى وضع أصبحت فيه « تقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء، وكثيرا ماكان يتسلل المزارعون ليلا الى الجسور يقطعونها ، لتحويل ميـاه جيرانهم الى أراضيهم ، ولما اشتد بهم الحرمان من الماء ، وضاقوا بمـــا يلاقونه من الملاك ، من الضرب والظلم ، هجر كثير منهم الأرض ،وتحولوا الى أعمال « مناسر اللصوص » وقطاع الطرق ، والاجرام فى الخـــلاء المحيط بالقرى .. »(1) .

****

والتحلل الذى أصاب القوى الاجتماعية الجديدة فى المجتمع ،والذى أخذشكل الازدهارلأسلوب الاستغلالالاقطاعى على يد المماليك والملتزمين ونظار الأوقاف .. والذى اقارب اسلوب الاستغلال الاقطاعى الأوربى ،كما أشرنا الى ذلك فى الماضى ، كان أيضا احد نماذج الدرك الأسفل الـذى وصل اليه العالم العربى فى ظل سلطة بنى عثمان .

****

وهذه التجارة التى كانت « ترمومتر » النجم العربى الصاعد ، وشريان الحضارة العربية ، التى أصابتها الحروب الصليبية بطعنات .. ثم وجه لها البرتغاليون أعنف ما وجه اليها من ضربات .. هذه التجارة لم يحاربها الاتراك بالمكوس والمصادرات فحسب، بل لقد جلبوا ،بضعفهم ؛ ولعـــابهم الذى كان يسيل للرشوة ، جلبوا للقيام بها الجاليات الأوربية ، والنفوذ الأجنبى ، الذى كان نواة الاستعمار الأوربى للعالم العربى ، والذى تسـلم التركة من الاتراك فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

---

(1) جورج كيرك « موجز تاريخ الشرق الاوسط » ص ٩٣ ، ٩٤ .

وشهدت الامبراطورية العثمانية اوسع حركة لمنح الامتيـــازات للأوربيين ،وعادت التجارة لتنشط من جديد ، ولكن عن طريق الأجانب، وبعيدا عن العرب أصحاب البلاد الأصليين .

* ففي سنة ١٥٢١ حصلت « البندقية » من السلطان العثـــماني على امتياز تجاري ومالي ،فتح الطريق لمايمكن ان نسميه سيل الامتيازات.

* وفي سنة ١٥٣٥ م حصلت « فرنسا » على امتياز مماثل .

* وفي سنة ١٥٧٩ حصلت « انجلترا » على امتياز آخر .

* وفي سنة ١٥٩٨ اقتفت « هولندا » أثر من ســـبقها من دول الامتيـــازات .

* وفي سنة ١٧٠٠ جاء دور « روسيا القيصرية » لتـــدخل هي الأخرى هـــذا الميـــدان .

* وفي سنة ١٧٣٧ م حصلت « السويد » على امتياز لرعاياها .

* وفي سنة ١٧٤٠ م حصلت « نابلي » على امتياز لرعاياها .

* وفي سنة ١٧٥٦ م حطت « الدانيمارك » هي الأخرى على امتياز

* وفي سنة ١٧٦٧ م حصلت « بروسيا » على امتيازها .

* وفي سنة ١٧٨٢ م حصلت « أسبانيا » على امتيازها .

* وفي سنة ١٨٣٠ م حطت « الولايات المتحدة الأمريكية » عـــلى امتيـــاز لرعاياها .

* وفي سنة ١٨٣٨ م جاء دور « بلجيكا » ، فحصلت هي الأخـــرى على امتيـــاز .

* وفي سنة ١٨٤٣ م حصلت « البرتغال » على امتياز آخر .

* وفي سنة ١٨٥٤ م جاء دور « اليونان » لتدخل في زمرة الدول صاحبة الامتيازات .. وكانت قبلا مستعمرة من مستعمرات آل عثمان .

ونحن هنـــا لم نتحدث عن معاهدة « باليتمان » التجـــارية ، والتي عقدت بين انجلترا وبين الدول العثمانية سنة ١٨٣٨م ، والتي اقتضت نصـــوصها :

١ ـ السماح لرعايا بريطانيا بالاتجار في المنتجات الزراعية والصناعية في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية ، بما في ذلك مصر ، دون قيـــد او شرط .

٢ ــ الغاء الحظر المفروض على تصدير بعض السلع بمقتضى نظـام الاحتكار الحكومى .

٣ ــ يتمتع رعايا بريطانيا بامتيازات الدولة الاولى بالرعاية ، بحيث تسرى عليهم ، فى الحال وبدون مقابل ، مباشرة ايةامتيازات تجارية أو جمركية تمنح لرعايا أية دولة أخرى .

٤ ــ تحدد ضرائب الواردات على أساس ٣٪ بالاضافة الى ضريبة قدرها ٢٪ على تجارة التجزئة ، وتلغى الضرائب الاضافية على الواردات.

٥ ــ تحدد ضرائب الصـــــادرات بواقع ١٢٪ ، منها ٣٪ يدفعها المصدرون الأجانب .

ونحن لم نتحدث عن دلالة هذه المعاهدة الخطيرة ، وذات الأثرالكبير فى تطور الأحداث الاقتصادية فى العالم العربى ، والتى كانت موجهـــة أساسا ضد القلعة العربية ، مصر ، لأننا سنتناول ذلك الحديث فىمكان آخر من هذه الدراسة (١) .

فقط نريد ان نقول هنا ، ان الدولة العثمانية أخذت تمنح الاجانب الامتيازات فى اثر الامتيازات حتى لم تجد هناك شيئا تستطيع أن تمنحه وحتى أصبحت الدول الأوربية هى التى تنظم فيما بينها ، ومن خلف ظهـر السلطان ، الحصول على الامتيازات ، ومنحها ، وتعديلها .. ثم يقـــوم السلطان بالتوقيع ، واصدار « الفرمانات » السلطانية الشاهانية ، المهابة الشكل ، والخطيرة ، بل القاتلة من حيث المضمون .

بل لقد وصل الأمر بالسلطان العثمانى الى درجة اصبح معها بقاؤه على العرش ، مجرد امتياز تمنحه اياه الدول الأوربية ، وتحافظ علىعدم الغائه الى حين محدد ووقت معـــلوم !!

وماذا كنا نتوقع لظروف مادية مثل هذه أن تصنع بالعروبة وبالقومية العربية طوال عدة قرون ؟؟.. لقد صنعت بها أشياء كثيرة ، لا يحســدها عليها أحد من الناس .

---

(١) راجع فى ذلك كتابنا « العروبة فى العصر الحديث » .

٣ـ ولم يكن البناء الفوقى للمجتمع العربى باحسن حالا من قاعدته المادية ، فى ظل حكم الأتراك ، وما كان له أن يكون .

فمثل هذا الظلم الاقتصادى والمأساة الاجتماعية ، وفى ظل دوامهما عدة قرون ، كان لابد وأن يصل البناء الفوقى للمجتمع العربى الى أسفل درك من الانحطاط .

فالأزهر الشريف ، قلعة الثقافة العربية ، والمعهد الذى حفظ تراث الحضارة العربية ، ولولاه لما وجدنا اليوم بين ايدينا ماهو موجود من آثار الحضارة والتراث ، هذا الأزهر قد تحول الى جسم مفرغ ، وشكل بلا مضمون . وسادت الدراسة فيه حالة من التبلد الفكرى ، والجمود العقلى ، والتحجر فى فهم قضايا التراث ومشاكل الدين .

وتحول أغلب رجاله ومفكريه ، الذين كانوا قادة للشعب يومئذ ، الى رجال غرباء عن روح العصر ، غرباء عن ريادة الجديد ، واكتشاف المجهول .

والصورة ، بل اللوحة التى سجلها لنا « الجبرتى » فى كتابه ، عن زيارته ، وزيارة نخبة من علماء الأزهر لدار « المجمع العلمى الفرنسى » ، ومقر البعثة العلمية المرافقة لنابليون ، عندما وقف رجال الازهر أمام « المختبرات » العلمية ، واجرى امامهم احد العلماء الفرنسيين بعض التجارب الكيمائية البسيطة ، ورأو التفاعلات الكيماوية ، فاستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم ؟!! .. واعتقدوا ان ذلك سحر ، ومن ثم رجس من عمل الشيطان ؟! ..

ان هذه الصورة ، تلخص المستوى الذى وصل اليه الأزهر الشريف تحت حكم الأتراك ، والحالة التى وصل اليها حفدة مكتشفى علم الكيمياء وصناعتها ، تحت رايات العثمانيين .

بل وذلك الأسلوب الذى كتب به « الجبرتى » تاريخه الشهير ،وهو نموذج للمستوى المتقدم لأسلوب ذلك العصر ، ان مستوى هـذا الأسلوب والركاكة التى اصابته ، والأخطاء اللغوية الفاحشة ، والكثيرة ، انما تقـدم نموذجا لما اصاب الادب العربى فى ظلحكم الاتراك .

والشعر العربى ، الذى تحول فى ذلك العصر الى « نظم » لا صلة له بالشعر ، ولا يمت بصلة الى الفن العربى الأصيل ، انه هو الاخر صـورة لما وصل اليه التحلل فى البناء الفوقى للمجتمع العربى .

والعلوم والفنون قد تحولت فى ظل هذه الدولة الى مجموعة من « المتون » اى الملخصات الشديدة الاختصار ، والتى تكتب احيـانا نظما بدل النثر ، والتى يحفظها « العلماء » ثم يكتفون بترديدها ، حتى لقـد اطلعوا تلك العبارة التى تلخص الانحطاط العلمى فى ذلك العصر ، والتى تقول : « من حفظ المتون ، حاز الفنون » !! .

وهذه الحركة الجماهيرية العريضة التى سارت خلف مشايخ الطرق الصوفية ، والمغامرين ، من الافاقين والدراويش ، وما حفلت به من الافكار المهينة للعقل ، والتى كان من أبسطها التمسح بالأضرحة والأحجار ؛ وخلط الدين بأفكار وثنية كثيرة ، وانفاق الأموال على الاموات بدلا من الأحيـاء، وانفاق العمر جريا وراء محاولات ساذجة مضحكة لتحويل التراب الى ذهب عن طريق السحرة والمشعوذين .

***

على أننا نظلم هذا العصر ، ونظلم الحقيقة أيضا اذا تصورنا ان هـذا العصر لم يشهد سوى الظلام ، ولم تكن به سوى هذه الجوانب السلبية التى أشرنا الى بعض منها فى هذه السطور .. اذ انه قد شهد أيضـا ، وحفظ ، بعض البقايا للحضارة العربية ، والقيم والمثل العربية ، أخذت تواصل حملها وتنميتها القوى العربية الأصيلة التى أخـذت تنمو رغم قسـوة الظـروف .

بل ان شدة المظالم التى صبها الأتراك على العالم العربى ، قدبعثت مقاومة شديدة لنمط الحياة التركى ، ولأسلوب الحكم التركى ، وأذكت نار الروح العربية ، وخلقت الظروف المادية لمقاومة عربية وانتفاضـات عربية ، بل وثورات فى الفكر والسياسة ضد استعمار آل عثمان .

فالأزهر الذى حاول الأتراك تحويله الى مسخ مشوه ، وجسم بلا روح قد حفظت مكتباته تحت التراب والعنكبوت ، التراث الذى نعتز به اليوم، وتقدم به العروبة نفسها للعالم كشىء أصيل ، ذى تاريخ مجيد . وحلقاته

الدراسية ، قد حفظت للعرب اللسان الذى ينطق العربية صوابا ، أواقرب مايكون الى الصـــواب .

***

وأمام الهجوم اللغوى من قبل التركية على اللغة العربية ، ذلك الهجوم الذى جعل التعليم بالتركية ، والصحافة والقضاء والدواوين كلها بالتركية والذى جعل العربية غريبة فى بلادها ، وجعل من استخدام العربية لغة رسمية فى الولايات العربية ، مطلبا يطالب به قادة المشرق العربى حتى سنة ١٩١٣ م فى مؤتمر باريس .

أمام هذا الهجوم للغة التركية ، وجدت العربية نفسها مضـــطرة لخوض معركة تشحذ فيهـا كل الأســـلحة التى حاربت بها الكلدانية والسريانية والقبطية والبربرية .

وأعادت هذه المعركة الى العرب ذكريات مجد وبطولة وخلود ، وأيضـــا اصرارا بعثته المرارة ، مرارة الاحساس بأن لغتهم الغالية ، التى« قدسها » البعض ، أصبحت اليوم فى موقف الدفاع .

وتغنى الناس العرب بلغتهم ، وحاربوا دونها فى كل مكان ، وانتصرت على التركية .. ويوم سقطت سلطة الأتراك فى مصر على يد الشعب فى عصر محمد على باشا ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،وأخذ يصدر « الوقائع المصرية » ، أصدرها فى البداية بالعربية والتركية معا ، ثم صدرت بعد ذلك بالعربية وحدها .

ويوم سقطت سلطة الأتراك من كل العالم العربى ، لم تترك التركية خلفها الا بعض الألفاظ والتعبيرات التى استوعبتها العربية ، واغتنت بها ، وكانت أوسمة نصر ونياشين فوز فى معركة ضـــارية ، ومشرفة ، خاضتها العربية ضد التركية والأتراك .

***

كما ان الحركة العلمية العربية ، لم تدخل دائرة العدم والفناء كلية طوال هذه القرون . فلم يعدم العالم العربى خلال هذا العصر ظهور بعض الأعلام هنا أو هناك .

ونحن وان كنا قد سمعنا عن العلامة الطبيب « داوود الانطـاكى » الذى ولد « بأنطاكية » وعاش بمصر فى القرن العاشر الهجرى ، والذى خلف لنا كتابه الرائع « تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجاب » الشهير بـ « تذكرة داود » ، والذى يقول فى مقدمته :

« عار على من وهب المنطق المميز للغايات ، ان يطلب رتبة دون الرتبه القصوى . كفى بالعلم شرفا ان كلا يدعيه ، وبالجهل ضعه ان كلا يتبرا منه والانسان انسان ((بالقوه)) اذا لم يعلم ، فاذا علم كان انسانا ((بالفعل))
والذى يقول عن علم الطب : « انه كان من علم الملوك ، يتوارث فيهم ، ولم يخرج عنهم خوفا على مرتبته ، وقد عوتب « ابو قراط » فى بذله للاغراب ولعمرى لقد وقع لنا مثل هذا ، فانى حين دخلت مصر ، ورايت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية ، يمشى الى أوضـــع يهــــودى للتطبب ، فعزمت على ان اجعله كسائر العلوم ، يدرس ليستفيد به المسلمون »

اذا كنا قد سمعنا بداود الانطاكى ، وبعض الاعلام والعلماء الـــذين ساروا على دربه ، فاننا قد راينا فيهم ذكرى للحركه العلميه العـــارمه العملاقه التى شهدها العالم العربى ، والتى اشرنا اليها فى الباب الثالث من هذا الكتاب ، مجرد ذكرى ، ومجرد دلاله على ان العرب لم يمته عهدهم وان الأعصار التركى القاسى لن يستطيع ان يطفىء كل التـــــموع التى اوقدتها الحضاره العربية على طريق الانسان .

***

ونحن لن نتحدث هنا عن التشريع والقانون ، لأن أكثر قوانين العصر التركى شهره كانت هى الرشوة والهديه ، وممالا يمت الى الشرف والخلق القويم بسبب من الأســـباب .

وانعدام حرية الفكر والتعبير ، والتى بلغت بالســـلطة العليـــا فى الآستانة ، أن تمثل مع علم من أعـــلام الحرية والثورة مثل السيد « جمال الدين الأفغانى » مأساة من الكبت والارهاب والتعذيب ليست لها صـــلة بآية قيم نظيفة أو خلق قويم .

والتى جعلت مفكرا قوميامتقدما مثل السيد «عبد الرحمن الكواكبى» يهجر سورية ، ويهرب من السلطة الظالمة فى الشام ، ويعيش فى القاهره ، ويصور فى كتابه الرائع : (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) أروع تصوير وأصدق تجسيد لأبعاد المأساة التى عاناها الانسان العربى فى ظل حكم الأتراك العثمانيين ، ذلك الـــكتاب الذى نشره مع كتـــابه الثـــانى (أم القرى) دون أن يكتب على أى منهما اسمه الحقيقى ، وكتب عليهمـــا اسما سريا اختاره لنفسه خوفا من الارهاب . ورغم ذلك فلقد مات فى ظروف غير طبيعية ، وفجأة ، دعت الناس الى أن يكتبوا على قبره كلمة : « الشهيد » ؟ ! .

***

وذلك التحريك للطائفيــة ، والتعصب الدينى ، الذى اســـتخدمه الأتراك لتفرقة الصفوف العربية ، وخاصة فى الشام ، ولبنان بالذات ، والذى سار على دربهم فيه الاستعمار الغربى ، فأورث العـــالم العربى داء لايزال يعانى منه حتى الآن .

الى غير ذلك من عوامل المأساة وعناصرها .. المأساة التى يمكن أن تحل بجماعة بشرية ذات حضارة عريقة مثل الجمــاعة العربيــة ، عندما تستعبدها وتقهرها جماعة اخرى بلاحضارة ولا تاريخ ، كالجماعة التركية ، ألقيت تقاليدها الى رجعية متغطرسة سوداء .

الباب السادس

عودة الروح للمقاومة العربيّة

١ — ولكن هذه المظالم التركية ، التى أشرنا الى اهمها فى الباب السابق ، لم تكن لتعيش فى العالم العربى دون مقاومة عربية لها ،تجاهد لمنعها، وقهر سلطانها ، او لتخفيفها علىأقل تقدير .

ذلك لأن العرب ، حتى فى أشد عهود السيطرة والقهر التركى ، كانوا ينظرون الى الأتراك نظرتهم الى قوم اقل منهم فى مستوى الحضارة ، وجماعة بلا تراث ولا تاريخ .

وانطلاقا من هذا الموقف المعتز بما للعرب من مجد وتراث وحضارة وتاريخ ، شهد العالم العربى سلسلة من حركات المقاومة لسلطان العثمانيين .

وقبل أن نتناول هذه الحركات العربية الثورية ، بالاشارة والتعليق ، نود ان ننبه الى حقيقة لابد من ذكرها ، وهى أن حركات المقاومة هذه قد امتدت على الأرض الثورية من مواقع « اليمين » الى مواقع « اليسار » ، وأن « برنامج » هذه الحركات الثورية قد تراوح بين « اليمين » و « اليسار » ، ابتداء من حركات « الاصلاح الدينى » ، التى مثلها رجال من طراز « محمد عبد الوهاب » ، بالحجاز ، والحركة الزيدية الشيعية باليمن (١) ، الى الأفكار « اليسارية » ، من امثال الأفكار « الراديكالية » و « الاشتراكية » التى نادى بها عبد الرحمن الكواكبى .. وبين هذين البعدين نشأت مواقع أخرى لثورات أخرى ، وثوار آخرين.

* * *

---

(١) وبالطبع فليست هناك أوجه للمقارنة بين البدايات الثورية التى بدأت بها مثل هذه الحركات الاصلاحية الدينية وبين المواقع الرجعية التى تقف عليها الآن ، سواء فى مجموعها ، أو بالنسبة لتيارات منها على أقل تقدير ، فلقد أصبحت الآن مكرسة لخدمة الامبريالية والاستعمار .

ففيما بين سنة ١٧٠٣ م و سنة ١٧٩٢م ، كانت أرض الحجاز الخاضعة لنفوذ الأتراك تشهد دعوة الرجل الذى اقترنت باسمه الحركة الوهابية « محمد بن عبد الوهاب » .

وكانت هذه الدعوة الوهابية ترى الحجاز وقد سقطت تحت أقدام العثمانيين ، الذين يستغلون الاسلام لاحكام قبضتهم على العالم العربى، ومنه الحجاز .

ولكن ابن عبد الوهاب ، ومريديه ، قد رأوا أن ابعد شيء عن الاسلام، هو هذا الاسلام الذى يؤمن به ، ويظهره خلفاء آل عثمان ، ، وتتخذ منه دولتهم دينا ، ومنهجا فى التفكير .

ورأى ابن عبد الوهاب أن الرجوع الى المنابع الأولى للاسلام ، والأصول الفكرية البكر التى ظهر عليها هذا الدين ، انما تقدم دينا اسلاميا يختلف كل الاختلاف عن الدين الذى يدجل به العثمانيون ، وأن حركة دينية اصلاحية من هذا الطراز كفيلة بأن تقود بلدا كالحجاز فى حركة مقاومة للعثمانيين ، وعصيان سلمى ، أو مسلح ، لسلطان لاتراك (١) .

واستمرت الحركة الوهابية آخذة فى الاتساع ، وامتد نفوذها .. واستطاعت أن تهزم جيش الأتراك ، ولم يجد السلطان العثمانى أمامه الا أن يطلب من محمد على باشا أن يعينه على قهر نفوذ الوهابيين . وقام محمد على بحملته ضد الانتفاضة الوهابية ، واستمرت الحرب من سنة ١٨١١ م الى سنة ١٨١٦ م ، ونجح محمد على ، ولكن الى حين . فلقد استمرت الدعوة الوهابية ، واكتسبت الى صفوفها القبيلة التى كونت العائلة السعودية ، واستمرت فى نشاطها ضد الأتراك ، وأقامت دولة فى نجد والحجاز وعسير ، مستقلة عن الآستانة ، ومعادية لخلافة آل عثمان .

* * *

وكامتداد لأفكار الحركة الوهابية واتجاهاتها فى كثير من أسس الإصلاح الدينى ، وفى العداء لحكم دولة الأتراك ، نشأت فى ليبيا «الحركة السنوسية » « مع تلاؤم مع ظروف ليبيا وافريقيا والمغرب ، وطابعها المحلى » ، تلك الحركة التى أسسها احد الحجاج الليبيين بعد أن زارمكة اثناء حجه ، ثم عاد الى وطنه حاملا معه الأفكار الأساسية لابن عبدالوهاب وكان هذا الحاج ، مؤسس الحركة السنوسية هو « محمد بن على السنوسى » .

---

(١) راجع آراء (العالم النجدى) فى محاورات كتاب (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبى .

والحركة السنوسية هذه لم تلعب دورا هاما فى معارضة النفوذ التركى ومقاومته فقط ، بل وفى محاربة الاستعمار الايطالى بعد ذلك عندما هاجم ليبيا ، وأخذيرث سلطان الأتراك ونفوذهم، بل وقاومت كذلك نفوذ فرنسا فى بلاد الشمال الافريقى(١) .

ولقد سجل تاريخ المقاومة العربية لحكم الأتراك وتسلطهم أسماء حركات « الوهابيين » و « السنوسيين » كأبرز حركات الاصلاح الدينى، أو حركات المقاومة ذات الطابع الدينى التى نشأت فى العالم العربى لتقدم هذا اللون من ألوان المقاومة للسلطان الاقطاعى التركى ، ولتعمل جاهدة فى سبيل تقديم مفهوم اسلامى أكثر قربا من المفاهيم الأولى للاسلام ، وأكثر بعدا عن الشوائب والخزعبلات والخرافات التى اطبقت على تعاليم الاسلام ، وأحالته الى مسخ مشوه يبرر كل مظالم الأتراك ومفاسدهم ومباذلهم .

* * *

وحتى بعض القوى الاقطاعية العربية الأخرى ، لم تدع لها عنجهية الأتراك ومظالمهم فرصة توحيد مصالحهم جميعا بعضهم مع بعض .

ففى السنوات التى مرت بين عامى سنة ١٥٨٥ م و سنة ١٦٣٥ م قامت فى جبل الدروز بلبنان حركة استقلالية تزعمها أحد امراء الاقطاع، وهو الأمير « فخر الدين » واستقل هذا الأمير الاقطاعى بالدولة التى أقامها عن « الباب العالى » ، وشملت هذه الدولة لبنان وشمال فلسطين.

ولعل قيام مثل هذه الدولة الاقطاعية بهذه الحركة الاستقلالية عن السلطة التركية ، انما يقدم أبلغ دليل وأصدق برهان على عدم صلاحية الحكم التركى للعالم العربى ، وأشد أحكام الادانة صرامة للعدوان التركى على المنطقة العربية المهيضة الجناح .

فحتى الاقطاع العربى ، لم يكن سهلا ولا ممكنا أن يتحالف ويتوافق مع السلطة الاقطاعية التى يمثلها آل عثمان .

* * *

وفى العراق .. شهدت الأعوام التسعة والستون الممتدة بين سنة ١٦٠٠ م و سنة ١٦٦٩ م استقلال أسرة « افراس ياب » بلواء «البصرة» عن حكم الأتراك .

---

(١) يقول المفكر والسياسى الفرنسى (هانوتو) : « ... وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر ، مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ، وهو يطرح حبائل الدسائس التى اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى افريقية الجنوبية » « راجع محمد عبده . الاسلام دين العلم والمدنية»

وكان فى التقدم الذى أحرزه لواء «البصرة» تحت حكم هذه الأسرة وفى ظل هذا الاستقلال ، تشجيعا لحركات استقلالية اخرى شهدتها أرض العراق ، فبين عامى ١٧٠٦ م و ١٧٤٧ م حظى لواء « بغداد » بنـــوع من الاستقلال تحت حكم حاكمه « حسن باشا » وابنه « أحمد باشا » . ثم حدث أن اتحدت الألوية الثلاثة : « بغداد » و «البصرة» و « الموصـــل » فى ظل نوع من الاستقلال عن الأتراك فى الفترة مابين سنة ١٧٨٠ م و ســـنة ١٨٠٢ م .

* * *

وبينما كان ذلك يحدث ، كانت أحداث مقاومة الحكم التركى فى العالم العربى تسجل فى القرن الثامن عشر حركة استقلالية مســتنيرة بعض الشىء ، قادها فى ولاية « الجليل » على الشاطىء اللبنانى قائد هذه الولاية ، الذى أعلن الاستقلال عن الباب العالى ، وطرد الموظفين الأتراك ، وأحل محلهم موظفين من العرب ، وفتح نافذة ولايته على العالم مباشرة ، ودونما واسطة من رجالات آل عثمان وادارتهم المركزية • فعقد المعـاهدات التجارية ، والتحالفات السياســية ، ولقد كانت القيصرية الروسية تمد « للظاهر » فى هذا التمرد على تركيا العون الادبى ومظاهر التأييد .

ولكن هذه الحركة الاستقالية لم تدم طويلا ، فبموت « الظاهر » فى عام ١٧٧٣ م قضى الأتراك عليها وهى فى المهـد ، وقبل أن تتعدى ولاية « الجليل » الى غيرها من الولايات والامارات العربية الأخرى .

ولقد كان هذا الأفول السريع المفاجىء لهذه الجذوة الاستقلالية ، دليل ضعف القوى الاجتماعية التى قامت بها ، وقادتها ، أمام السلطات التركية وأمام قوى الدولة العثمانية التى لم تكن كبيرة الخطر ولا عظيمة الشأن والبأس والنفوذ .

* * *

وفى نفس التوقيت الذىحدثت فيه أحداث «الجليل» الاستقلالية ، كانت مصر تدق ناقوس الخطر للدولة التركيـــة ، وكانت تجرى فيها من الأحداث ما كان يخشى حدوثها الفاتح التركى الأول ، السلطان سليم •

« فعلى بك الكبير » ••• قد تمكن من السيطرة على بقية المماليك ، واصبح «شيخ البلد» أى كبير المماليك والأمراء الاقطاعيين ، ثم أخـــذ يتمرد على سلطات الآستانة ، ثم أعلن الاستقلال .

ولكن على بك ايقن أن استقلاله هذا لن يكون بمأمن من الغـــــدر العثمانى اذا هو لم يتخذ موقف الهجوم بدلا من موقف الدفاع ، واذا هو

لم يتخذ لنفسه مواقع امامية خارج الحدود المصرية ، واذا هو لم يبادر بتوجيه ضربات سريعة لجيش آل عثمان . فسير صهره « محمد بك أبو الذهب » على رأس جيش مملوكى الى الشام ، فاستولى عليه وضمه الى مصر هو والحجاز .

وانهزم العثمانيون فى الحرب امام جيش المماليك ، ولكنهم استطاعوا أن يضربوا « على بك الكبير » ، وحركته الاستقلالية ، عن طريق الخيانة والمؤامرات ، وبالرشوة التى كانت قانون العصر عند الأتراك . فاتفقوا مع « محمد بك أبو الذهب » ، قائد جيش « على بك الكبير » ، وصهره ، على الغدر بسيده وأميره ، فعاد بنفس الجيش الذى جهزه « شيخ البلد » ليهزم « شيخ البلد » ، وليخلفه ، فى النهاية ، جريحا ، فارا ، وليدعه يموت من تأثير الجراح ، وذلك فى نفس السنة التى مات فيها حاكم الجليل ، والتى انتهى فيها استقلال كل من «مصر» وامارة «الجليل»!!..

ولعل مما يستحق الملاحظة فى هذه الحركة الاستقلالية التى قادها «شيخ البلد» ، هى أنها نشأت ، وماتت ، فى محيط طبقة أمراء الاقطاع من المماليك ، وبعيدا عن العنصر الوطنى الذى لم يكن فعالا فى أحداث تلك الأيام ، لأنه كان «قنا» يفلح الارض لحساب أمراء الاقطاع والملتزمين ونظار الأوقاف ، او حرفيا تحولت تنظيماته الحرفية الى مسخ مشوه ، تجبى الضرائب للحكام الأتراك .

ولكن عدم مشاركة العنصر الوطنى المحلى فى هذه الحركة الاستقلالية ، لا ينفى أنها يوم قامت كانت استقلالا وعداء للأتراك ، وأنها كانت بسبب ذلك تعبيرا عن مصالحه وعواطفه وما يجيش فى صدره من آمال ، ويوم أصبحت خيانة وهزيمة ، وعودة الى قيد السلطنة العثمانية، كانت جرحا ينكأ ، وبابا جديدا يفتح للحزن والمظالم والاضطهاد . وكيف لا .. وقد ذكر المؤرخون عن « على بك الكبير » انه كان طموحا ، وانه كان يقرأ تاريخ الأبطال المصريين والمماليك العظام من امثال « الظاهر بيبرس البندقدارى » و « قلاوون » الذين حاربوا أعداء العرب والاسلام ،فيقول عنهم : « انهم كانوا مماليك .. مثلنا .... » ؟؟!!..

***

والحركة المهدية فى السودان .... انها كذلك كانت انتفاضة مسلحة ، وثورة شعبية شاركت فيها أعرض الجماهير فى السودان ضد الحكم التركى والنفوذ العثمانى ونمط الحياة الذى فرضه الأتراك ، وضد الموظفين الشراكسة الذين كانوا يتصرفون فى السودان والسودانيين كضيعة ، وكعبيد .

غير أن هذه الحركة المهدية تقدم لنا نموذجا جديدا ، ومتعـــــدد الجوانب ، لعمليات النضال والمقاومة التى تمت ضد امبراطــورية آل عثمان . فهى لم تكن فقط ثورة يلعب فيها الاقطاع دورا قياديا ، بل كان يشارك فى قيادتها وتمويلها تجار الرقيق ، وهى من هذه الزاويه ، تبرز كيف أ نبعض المجتمعات المتخلفة ، كالسودان يومها ، كانت توجد فيـه من القوى الرجعية والمصالح الطبقية المستغلة ما تتنافى وتتنـــاقض مع المصالح التركية التى تحمل معها الى جانب الاستغلال ، الذل والقهـــر وجرح المشاعر الوطنية ، واحتقار السودانيين .. ومن ثم كانت توجـــد امكانيات واسعة لحلف عريض يضم الانسان السودانى البســيط ، الى الاقطاعى ، الى تاجر الرقيق ، فى الحرب ضد نفوذ الأتراك .

وسمة اخرى تقدمها الحركة المهدية فى السودان ، وهى أنها كانت موجهة ايضا ضد نفوذ اوربا الذى اخذ يزحف على المناطق العربيــة فى القارة الأفريقية ، وانها من هذه الناحية تقدم نموذجا للتضامن العـــربى الذى اتخذ من العواطف والروابط الاســلامية والمشاعر الدينية طريقا له ضد الاجانب ، وضد طلائع الامبريالية الأوربية فى ذلك الحين.

ففى الوقت الذى كانت تضطرم فيه نار الثورة المهـــدية ، كان الاستعمار الانجليزى ، أساسا ، ومعه الاستعمار الفرنسى يجد ان السير، ويسرعان فى العدو ، لالتهام مصر وضرب الثورة العرابية ، والقضاء على حركة البعث والأحياء التى قادها أحمد عرابى من أجل الديمقراطيــة ، والاستقلال الحقيقى ، وتمصير الدولة المصرية . وتضامنت الحـــركة المهدية مع الثورة العرابية بوعى يستحق الدراســـة والبحث الى جانب الاعجاب والاكبار .

وفى نفس الوقت الذى كانت تخوض فيه الحركة المهدية معاركهـــا ضد التدخل الأجنبى ، والنفوذ التركى ، كانت منطقة وسط أفريقيـــا تشهد حركة عربية نضالية ، يقودها التجار العرب المسلمون ، اتخذتمن اقليم « زنزبار » واقليم « مانياما » المتاخم « لكاتانجا » مركزا للحـــركة والثورة ضد التدخل الأوروبى الزاحف على القارة السوداء .

والقائد العربى الذى كان يقود هذا النضال هو الشيخ « حامد بن محمد بن جونا » الذى كان يلقبه الأوربيون بـ « تيبوتيب » ، وقد دخل هذا القائد العرى معارك عديدة ضد الأوربيين المستعمرين ، واستمرت الحرب بينه وبين بلجيكا وحدها ثمانية اعـــوام (١٨٨٦ — ١٨٩٤ م) واستشهد فيها من العرب أكثر من سبعين ألف شهيد (١) !!.

(١) محمد الغتيت « الغرب والشرق من الحروب الصليبية حتى حرب السويس » .

ولقد كانت بين هذه الحركة النضالية العربية المعادية للاستعمار وبين الحركة المهدية المعادية للأتراك والاستعمار الأوروبى ، مشاعر وصلات ، وروابط جديرة بالدراسة والاعجاب ، ولقد بلغ من احساس الأوربيين المستعمرين بهذا الخطر ، وتقديرهم له، وفهمهم اياه حق الفهم، ان كتب أحد قادتهم « سيدنى لنجفور دهند » كتابا أسماه (سقوط عرب الكونجو) « اى والله عرب الكونجو » ؟!.. وقال فيه : « ان المعركة بين الغرب والمسلمين لم تعدمجرد معركة من أجل تجارة العاج والمنتجات الافريقية ، بل انها أصبحت معركة لدرء خطر توحيد جهود « تيبوتيب » و « المهدى » والتقاء حركتيهما الاسلاميتين للسيطرة على حوض نهرى النيل والكونغو باكملهما ، بحيث تقوم دولة اسلامية تكون بمثابة سد كبير عبر أفريقيا من المحيط الهندى حتى المحيط الأطلسى »(١) .

ونحن نجد فى هذا اللون من الوان المقاومة التى خاضها العرب ضد الاستعمار ، سواء التركى ، أو الذى فتح له الاتراك باب العالم العربى ، معركة خصبة ، جمعت فى ساحة القتال قوى اجتماعية كثيرة، شملت فى أحيان متعددة العناصر الاقطاعية ، والتجار ، بما فيهم تجار الرقيق . وليس ذلك بالأمر المستغرب ، لأن الاستعمار التركى كان يمثل بالنسبة للعرب مستوى من الاستغلال الاقطاعى أبشع من أن يتصور الآن ، ومستوى من القهر والمذلة والمهانة لا تسمح باى نمو لطاقات الانسان وامكانياته .

* * *

اما كيف كان الاقطاع العربى يتناقض احيانا ، وأحيانا كثيرة ، مع الدولة الاقطاعية التركية ، فان نموذج مصر ، والكثير من الحركات التى قاومته فيها ، يقدم خير شاهد وأصدق دليل .

فالمماليك كطبقة ، والتى سبق أن أشرنا الى مكانها من التنظيم الاقتصادى ، والنظام الاجتماعى ، والتى كانت تمثل بحق وصدق طبقة امراء الاقطاع ، هذه الطبقة كانت تجد أحيانا ، وعندما يزداد نفوذها ، وترزق « بشيخ بلد » ذى فطنة ونفوذ ، كانت تجد فى الجزية التى تدفع سنويا للسلطان ، والتى كانت تسمى « الخزنه » عبئا ماليا يستحق الثورة عليه ، والعمل من أجل منعه ، أو تقليله على أقل تقدير .

كما كانت تجد هذه الطبقة فى نفوذ الوالى العثمانى(الباشا)قيدا على حرية حركتها ، وشريكا لها فى النفوذ والسلطان .

---

(١) المرجع السابق . وراجع خريطة هذه الحركات العربية الاسلامية الافريقية فى آخر هذا الكتاب ..

وكثيرا ما كانت المماليك تجتمع لخلع (الباشا) ، وعندما يقررون ذلك ، يذهب وفد منهم الى القلعة ، ويقول مندوبهم للباشا تلك العبارة التقليدية : « انزل يا باشا » .. فيغادر الباشا — على الفور — البلاد .

ولم تكن هذه الطبقة الاقطاعية هي وحدها التي تمارس مهمة الاستغلال الاقطاعي ، فلقد كان الى جانبها ، يقوم بدور مماثل ، او مقارب ، او شبيه ، فئة « الملتزمين » المصريين الذين لم تكن علاقاتهم بالفلاح المصري تختلف — في الجوهر — عن علاقة الأمراء الاقطاعيين المماليك.

وايضا كانت هناك فئة علماء الأزهر ورجال نقابة الأشراف الذين يتولون اعمال « الالتزام » أو « النظارة » على الأوقاف التي أخذت مساحتها تتسع في ظل الحكم التركي ، هربا من المصادرة والتقلبات التي تحدثها الاضطرابات .

هذه الطبقة من الاقطاعيين المصريين كانت تتناقض مصالحها مع الوالي التركي ، والباب العالي ، والحكومة العثمانية ، في أحيان كثيرة جدا ، كما كانت تتناقض مصالحها مع أمراء الاقطاع المماليك .

وكما شارك العنصر الاقطاعي الوطني مع المماليك في انتفاضات وهبات وتمردات ضد الأتراك ، فلقد شارك هذا العنصر كذلك فيتمردات وعصيانات ضد المماليك .

ونحن نذكر ذلك الدور المتعاظم الذي اخذ يلعبه « العلماء » ومشايخ الأزهر ، كممثلين للعنصر الوطني في مقاومة طغيان المماليك ونفوذهم ، وتلك الاضطرابات والاضرابات الشهيرة والمتعددة التي أخذت أحيانا صور المظاهرات الشعبية التي تقتحم على المماليك قصورهم ، وتهددهم اذا لم يستجيبوا لمطالب الناس ، والتي أخذت في أحيان اخرى — كما يقول الجبرتي — صور الاعتصام في الجامع الأزهر ، واغلاق أبوابه ،وتعطيل الدراسة فيه ، بل والامتناع عن الآذان والصلاة لاثارة حماس الناس ولفت أنظارهم ، واستخدام المآذن في اعلان الثورة ولعن أمراء المماليك ؟!!.

فبقدر تعدد المظالم التي شهدها الناس في ذلك العصر ، كان تعدد التناقضات حتى بين الطبقة الاقطاعية نفسها ، وحتى بين الأجهزة التي تخدم نفس النظام ، وحتى بين التيارات الفكرية التي كانت تمدجذورها جميعا في تربة الاقطاع .

ولقد كان رجل الشارع في مصر ، الذي ظل زمنا طويلا بعيدا عن احداث السياسة العليا ، وبمعزل عن ادارة شئون البلاد ، كان الانسان

المصرى البسيط يشهد فى هذه الايام عنصرا اقطاعيا ، ولـكنه وطنى : وطنى لا بالمعنى المملوكى الذى تربى فى مصر ، وتعلم فيها ، وانما بمعنى انه قد نشأ فى القرية ، وعاش فيها ، وتعلم فى الأزهر ، ثم دخل «دائرة الالتزام » سيدا ، أو « تنظر » على عدد من الأوقاف .

وكان بين الجماهير المصرية ،والعربية ، وبين هذا القطـــاع من الاقطاعيين لغة مشتركة ، ومشاعر مشتركة ، ومصالح مشـــتركة فى التخلص من الأتراك ، أو شل نفوذهم واضعاف سطوتهم ، وتقليـــل ما يجبونه من أموال . والتخلص من فوضى الممـــاليك ، وظلمهم ، وما يمارسونه من مفاسد ومباذل ومنكرات .

وفى هذا المعسكر كان يقف الفلاح المصرى ، والتاجر ، والحرفى ، وطلبة الأزهر ، ورجال الطرق الصوفية ، يقودهم ويوجههم « العلماء ».

ومنذ هذه الأحـــداث أخذت تتبلور فى مصر ملامح الاتجـــاه الوطنى الذى أخذ يحث خطـــاه نحو الانفراد بالنفوذ فى مصر ، والتخلص ، رويدا رويدا ، من الأتراك والمماليك .

٢- ولكن .... أكانت هذه هى كل ألوان المقـــاومة التى شهدتها الأرض العربية للاستعمار التـــــركى ، والقهـــر العثمانى ؟؟.. وبمعنى آخر : أكانت هذه هى كل القوى التى تناقضت مصالحها مع مصالح الأتراك والمـــاليك ، فشنت ضد الأتراك والمماليك ألوانا من الحرب والصراع ؟؟..

وبتحديد أكثر : ألم يكن بالمجتمع العربى غير القوى الاقطاعيـــة التى اشرنا اليها ، عناصر مقاومةوقواعد صراعوحرب ضدالأتراك والمماليك؟؟.

والاجابة عن هذا السؤال ، تذكرنا بتلك القـــوى الاجتماعيـــة الجديدة التى صنعت الكثير فى العصر الاقطاعى ، عصر ما قبل النكســة القومية العربية التى تحدثنا عنها . وتذكرنا بالاشارة التى ســـبق أن قدمناها عن أن هذه القوى لم يقض عليها نهائيا ، وأن بقاياها قد ظلت فى احشاء المجتمع الاقطاعى ، وعاشت ليل الاحتلال العثمانى ، واســتمرت فى النمو والتقدم رغم كل الذى حدث لها فى هذه الأيام السوداء .

فلا ضربات الحروب الصليبية ، والمغول ، ولا تحول التجـــارة إلى « راس الرجاء الصالح » ، ولا سرقة الحرفيين والصناع المهرة والخبرة والمهارة التى قام بها السلطان سليم الأول ، ولا مصادرات الأتراك وسلبهم ونهبهم ، ما كان لذلك ، ولا لغيره ، ولا لأقسى منه وأشد ، أن يفرغ المجتمع العربى من هذا القلب النابض النامى ، الذى نسميه بالقوى الاجتماعيـــة الجديدة ، صاحبة المصالح غير الاقطاعية ، والتى تتناقض مصالحها مع الأتراك والمماليك تناقضا ليس من النوع الذى أشرنا اليـــــه ، والذى يحدث بين « الملتـــزمين » و « نظار الأوقاف » المصريين ، وبين الأتراك والمماليك . وانما تناقضا أشد وأعمق ، ولا يمكن أن يحل بأنصاف الحلول ، ولا بمجرد تخفيف المظالم ، وانما هو يتطلب ازاحة النفوذ التـــــركى ،

والقضاء على طبقة المماليك .. بل وازاحة النظام الاقطاعى برمتـــــه ؛ وتصفية الاقطاعيين ، بما فيهم « الملتزمين » المصريين ، وفئة «العلماء» «نظار الأوقاف» ، وبناء دولة جديدة ، مدنية وعصرية ، تزاح منهــا كل سمات المجتمع الاقطاعى وقسماته ومظاهره .

ونحن عندما نقول ان الضربات الشديدة والقاســية التى وجهت الى هذه القوى الاجتماعية غير الاقطاعية،لم تمت هذه القوى ، ولم تقض عليها ، وانها قد استمرت ، بل نمت ، فاننا نضع فى اعتبارنا حقيقة أن الأرض العربية ، رغم عصر النكسة ، قد استمر يحيا فوقها الناس ،وأن هذا المجتمع ، رغم مأساته ، لم يتوقف عن الحياة والسـعى فى مناكب الأرض لصنع وسائل معاشه وما يعينه على قضاء حوائجه من أدوات .

واية جماعة انسانية تعيش فى ظل مجتمع اقطاعى ، مهمــا كان حديدى القبضة ، لابد وان تنشأ فى ظلها واحشــائها قوى جديدة من التجار والصناع والحرفيين والمثقفين .

والنظام الاقطاعى يولد ، بقسوته وبشاعة استغلاله المشـــاعر الطبقية الحادة عند هذه الفئات ، وعند جماهير الفلاحين المعدمين.

كما ان المواقف المعادية من جانب امراء الاقطاع للتجار والصـــناع والحرفيين والمثقفين ، وجماهير الفلاحين ، وتهـــادن هؤلاء الأمراء مع السلطة التركية ، ومشاركتها عملية الاستغلال والاستنزاف ، كل ذلك يدفع القوى الاجتماعية الجديدة الى أن تبصر مصالحها الخاصة ،وتبصر معسكرها المســتقل ، وتفكر فى الثورة ، وتنزع اليها تلقائيا ، أو بوعى وتنظـــــيم .

على أن انعدام الوضوح فى الرؤية ، الذى كان يصيب هذه القـوى الاجتماعية الجديدة ، وانعدام النظرية الثورية لثورتها الاجتماعيــــة والسياسية ، وانعدام التنظيم السياسى الذى يساعد على وضـــوح الرؤية وبلورية النظرية الثورية ، كل ذلك قد دفع هذه القوى الاجتماعية ، فترات طويلة ، الى السير خلف قيادة وطنيـــة ، ولكنها اقطاعية ، تنطق باسمهم ، وتثور معهم ، وتسير فى مقدمة صفوفهم ، ولكنها تحجم عن الاطاحة بالنظام من أساسه ، واحداث التغيير الجذرى فى بناء المجتمع .

ولقد سارت الجماهير الشعبية والقوى الاجتماعية الجـديدة خلف هذه القيادة الوطنية الاقطاعية فى اكثر من ثورة ، واكثر من انتفاضــة ، واكثر من تمرد ، ولكن هذه القيادة كانت تقف دائما ، وباستمرار عنـد الحدود التى لا تمكن الثورة من الاطاحة بالاقطاع ، وبناء مجتمع جديد .

والقيادة « الشعبية » التى تبلورت فى السيد « عمر مكرم » نقيب الاشراف ، أيام الحملة الفرنسية ، وقبيل عهد محمد على باشا ، والى أوائل ايام حكمه ، وغيره من « العلماء » والأعيان ، نموذج لهذه القيادة التى نتحدث عنها .

ونحن وان كنا لا نريد تقديم تقويم تفصيلى لهذه القيادة « الشعبية » هنا ، لأننا سنتناولها فى مكان آخر من هذه الدراسة (١) ، الا اننا نريد هنا أن نضع بعض الحقائق التى تؤكد ان هذه القيادة « الشعبية » لم تكن اصدق معبر عن القوى الاجتماعية الجديدة ، وانها كانت بنت المجتمع الاقطاعى ، وأن مصالحها وقيمها الفكرية كانت مرتبطة بنظام الاقطاع.

ونحن نعلم أن اثارة هذه القضية ، بهذه الصراحة ، وبهذاالوضوح، وعلى هذه الأسس العلمية الموضوعية ، سيصدم مشاعر بعض الذين لم يتناولو تاريخنا بما يستحق من الجدية والمثابره وكشف الحقيقة وتقديمها ، بصرف النظر عما غلفتها به الأوهام المثالية من قشور ، وما أحاطتها به من هالات .

والا فكيف نفسر :

* وقوف القيادة « الشعبية » الى جانب « الملتزمين » عندما اراد محمد على أن يأخذ منهم ثلث « الفائض » الذى يحصلون عليه نظير « الالتزام » ؟؟.. وتزعم السيد عمر مكرم « الملتزمين » فى هذه المعارضة سنة ١٨٠٥ م؟.

* لجوء « الملتزمين » الى القيادة «الشعبية» ، والسيد عمر مكرم، فى معارضتهم المساهمة فى القرض الذى طلبته الحكومة فى مايو سنة ١٨٠٦ م ؟!.

* لجوء « الألفى بك » أحد كبار الأمراء المماليك ، الى القيادة « الشعبية » ، والسيد عمر مكرم بالذات ، ليتوسط للمماليك لدىمحمد على باشا ، **فيعفو عنهم ويعطيهم جهة يستغلونها لحسابهم** . وهم من نعرف طبقيا وتاريخيا ؟!

* وقوف القيادة « الشعبية » الى جانب بقاء نظام الأوقاف ، ومعارضة الغائه من جانب محمد على ، وهو النظام الذى نعرفه ،فسادا، واسلوبا اقطاعيا فى الاستغلال والاستثمار ؟!.

* تلك المناقشة التى دارت بين الشيخ « الشرقاوى » ــ أحد اعمدة هذه القيادة ــ وبين محمد على ، والتى جاء فيها :

---

(١) راجع فى ذلك كتابنا « العروبة فى العصر الحديث » .

الشرقاوى : ينبغى أن ترفقوا بالناس ، وترفعوا الظلم .

محمد على : أنا لست بالظالم وحدى ، وانتم أظلم منى ، فانى رفعت عن حصتكم « الفرض والمغارم » وانتم تأخذونها من الفلاحين . وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ الفى كيس . (اى أن الحكومة قد أعفت أراضى « العلماء » من الضرائب ، واستمروا هم فى جباية هذه الضرائب من الفلاحين !!) ؟!

* رضاء هذه القيادة «الشعبية» عن النظام الضرائبى لمحمد على عندما أعفى أراضيها وأوقافها من الضرائب ، وغضبها على هذا النظـام عندما طبقة على أملاكها وما « تتنظر » عليه من أوقات ؟! .

* وقوف هذه القيادة « الشعبية » ضد الغاء نظام «الالتزام»وهو القسمة الرئيسية فى النظام الاقطاعى حينئذ ؟!.

* أن النقاط الخمس التى كانت فى «جدول أعمال» اجتماع التمرد الذى قادته هذه القيادة « الشعبية » ضد محمد على كانت هى المطالبة:

١ ــ بالغاء الضريبة على « الأوسية » . وهى أملاك الملتزمين المعفاة من الضرائب .

٢ ــ الغاء الضريبة على الأوقاف ، وهم كانوا نظارها ، والمستغلين لها.

٣ ــ الغاء مقاسمة «الملتزمين» فى «فائض» التزامهم .

٤ ــ الغاء ضريبة «التمغة» على المنسوجات والمصـنوعات والأوانى (وهم هنا يحاولون الاستمرار فى دورهم القديم ، أى قيادة قوى غـير اقطاعية ، والتعبير عن مصالحها) .

٥ ــ طلب الافراج عن أحد طلبة الأزهر ، الذى اعتقل بالقلعة ؟!

* وصف «الجبرتى» لهم ، وهو أحد «العلماء» ، ومن أشد الناس عداء لمحمد على ونظامه ، بانهم : « افتتنوا بالدنيا ، وهجـروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس ، مع ترك العمـــل بالكلية ، **وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء** ، واتخذوا الخـدم والمقدمين والأعوان ، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب ، **وصارديدنهم واجتماعهم ذكر المســائل الدنيــوية ، والحصص والالتزام وحســاب الميرى والفائض والمضاف والرماية والمرافعــات والمراســلات ....** زيادة عما هو بينهم من التنافر التحاسد والتحــاقد على الرياســة ، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور ، وحظوظ الأنفس ، على الأشياء الواهيـــة » .؟!

كيف نفسر هذه الحقائق الصلبة العنيدة ، التى تعرى هـــــذه القيادة « الشعبية » من الأوهام المثالية التى أحاطها بها بعض الـكتاب الوطنيين المخلصين ؟!؟!

اننا نريد أن نقول فى هذا الصدد بعض الكلمات القليلة ... اننـا أمام حقيقتين يجب أن ننبه لهما الأذهان :

الأولى : اننا فى صراعنا ضد نظام عائلة محمد على الملكية ، قـــد اشتط بعض كتابنا الوطنيين ، فاضفوا على أعداء محمـــد على ما ليس لهم من مجد ، وجردوا محمد على مما اقتضته ظروف عصره من أعمال كبيرة ، ومفيدة ، لم يصنعها هو وحده ، وانما صنعها الشعب المصرى فى ذلك الحين .

وتحت هذا الخطأ تندرج تلك الصورة المثالية التى فى ذهن شبابنا ومثقفينا عن هذه القيادة « الشعبية » وما تم بينها وبين محمـــد على ونظامه من صراع وتناقض واصطدامات .

والثانية : ان تقديمنا لهذه القيادة «الشعبية» على هذا النحـــو ، انما هو محاولة لتقديم حقيقة موقفها ، ومدى ثوريتها فى فترة زمنيـــة محددة ، هى التى نتحدث عنها فى هذه الصفحات ، تلك الفترة التى لم تعد فيها الحركة الجماهيرية تدور بين اجنحة رجعية مختلفة ، وتفاضل بينها ، والتى وصلت فيها القوى الاجتماعية الجديدة فى أحشاء المجتمع الاقطاعى ، الى درجة من القوة والذكاء والادراك تجعلها ترفض الاستمرار فى التحرك خلف هذه القيادة التى قادتها تارة ضد الأتراك ، وطورا ضد المماليك ، ولكن فى حدود نظام الاقطاع واطاره .

لقد قادت هذه القيادة « الشعبية » الجماهير المصرية ببســـالة ونجاح ضد الحملة الفرنسية ، وضد الأتراك ، قبل الحملة الفرنســـية وبعدها ، وضد المماليك . ولقد خلفت لنا تراثا نضاليا نعتز به ونفخر ، ولابد من بعث هذه الصفحات وتقديمها ، ولـــكن بشرط أن تقدم فى اطار المصالح الطبقية التى كانت تمثلها ، والتى كانت تلعب دورا تقدميا وثوريا فى المجتمع ، وبشرط أن نبصر حركة الزمن والتاريخ والمجتمع ، واللحظة التى عجزت فيها هذه القيادة عن أن تكون المعبر بدقة وأمانة عن المصالح الجديدة ، للقوى الاجتماعية الجديدة فى المجتمع .

هاتان حقيقتان لابد من وضعهما فى الاعتبار .

ونحن لم نثر هذا الموضوع لمجرد تصحيح تقويم تاريخى ، وانمـا لنقدم به الدليل على أن تطورات الأحداث فى المجتمع الاقطاعى كانت قد

وصلت يومئذ ، وبالذات فى مصر ، الى الدرجة التى تحتم شكلا جديدا للحركة الثورية ، وتنظيما جديدا يصوغ مصالح الناس صياغة جديدة ، ومن ثم قيما جديدة ، وقبل كل شيء قيادة من نوع جديد .

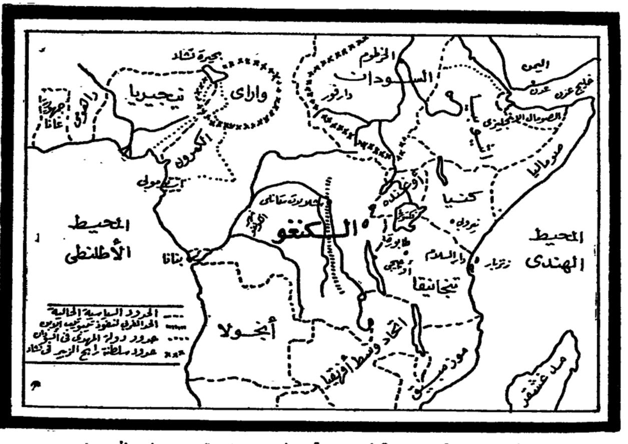
ولقد وصل المجتمع ، منطلقا من المصالح الجديدة للقوى الاجتماعية غير الاقطاعية النامية فى احشائه ، الى اعتاب مرحلة الثورات والانتفاضات الحديثة ، ضد الاقطاع ، ومن ثم ضد كل أمراء الاقطاع من أتراك ومماليك ، وأيضا ضد العنصر الاقطاعى المحلى .

وهذه الفترة التى تؤرخ لها بنهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، هى التى نؤرخ بها بداية ظهور البورجوازيات العربية على مسرح السياسة العربية ، لا بنفس الشكل الجزئى والجنينى الذى ظهرت به هذه القوى قبل عصر النكسة ، يوم صاغت قواها ومصالحها وقيمها « القومية العربية » .. وانما فى طور جديد ، وبفكر انضج ، وبساعد اقوى ، لتضيف جديدا الى مضمون السمات التى تكونت للقومية العربية :

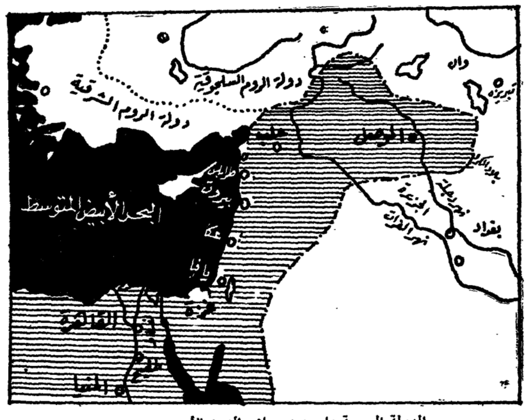
* جديدا لسمة الجماعة العربية الواحدة .
* جديدا لسمة اللغة العربية المشتركة .
* جديدا لسمة الأرض العربية الواحدة .
* جديدا لسمة التكوين النفسى المشترك للجماعة العربية الواحدة .

ولتناضل لتضيف الى هذه السمات ، سمة جديدة ، هى سمة « الاقتصاد العربى المشترك » ، ومن ثم تضيف الى الظاهرة الموضوعية التى تحصلت للجماعة العربية فى عصر الاقطاع ، وهى « القومية العربية » ، تضيف اليها ظاهرة موضوعية جديدة ، لازالت تناضل الجماعة العربية حتى اليوم لامتلاكها ، وهى ظاهرة « الأمة العربية » الواحدة .

وهذه الحركات البورجوازية العربية ، وهى الثورات والتغييرات التى أحدثتها ، سواء فى مصر ، أم فى المشرق العربى ، أم فى المغرب ، هى موضوع المرحلة التاريخية التى مرت بالمجتمع العربى بعد المرحلة التى تحدثنا عنها ، وهى المرحلة التى تحمل ملامح (العروبة فى العصر الحديث) وما اكتسبت من سمات وقسمات .



الحركات العربية الاسلامية فى افريقية (المهدى ـ تيبوتيب ـ رابح الزبير)



الدولة العربية على عهد صلاح الدين الأيوبى

أهم مراجع الكتاب ومصادره

المؤلف	الكتاب
ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ	البخلاء
	رسائل الجاحظ
د. احمد امين	فجر الاسلام
	ضحى الاسلام
	ظهر الاسلام . جـ١ ، ٢ ، ٣ .
	زعماء الاصلاح فى العصر الحديث .
امين الخولى	فى اموالهم
	صلات بين النيل والفولجا
	المجددون فى الاسلام .جـ١
احمد توفيق المدنى	هذه هى الجزائر
د. ابراهيم أنيس	من أسرار اللغة
د. امام ابراهيم محمد	تاريخ الفلك عند العرب
ابو العلاء المعرى	رسالة الغفران
	لزوم ما لا يلزم
ابو حامد الغزالى	الجام العوام عن علم الكلام
	فضائح الباطنية
د. ابراهيم صقر	تطور ونمو القومية العربية (من محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية)
ابراهيم كبه	اضواء على القضية الجزائرية
اميل لودفيج	عطيل
ارسكين تشايلدرز	الطريق الى السويس
ابن جنى	الخصائص . جـ١
ارنولد توينبى	العالم والغرب . ترجمة : روفائيل جرجس
ا. ليفى بروفنسال	مذكرات الأمير عبد الله (آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة) « تحقيق »
ابن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى	تفسير البيضاوى
بشير الحاج على	الثقافة الوطنية وثورة الجزائر
د. جورج حنا	واقع العالم العربى
	هرطقات فريسية
جورجى زيدان	تاريخ التمدن الاسلامى . جـ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

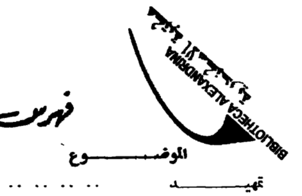
المؤلف	الكتاب
جمال الدين الأفغانى	خاطرات جمال الدين الأفغانى
	رسالة الرد على الدهريين
	التعصب
	العروة الوثقى « بالاشتراك مع الامام محمد عبده »
جورج كيرك	موجز تاريخ الشرق الأوسط . ترجمة : عمر الاسكندرى
ج. ا. هوبسون	الامبريالية . ترجمة : عبد الكريم احمد
د. حسين فوزى	سندباد مصرى
د. حسين خلاف	التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث
روجيه جارودى	الحضارة العربية ، والدور الذى مثلته فى التاريخ . ترجمة : قدرى قلعجى
ساطع الحصرى	ماهى القومية ؟
	محاضرات فى نشوء الفكرة القومية
	آراء واحاديث فى القومية العربية
	الدولة العثمانية
صبحى وحيده	فى اصول المسألة المصرية
د. طه حسين	فى الأدب الجاهلى
	حديث الأربعاء . جـ١ ، ٢ ، ٣ .
	على وبنوه
	على هامش السيرة . جـ١ ، ٢ ، ٣
د. طه الحاجرى	الجاحظ . حياته وآثاره
عبد الحميد جوده السحار	الاشتراكى الزاهد أبو ذر الغفارى
عبد الرحمن الرافعى	عصر محمد على
عبد الرحمن بن خلدون	المقدمة
د. عبد الرحمن البزاز	بحوث فى القومية العربية
عبد الرحمن الكواكبى	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
	أم القرى
على أدهم	المعتمد بن عباد
د. عبد الحميد سند الجندى	ابن قتيبه ١
د. على عبد الواحد وافى	عبد الرحمن بن خلدون
د. على الخربوطلى	المختار الثقفى
عزيز مرقص منصود	الوحدة الايطالية
على محمد على	نهر الأردن والمؤامرة الصهيونية .
عارف تامر	القرامطة
د. عبد الرحمن فهمى محمد	النقود عند العرب . ماضيها وحاضرها .
على السقاف	العدوان البريطانى على اليمن
د. عبد الحليم محمود	التفكير الفلسفى فى الاسلام . جـ ١ ، ٢ .

المؤلف	الكتاب
عمر الدسوقى	اخوان الصفا
عبد الله الريماوى	المنطق الثورى لحركة القومية العربية
	القومية والوحدة فى الحركة القومية العربية الحديثة
الدكاترة عبد المنعم ابو بكر ، محمد عواد حسين ، عبد اللطيف أحمد على ، محمد مصطفى زيادة ، احمد عبد الكريم مصطفى	كفاحنا ضد الغزاه
د. فؤاد عبد المعطى الصياد	المغول فى التاريخ
د. فيليب حتى	تاريخ العرب (مطول) ج ١ ، ٢ ، ٣
	تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . ج ١ ، ٢ .
ف.ا. لينين	حركة التحرر القومى فى الشرق
	حق الأمم فى تقرير مصيرها
	ملاحظات انتقادية حول المسالة الوطنية .
د. قدرى حافظ طوقان	الخالدون العرب
	تراث العرب العلمى
كارل ماركس ، فريدريك انجلز	رسائل متبادلة
د. محمد انيس	الدولة العثمانية والشرق العربى
د. محمد ضياء الدين الريس	الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية
	النظريات السياسية الاسلامية
محمد عبده	رسالة التوحيد
	الاسلام والرد على منتقديه
	الاسلام دين العلم والمدنية
محمد على الغتيت	الغرب والشرق من الحروب الصليبية حتى حرب السويس ج ١ ، ٢ ، ٣ .
	ثورات العرب
محمد عماره	القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب .
	الأمة العربية وقضية التوحيد
محمد نعش	السوق الافريقية المشتركة .
د. محمد فهمى لهيطه	تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة
محمد كامل مرسى	تطور الملكية العقارية فى مصر
محمود كامل	الدولة العربية الكبرى
مكس نودور	روح القومية . ترجمة : عادل جبره
ميشيل عفلق ، اكرم الحورانى ، صلاح الدين البيطار	اتحاد مصر وسوريا
د. نجلاء عز الدين	العالم العربى
هـ. ج. ويلز	موجز تاريخ العالم . ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد .
يحيى ابو بكر ، كمال متولى	حقيقة السلام

المؤلف	الكتاب
يونس صالح الحريشى	طريق الوحدة الاقتصادية والبلاد العربية
يوليوس فلهوزن	تاريخ الدولة العربية . ترجمة : محمد عبدالهادى أبوريده.
يوسف خطار الحلو	العاميات الشعبية فى لبنان
	القرآن الكريم
	العهد القديم
	العهد الجديد
	رسائل اخوان الصفاء . ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
	الموسوعة الفلسفية المختصره .
	وثائق مؤتمر حزب جبهة التحرير الوطنى الجزائرى سنة ١٩٦٤ م
	وثائق المؤتمر العربى الأول (باريس سنة ١٩١٣ م)
	محاضرات المعهد العالى للدراسات الاشتراكية
	دائرة معارف الشعب . المجلدات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
	الف ليلة وليلة ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

الـــدوريات

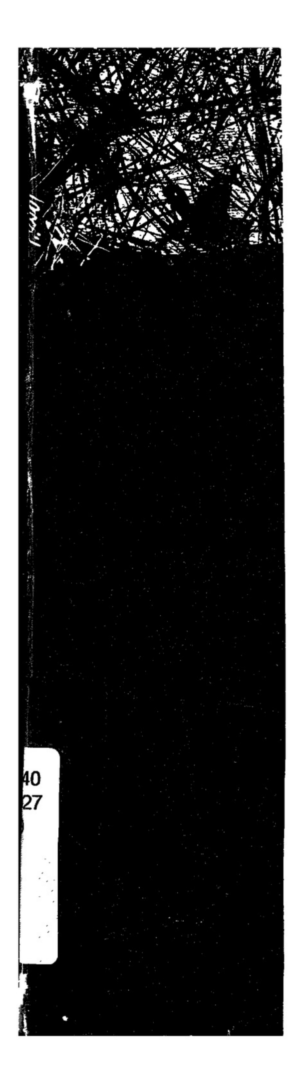
الأهرام
الأهرام الاقتصادى
الجمهورية
آخر ساعة
روز اليوسف
نهضة افريقيا
تراث الانسانية
المجلة
العربى
الكاتب
الطليعة
الهلال
بنك مصر
الفجر الجديد (السودانية)
الحرية (اللبنانية)



فهرس

الموضـــــوع	الصفحة

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر



وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
١٩٦٧

ــمــ
الثمن ٤٥